عزيز نيسين

دعها إنها راشدة



ترجمة: د. هاشم حمادي

دعها
إنها راشدة

* **دار الحصاد للطباعة والنشر**

سورية - دمشق

....

ص.ب:٤٤٩٠ فا:٢١٢٦٣٢٦
ها:٢٢٢٥٧٣٧

e-mail:jameh@mail.sy

* الطبعة الثانية :٢٠٠٦

....

تنويه : صدرت الطبعة (١) لهذه الرواية بعنوان(ملك الكرة) ولوجود رواية أخرى بنفس العنوان، أبدل منعاً للإلتباس

عزيز نيسين

دَعها إنّها راشدة

ترجمة: د. هاشم حمادي

أسرة آل فيرفبيرفيرك العريقة

لا شك أن كل محب للرياضة ، فما بالك بعشاق كرة القدم ، يعرف من هي سيفيم فيرفبيرفيرك ، التي كافأتها الألسنة الشريرة بلقب غريفون . (يا إلهي إن الناس في منتهى الجور والحسد !) . أما إذا لم تكن أحد عشاق الرياضة ، وتنتمي إلى علية القوم ، فإنك دون ريب ، تعرف سيفيم وأسرة فيرفبيرفيرك كلها .

فأنت لم تنسَ بعد ما حدث في مسابقات اليخوت العام الماضي ، حين أدهشت سيفيم الجميع – المشاهدين والرياضيين على السواء بإعلانها المفاجئ:

– إنني أضع جائزة كبيرة للفائز .

وفي اليوم التالي كتبوا عن الجائزة الكبيرة هذه ، ليس في زاوية الأخبار الرياضية ، بل في الصفحات المخصصة لأخبار المجتمع المخملي .

فاز في السباق – كما كان متوقعا – سوآت الزنجي .

– والآن – قال لسيفيم بوقاحة – هاتي جائزتك الكبرى ...

كان عشاق السباق، الذين غص بهم الشاطئ على استعداد للمراهنة على أن جائزة سوآت ستكون قبلة من الحسناء سيفيم. ولم يستطع خيالهم الضحل أن يتجاوز هذا الابتذال . بيد أن نوايا الفتاة بهذا الصدد كانت من نوع آخر. فقد عمدت، بكل بساطة ، إلى فك أزرار فستانها و بحركة حازمة ، كما لو أنها تسحب بكلة المظلة ، انتزعت صدريتها القرمزية ، ومن ثم قلدتها الفائز الذاهل، بحركة استعراضية ، كما لو أنها أوراق اعتماد . فما كان منه إلا أن حمل الفتاة بين ذراعيه ، وفي لحظة أصبح وإياها على ظهر اليخت . ولم يكد الجمهور المحترم يثب إلى رشده حتى رأى الجائزة الكبرى القرمزية ترفرف بفخار على الصاري ، أما الجمهور فقد وقف مأخوذاً ، يلاحق بنظره اليخت

المبتعد ، حاملاً الجائزة الكبرى ، التي راحت ترفرف فوق زرقة اليم ، وكأنها فراشة وردية .

وفي اليوم التالي أطلقت ألسنة السوء إياها لنفسها العنوان ، وبذلت قصارى جهدها . فراح تصرف سيفيم البريء ، يتضخم – كما الكرة الثلجية، بالتفاصيل الحادة ، إلى أن وصل في تدحرجه مسامع حسيب فيرفييرفيرك نفسه، والد سيفيم ، رب الأسرة الأنبل ، وهو إنسان يتمتع بالكثير من الشهرة والاحترام في المجتمع المخملي . ولم يكن الحسد ليضن بالتفاصيل المشوقة أبداً. ولا أحد يفوق شاهد العين مهارة في أن "يجعل من الحبة قبة" . فشهود العيان بالذات هم من بذلوا قصارى جهدهم من أجل التأكيد لحسيب فيرفييرفيرك أنهم رأوا بأم أعينهم ... كلا ليس صدرية ابنته العزيزة ، بل قطعة أخرى ، أمر وأدهى ، لا يمكن الحديث عنها بصوت عال ، وهي تتأرجح على صارية يخت الزنجي .

لم يتمالك والد سيفيم ، الذي يغض الطرف عن كل تصرفات ابنته ، لم يتمالك نفسه فانفجر .

– يا للعار ... لكن كيف تجرأت ! ... لقد لطخت شرف الأسرة ...

وفكر حسيب بيه بضرورة توجيه أول تحذير جدي لابنته الطائشة ، التي فرطت بكرامتها وبشرف الأسرة ، لكن الأم – وكما يحدث غالباً في أسرنا – تدخلت في النزاع :

– رب ضارة نافعة – قالت ميهْجوري هانم المدبرة – فتصرف ابنتنا بالمحصلة سيقدم لنا خدمة جليلة ، ولن يعود إلا بالنفع على شركة أسرة فيرفييرفريك ، التي تتاجر بالثياب النسائية الداخلية . إنها لقية دعائية حقيقية.

كانت جائزة سيفيم الكبرى ، مثلها مثل تلك القطعة الأخرى ، الأدهى والأمر ، والتي لا يمكن الحديث عنها بصوت عال ، من الدفعة الأخيرة التي وصلت الشركة من أمريكا .

– بالحق نطقت – استسلم رب الأسرة – فكل دعاية مفيدة . لكنه قرر أن يستعلم عن سوآت الزنجي .

أما فيما يتعلق بسوآت الزنجي ، الفائز في السباق ، والذي حالفه مثل هذا الحظ ، فقد كان شاباً في حوالي الأربعين ، قوي البدن ، في عز شبابه – كما يقال – له عينان زمرديتان ، وشوشة سوداء كثيفة ، فكان محط تنهدات سافرة من جانب الجنس اللطيف من مختلف العمر – من السبعة عشر وحتى الخمسين . كان ذلك نوعاً من العشق الشامل ، الذي كان يبدو أن أي امرأة لا تستطيع تجنبه .

كان هذا الشاب الجميل يمضي الصيف كله على متن يخته ، فكان جلده يلمع بسبب السفع البحري الصحي ، ولهذا فقد لقب بالزنجي . لكن الغريب أن غرام النسوة بسوآت لم يكن يعمر طويلاً ، حيث تحل خيبة الأمل، وأحياناً حتى الاحتقار والكراهية محل الشوق . فما السبب يا ترى ؟ باختصار إن الذنب في ذلك ذنب أنفه ، وهو واحد من أكبر الأنوف في البلاد . لكن الواجهة لم تكن تناسب البضاعة الموجودة داخل المخزن . كانت النسوة يخدعن أنفسهن، إذ يربطن بشكل مباشر بين حجم أنفه وبين مآثر سوآت الفعلية .

وبدورها وقعت سيفيم غريفون ضحية هذا الضلال . آه كم فتنها أنف سوآت الواعد ! وكم كانت خيبة أمل الفتاة عميقة حين وجدت نفسها مع الزنجي لوحدهما . وهذا ما جعلها تفرك أنف سوآت على رؤوس الملأ ، وتهمس بغنج :

– إنك مخادع ، ليس إلا ...

هكذا تداعت الخرافة عن سوآت الزنجي . أما سيفيم ، التي خابت آمالها ، فقد قررت فراق البحر ، والاستقرار في البر ، مكرسة نفسها تماماً لكرة القدم ، لعبة الملايين المحببة – والأصح ليس لكرة القدم بقدر ما كرستها لفريق كرة القدم المشهور عغ – كما كان يطلق على فريق نادي "عمود الغبار" الذي يضم أحد عشر مقداماً جاهزين ، من أجل الفتاة ، لكل شيء ، بما في ذلك الفوز في بطولة البلاد بكرة القدم . تلكم كانت الفتاة سيفيم غريفون ، ابنة أسرة فيرفييرفيرك الموقرة ، والتي يشار إليها بالبنان في المجتمع المخملي .

كان آل فيرفييرفيرك يمضون الصيف كله على البحر ، ولحسن الحظ أنه في متناول أيديهم . ففي كل يوم من أيام الآحاد تنطلق الأسرة إلى المسبح،

بترتيب لا يتغير : في الطليعة حسيب بيه ، الأب ، ومن ورائه ميهجوري هانم، الأم ، ومن ثم ابنتهما الحسناء سيفيم . وفي هذا الأحد بالذات انضم إلى ذيل الأسرة الموقرة أحد الشبان . كان يقتفي أثرهم بعناد ، لدرجة أن رب الأسرة نفسه اضطر لملاحظة وجوده ، على الرغم من أنه لم يكن عادة يهتم بمثل هذا النوع من التفاهات الدنيوية : وبالفعل لا ينقصه ، وهو رجل الأعمال الجدي ، الذي يتاجر بالألبسة الداخلية الأمريكية ، إلا أن يهتم بعشاق ابنته الكثر .

– سيفيم – خاطب الشاب الفتاة ، التي تسير في مؤخرة الموكب – هل هذا العجوز جدك ؟

– أوهو ! ردت الفتاة ، وهي تبتسم بود .

حين اقتربت الأسرة من المسبح ، توقفت سيفيم فجأة ، بعد أن تأخرت قليلاً عن أبويها ، وراحت تنزع حذاءها ببطء . وكان من شأن هذا – كما اعتقدت سيفيم – أن يدفع الشاب ، الذي يتعقبها ، إلى تصرفات حاسمة . لكن هذا – للحقيقة – حاول إعادتها إلى جادة الصواب :

– سيفيم ، عزيزتي ، لكن درجة الحرارة الآن ثلاثاً وأربعون في الظل.

– أوهو ! وبابتسامة جردته الفتاة من سلاحه ، وللحال اختفيا معاً في كابينة المسبح .

ولا ننكر على حسيب بيه فطنته ، فقد بدأ القلق يساوره من أن الشاب المجهول لم يتصرف بلباقة تماماً .

- من هو هذا الشاب ؟ – سأل زوجته بصرامة .
- أي شاب ؟
- "أي شاب ، أي شاب!" ، ذلك الذي ظل يتعقبنا طوال الطريق . هل تعرفينه ؟
- من ؟
- يا الله ! ذلك الذي يبدل ثيابه الآن في الكابينة مع ابنتنا .

- كيف ؟ ! أولا تعرف قلب دفاع نادي عغ ؟ إنه أحمد المشهور ! أحمد الذي لا يمكن اختراقه ! وليس عبثاً أنهم يطلقون عليه اسم أحمد الجدار .

لاذ حسيب بيه بالصمت بارتباك . يا للعار ! أن لا يعرف مثل هذه الشخصية المشهورة ، التي تكاد تكون بطلاً قومياً ...

- آ – آ ... إذن فهذا هو ؟ كيف لا ... يا عيب الشوم ، أما أنا فقد اعتقدت أن هذا الذي أخذ ابنتنا غريب .

- إنك مستعد لأن تتصور كل ما هب ودب – لاحظت الزوجة بتقريع– مالك لا تكف عن مراقبة الطفلة ، تضغط على حالتها النفسية ؟ ...

- إن لم يقم الأبوان بالمراقبة والضغط فسيضغط على الطفل شخص آخر – قاطعها حسيب بيه بلهجة إرشادية ، وأشار برأسه ناحية الكبينة إشارات ذات مغزى .

لحق الوالدان أن يسبحا في البحر ، وحتى أن يجفا ، متمددين على الرمل ، قبل أن يفتح باب الكابينة ، وتخرج سيفيم من هناك ، ومن خلفها أحمد.

- انظري ، ها هي أخيراً تغادر الكابينة – تمتم حسيب بيه باستياء . لكن ميهجوري هانم لم تتحرك حتى، واكتفت بالقول :

- إنها تخرج متى يحلو لها . الفتاة أصبحت راشدة . دعها وشأنها.

كان لميهجوري هانم ، وهي المرأة الحصيفة ، وجهة نظرها إزاء الطريقة ، التي يجب على الفتاة المتواضعة ، العروسة أن تتصرف بها . فلا يضير الفتاة – العروسة أبداً أن تكون لديها شلة واسعة من المعارف . لا بل على العكس . وإذا كان الأب لا يعرف هذا الأمر ، البديهي جداً ، فإن من الأفضل له أن يسكت ، وأن لا يزعج الفتاة في البحث عن سعادتها .

ولما كان حسيب بيه لا يريد الخلاف مع زوجته ، على الرغم من أنـــه كان من الواضح أن الخلاف لا مناص منه ، فقد أدار ظهره ، وراح يهمهم ، لكن بصوت عال ، بما يكفي ليصل مسامع زوجته :

- يا سلام على الفتاة المتواضعة ... شلة عريضة من المعـــارف ... هم... يجب أن تكون أعرض ، لكن لم يعد ثمة مجال ... فتاة - عروسة ... لكن عن أمثالها يقال : "عانس ..." .

وبغية الانصراف عن الأفكار المتجهمة والاســترخاء قلــيلاً ، جلــس حسيب بيه ، وراح يحدق بالبحر بنظرة لا معنى لها . وبعد السباحة راحــت صلعته تلمع في الشمس ، مع أنه لم يكن يبدو عليه أي صلع في وقت آخــر، وذلك بفضل التفنن في ترتيب خصلات شعره المتبقية .

لكن منظر البحر لم يطرد الأفكار المقلقة . إنه لم يكن لــيظن بابنتــه السوء أبداً لولا قوامها ، الذي بدأ في الآونة الأخيرة يتخذ - إذا مـــا تحــدثنا بصراحة - شكلاً فظيعاً .

-شيء رائع - قالت ميهجوري هانم الرصينة ، رداً على مخاوفــه - فمع التقدم في السن يصبح الجميع ميالين للسمنة .

- أعذريني ، لكن سمنة ابنتنا تبدو من جانب واحد - اعتــرض الأب بتردد .

- لا تضحكني . فليس بمقدور الإنسان أن يتحكم بسمنته ، ولن تبقـــى رشيقة بشكل دائم . كل شيء يتوقف على البنية .

لدى كلمة "بنية"[1] لاذ حسب بيه بالصمت ، لأنه لم يكن يرغـــب فـــي تحويل الحديث العائلي إلى مستوى النقاش في مجال السياسة الداخلية .

كانت والدة سيفيم الفاتنة على ثقة راسخة أن مخاوف بعلها لا تستند إلى أي أساس . إذ كانت تعتقد بحق أن تذكير الأبناء يومياً بتدابير الحذر الأولي لم يعد ضرورياً في ظل المستوى ، الذي بلغه الطب المعاصر ، وسعة اطـــلاع فتيات اليوم ... ومع هذا ، فبعد الحديث في المسبح ، قامت ميهجوري هانم ،

---

(1)- هنا تلاعب باللفظ ، فكلمة Constitution تعني البنية ، وتعني الدستور .

من باب الحيطة ، بمرافقة ابنتها إلى طبيب مشهور ، يقدم خدماته لهذه الأسرة العريقة منذ عهد بعيد .

– دكتور ! إن شرفك ... شرفنا ... شرفها ... شرف العائلة ، وحتى الشركة ...

أما الطبيب المشهور ، الذي مرَّ على يديه الماهرتين كل شرف نساء هذا الساحل تقريباً ؛ فقد فحص حالة سيفيم باهتمام ، ورد ، كأنه مصلح ساعات:

– أمر تافه . سوف نصلحه ...

يجب أن نلاحظ أن الطبيب كان على اطلاع على أمور وريثة عائلة فيرفييرفيرك . فلا تقولات الناس ، ولا أخبار المجتمع المخملي نسيت سيفيم غريفون . الكل يعرف أن أبنة فيرفييرفيرك انتقمت لخيبة أملها بسوآت الزنجي، رياضي اليخوت المنحوسِ ، بإقامة صداقة مع فريق كرة القدم المظفر ، التابع لنادي عغ ، ولم تبقَ هذه الصداقة دون أثر . ولا شك أن اللطخة القذرة كان من شأنها أن تلوث سمعة العائلة والشركة . لكن الطبيب كان حاذقاً في عمله ، وقد أزال اللطخة بكل مهارة. ومن البدهي ان للسرعة والنوعية العالية سعرهما الخاص . وهكذا كان مزيل اللطخات المشهور يكسب الكثير من إنقاذ الشرف . فعلية القوم لا يبخلون ، ولم يبقَ أمام الشركة إلا أن تدفع الفاتورة. ولم تخفَ هذه العملية على الصحفيين ، مقتنصي الفضائح الرخيصة الذين أطلقوا عليها ساخرين صفة "التجميلية" .

ومما يشرف آل فيرفييرفيرك أن العائلة حافظت على هدوئها المصطنع أمام الناس . فقط في البيت كانت ميهجوري هانم تطلق العنان لسخطها ، وهي تقرأ الهذيان الجرائدي حول عملية سيفيم التجميلية . أما فيما يخص حسيب بيه، رب الأسرة ، فكان يكتم سخطه بكل مهارة ؛ يقف أمام المرآة ، ويموه صلعته بكل دقة .

أحمد الجدار

من يعرف على ماذا تتوقف اللياقة الرياضية للاعب كرة القدم ؟ إنها تتوقف أحياناً على أسباب لا تمت للرياضة بأية صلة .

فهذا – على سبيل المثال – أحمد ، الملقب بالجدار ، المشهور في طول البلاد و عرضها، قلب الدفاع ،الذي لا يخترق في فريق عغ ، غالباً ما يساوم سيفيم الحسناء قبيل المباراة الهامة :

– إذن كلا ، إذا ما خسرنا ؟

– كلا إذن. – تقول سيفيم بشكل قاطع .

– وإن لم يفز أحد.

– إذن فلن يفوز بي أحد .

– وإذا ما ربحنا ؟

وهنا تقول سيفيم ، و قد غضت لحظها حياءً : " نعم " . وبعد هذا لم يكن ثمة في ملعب كرة القدم لاعب يعادل أحمد. فقد كان ينفذ بكمل نجاح " الحماية الشخصية " و يحافظ على " المنطقة " . وتراه يندفع عبر الملعب، يصول ويجول ، يطعن الأقدام ، يمسك الخصم من يديه ، من سرواله ، ويضرب الكرة بقوة تجعلها تصل إلى المنصة . وبكلمة واحدة كان أحمد الجدار قادراً على تأمين الفوز لفريقه بشكل دائم . أما سيفيم ، وهي الفتاة الصادقة ، فكانت تبر بوعدها دائماً . وبدأت العمليات التجميلية تتوالى واحدة إثر أخرى ، وقد لفتت هذه الناحية انتباه الصحافة . حيث تمكن حملة الأقلام من اكتشاف الصلة المباشرة بين العمليات التجميلية وبين اللعب الناجح لظهير الوسط في فريق عغ . وقد سارع الوالدان الخائفان إلى اتخاذ تدابير مضادة ، ففي أيام المباريات ، التي تنظم بمشاركة فريق نادي عغ كانا يتركان سيفيم في

البيت بأية ذريعة ، أو يرسلانها في سفرات خارج المدينة . إذ أن استمرار التعلق بكرة القدم بهذا النفس ، يعني عدم التمكن من العثور على خطيب لائق لابنتهما ، وحينذاك سيصبح مستقبل العائلة وشركه فيرفييرفيرك على كف عفريت . في البداية حققت حيلة الوالدين النجاح ، لكن الظهير الوسط لـ عغ الذي لا يخترق ، بدأ ، و قد حرم من دعم سيفيم المعنوي و الجسدي،بدأ يكتئب ويتزحلق ، مما انعكس للحال على أداء الفريق كله – فراح يخسر المباراة تلو المباراة . ولما كان قادة نادي عغ يدركون أن حظ الفريق في المباريات يقع خارج نطاق اختصاصهم ، فقد قرروا اتخاذ الإجراءات الحاسمة. فلتكن هناك عملية " تجميلية " أخرى . إن نادى عغ مستعد في النهاية لأخذ بعض النفقات على عاتقه . فحين يتعلق الأمر بشرف الفريق لا داعي لإحصاء النقود. إن شرف الفتاة هو قضية عائلية ، أما شرف الفريق فقضية عامة ، لا بل وقضية وطنية . ولذا لا بد من الدخول في مفاوضات مع أهل سيفيم ، التي تعتبر بالنسبة لنادي عغ ليس مجرد جنية طيبة ، بل و ملاكه الحارس . و قد تبنى القيام بهذه المهمة الحساسة ديوندار مهذار بيه ، أمين عام النادي ، وصديق حسيب فيرفييرفيرك الحميم . وهكذا فقد شرح لحسيب بيه المأزق القائم بكل لباقة .

– إذا ما استمرت الأمور على هذا المنوال يا عزيزي فإن عغ سوف يتدحرج إلى المرتبة الأخيرة . فهل يعقل أنك ستسمح بذلك ؟ إن أحمد الجدار هو تسعة أعشار الفريق ، هذا عداك عن أننا دفعنا ثمنه ثلاثة آلاف ليرة . دع سيفيم تحضر المباريات – وقرر مهذار بيه أن يطرق الحديد و هو حام – حين تكون ابنتك على المنصة فإن أحمد يتحول إلى سور حصن منيع ، وعندما لا تكون فإن السور يتداعى ، و يستولي الأعداء على الحصن .

ترك كلام ديوندار مهذار بيه الحماسي و الملتهب انطباعاً هائلاً لدى الأب فيرفييرفيرك ، كيف لا : تسعة أعشار عغ ! ثلاثة آلاف ليرة .

– إن الحل الأمثل لهذا الوضع – قال مهذار بيه ، مختتما حديثة ، بلهجة مؤثرة – هو زواج أحمد وسيفيم .

و كاد حسيب بيه المصدوم يسأل عما يمنع أحمد من الزواج إذن ، لكنه تلعثم ، وتمالك نفسه في الوقت المناسب. فما حاجة آل فيرفييرفيرك إلى هذا

الزواج ، إذ ليس لدى أحمد المال و لا المكانة في المجتمع . أضف إلى هذا أن أحمد لا يمكن أن تعتبره من صفوة العقلاء ، هذا عداك عن أنه سكير ومقامر مبتذل جداً . وفي الوقت نفسه فقد اغتر حسيب بيه كثيراً ، لا بل واعتـز ، إذ اكتشف من مهذار بيه مدى أهمية ابنته في مصير عغ والمدافع المشهور لهـذا النادي . ولولا القمار إذن لكان بالإمكان الموافقة على زواج سيفيم مـن هـذا المدافع الخارق ، الذي لا يخرق ، وحتى فتح مخزن تجـاري صـغير لهـذا الصهر .

باختصار إنه جاهز للتشاور مع قرينته – هذا ما قاله حسيب بيه للأمين العام مهذار بيه ، وهو يودعه .

وفي تلك الليلة تحدث الزوجان فيرفييرفيرك بشكل جدي للمرة الأولـى عن مستقبل ابنتهما . لكن الحديث لم يطل .

– يجب تزويج سيفيم على جناح السرعة – قالت الأم ، ثم أضـافت : المهم أن يكون عندها زوج ، وحينذاك ...

– طبعاً – أكد الأب موافقاً – بعد الـزواج ليهـتم بهـا زوجهـا . إن بوسعها، بعد أن تتزوج ، أن تشجع من تريد ، ليكن أحمد الجدار ، أو سـوآت الزنجي – سيان عندي .

وفي صباح اليوم التالي بدأ الوالدان الحريصان البحث خلسة عن زوج لسيفيم .

وللإنصاف يجب أن نشير إلى أن ترشيح ظهير الوسط من عغ لم يبحث في الأوساط القيادية لأسرة فيرفييرفيرك ، ليس لأنه مقامرعبيط ، ولا يجيد إلا استخدام قدميه ، فعند الضرورة كان بوسع حسيب بيه أن يعثر له على عمـل مناسب في مجال تسويق الثياب الداخلية النسائية . إنمـا المـشكلة أن أحمـد الجدار لم يكن يريد مجرد سماع الحديث عن الزواج من سيفيم . فقـد لحقـت الفتاة أن تصادق جميع اللاعبين الأساسيين في عـغ ، بمـن فـيهم لاعبـي الاحتياط. إن الجنية الطيبة لفريق "عمود الغبار" قد جعلـت جميـع اللاعبـين أقرباء ، أخوة روحيين . ولذا فقد أصبح أحمد ينظر إليها نظرة أخوية ، حتى أنه راح يستحثها على الزواج العاجل .

- إن علاقاتنا بعد الزواج لن تكون يا عزيزتي قذى في عيون الجميع.

وافقت سيفيم ، لكن من أين لها بالخطيب ؟ صـحيح أن لـديها شـلة عريضة من المعارف ، لكنها تبينت أنها شلة في غاية الضيق في مسألة عندما يتعلق الأمر بالزواج .

ومع هذا فإن الأمر لا يحتمل التأجيـل ، وفـي أحـد الأيـام أعلنـت ميهجوري هانم لابنتها أن عليها أن تتزوج قبل نهاية الموسم، موسم كرة القدم بالطبع.

سلالة شفران – زاده النبيلة

لقد عثر على نفسه بنفسه ، أي أن أحداً لم يبحث عنه . ففي الوقت الذي كانت فيه عيون آل فيرفييرفيرك تزوغ بحثاً عن ملاك في السماء ، كان العريس المنتظر يدب على الأرض الخاطئة ، دون أن يخطر له ببال ماذا ينتظره . أما اسم هذا المنحوس فهو سعيد ريجيصين . والواقع أن شاباً ، بمثل طبعه ، وبمثل مزاجه ، كان لقية حقيقية لسيفيم . في وقت آخر لما كانت هذه الفتاة المغرورة لتلقي نظرة ناحيته . لكن ها قد حل اليوم ، الذي ضربت فيه أمها الطاولة براحة يدها ، وقالت بحزم :

– إما أن تعثري لنفسك على زوج ، وإما أن تتزوجي بمن نختار لك أنا ووالدك .

أوصدت المسكينة باب غرفتها على نفسها ، وراحت تذرف الدموع ، ثم خرجت ، وقد قررت الزواج بأول رجل تصادفه، شرط أن لا يتدخل في شؤونها ، ولا يدوس حريتها الشخصية ...

كان سعيد ريجيصين ، خلافاً للتقليد في العائلة ، أبيض الشعر ، أبيض الحاجبين ، أبيض الجلد ، أبيض الوجه – حتى ليخيل إليك أنه قد مرغ في الدقيق من قمة رأسه حتى أخمص قدميه . أما عيناه فكانتا لا تكفان عن ذرف الدموع ، لأن الأهداب البيضاء لا تحميهما من الضوء . حتى خلف نظارة داكنة كان يزر عينيه باستمرار . أضف إلى هذا أن الشاب كان يشكو من ضعف نظر يعادل ناقص خمس عشرة . فكان يتعثر بشيء ما دائماً ، مما جعل جسمه الأبيض مزداناً بالكدمات والخدوش من مختلف الألوان والعيارات . ولما كان طوله مئة وأربعة وثمانين سنتميتراً ، بينما لا يزيد وزنه على واحد وخمسين كيلو غراماً ، فقد كان يبدو وكأنه عمود بطول مترين . ولم يكن بوسع أحد أن يحدد عمره . البعض يقول إنه لا يقل عن الأربعين ، بينما يؤكد

آخرون أنه لم يتجاوز السادسة عشر ، وحده سعيد يعرف أنــه بلــغ الرابعــة والعشرين .

مذ كان سعيد طالباً في المدرسة ، بدا واضــحاً أنــه سيـصبح عــالم رياضيات عظيماً ، وقد وجد نفسه عاجزاً عن التغلب علــى أي علــم آخــر باستثناء الرياضيات . لكن منظر سعيد الصغير كان زاهداً – خاملاً ، مما دفع أساتذته لان يتنبأوا له بمستقبل عالم مشهور ، واعتقدوا أنه سيقوم ، من كل بد، باكتشاف عظيم بفضل الرياضيات . ولهذا السبب بالذات – على الأرجــح – أرسلوه ، بعد المدرسة مباشرة ، إلى باريس لدراسة علم الفلك . لكن دراســة علم الفلك انقطعت في منتصف الطريق، دون أن يتمكن سعيد من اكتشاف أي نجم جديد ، وبالمقابل تعلق الشاب بعلم التنجيم ، بعــد أن اكتــشف أن لديــه مهارات مدهشة في تحديد مكان الشيء الضائع أو المسروق ، وقد أخذ سعيد ، الأبيض الوجه ، موهبة التبصير عن أحد الأشخاص المريبين ، الــذي كــان يطلق على نفسه اسم الفقير والحاوي والساحر الهندي .

تعلم سعيد كشف ماضي الناس ومستقبلهم ، وقراءة أفكارهم عن بعــد ، ولذا فقد كان من المستحيل خداعه، أو غشه ، إن لم يقم هو بخداع نفسه ، ويقع في ورطة بسبب قصر نظره وحيائه .

وقد ساعدته حدة بصيرته حتى في حياته الخاصة . فحين يستيقظ فــي الصباح – على سبيل المثال – ويعجز عن العثور على جوربيــه ، فإنــه لا يبحث في أرجاء الغرفة عنهما ، بل يجلس في كرسيه ، ويتناول قلماً وورقة، ويروح يحسب ، بطريقة الاستبعاد – أين يمكن أن يكون هــذا الجــورب ، أو ذاك في هذه اللحظة . وإذا ما جاءت نتيجة التحليل الرياضي تقريبية فقــط ، فإن سعيداً يفتح الحقيبة ، ويأخذ جورباً جديداً . على هذا النحو كانت تتكــرر الأمور كل صباح تقريباً ، فلا غرابة أن غرفته تغص بالجوارب ، المبعثــرة في كل مكان تمد إليه يدك – على رف المكتبة ، تحت الوسادة ، في البــراد ، في الكأس ...

قادته طريقة التحليل التنجيمي إلى استنتاج مفاجئ : هناك العديــد مــن الفتيات، الراغبات في الزواج منه . وقد شعر سعيد – وهو الحاد البــصيرة – مسبقاً ، أن الزواج لا يبشر بالخير بالنسبة إليه . ولذا فقد راح يتجنب المجتمع

النسائي . وعموماً فإن سعيداً – على الأرجح – يمكن أن يجذب البنات لـيس بذهنه المتوقد ، بقدر ما يستطيع ذلك بفضل ثرائه الفاحش .

وقد تكدست ثروته هذه على مدى مئتين وخمسين عاماً . ففي الأزمنـة الغابرة ، كان يعمل في ورشة الإسكافيين المدعو يوسف ، الملقب بـ "الأرقط" بسبب لون بشرته الخلاسي .

التقط الجيش الانكشاري يوسف شاباً ، لكن اتضح أنه غير صالح للعمل في الانكشارية ، ففرزوه إسكافياً . استطاع يوسف ، بفضل ذكائه وتواضعه ، أن يصبح رئيس ورشة ، حتى أنه تبوأ فيما بعد منصب حاكم إحدى الولايات ، التابعة للإمبراطورية العثمانية الشاسعة في وقت من الأوقـات . ومنـذ تلـك اللحظة ، التي لا تنسى ، أصبحوا يلقبونه بيوسف باشا الأرقط . لكن يوسـف باشا لم يحكم ولايته سوى شهرين . فالصدر الأعظم كان يعتبر أن على الوالي أن يقدم له الرشاوي ، أما الوالي فكان يعتبر أن مهمته هي أخذ الرشاوي ، لا تقديمها. وهذا ما دفع الصدر الأعظم لأن يدبج وشـاية بحـق يوسـف باشـا الأرقط، إلى البادشاة ، متهماً إياه بظلم الشعب . ولما كـان البادشـاه بطبعـه منصفاً ، غاية الأنصاف ، فإنه مستعد أبداً لأن يقدم رأسه فداء شـعبه . ودون أن يضيع الوقت في التفكير ، أصدر فرماناً بقطع رأس الوالي يوسف باشـا ، الذي ظل يسوم الشعب جوراً على مدى شهرين .

وإذا ما صدقنا التاريخ المخطوط للإمبراطورية العثمانية ، فإن إعـدام يوسف باشا الأرقط لم يجر على ما يرام . فحين جاء الجلاد ، المـاهر فـي صنعته والمتحمس لها ، مع زبانيته إلى يوسف باشا ، عملها هذا في سـرواله من شدة الخوف ، وأسلم الروح ، مما أحزن الجلاد جداً .

بعد إعدام الوالي انتقل كل ما لديه إلى خزنة البادشاه ، أما ما استطاعت أسرة يوسف باشا تهريبه عن أعين الرئاسة فكان كافياً وزيـادة لمـدة مئتـين وخمسين عاماً .

ولم ترغب ذرية يوسف باشا ، الذي أعدم حسب الروايـة الرسـمية ، ومات من الخوف حسب رواية أخرى ، في الاحتفاظ بلقب الأرقط ، واختارت لنفسها لقباً نبيلاً – شفران زاده . وفيما بعد تخلت عن شفران زاده أيضاً ، لأن

الناس بدؤوا يقولون عن أفرادها : "إنهم شفران زاده ، إياهم الذين ينحـــدرون من صلب الإسكافي يوسف الأرقط ، الذي عملها في ســـرواله..." . وهكـــذا فحين صدر في تركيا قانون الألقاب [1] أخـــذوا لنفـــسهم لقبـــاً ديمقراطيـــاً – ريجيصين.

وباختصار فإن سعيد ريجيصين ، ابن أسرة بالغـــة الثـــراء . وكانـــت الأسرة قد أرسلته إلى باريس لاكتشاف نجوم جديدة في السماء ، لكنه عاد إلى اسطمبول مخيباً ما عقد عليه من آمال . والغريب أنه تمكن هنا بالذات ، مـــن اكتشاف نجم رائع في شخص سيفيم فيرفييرفيرك .

لم يكن آل ريجيصين، الكثيرون إجمالاً، ضد زواج سعيد ، كانوا مـــع زواجه ليضمنوا بذلك استمرار شجرة العائلة العريقة . لكن جميـــع الأقربـــاء يعارضون الزواج من سيفيم لأنهم يعتبرونها غير مناسبة لعمل على هذا القدر من الأهمية – مواصلة نسب آل ريجيصين العريق – . فراحوا يؤكـــدون أن سيفيم هي نسخة طبق الأصل عن والدتها، التي تدوخ رؤوس رجال الحي كله، وسيكون من الصعب العيش مع زوجة كهذه ، فهي تستطيع أن تغش أياً كان ، وتخدعه ...

كان سعيد يرد على كل حجج أقربائه رداً معقولاً :

–كيف يمكن خداع من يعرف المستقبل ، ويقـــرأ الأفكـــار . كـــلا إن خداعي مستحيل .

تلكم إحدى ثمرات العلم ! تلكم نتيجة الحياة في باريس !

كان سعيد – بالطبع – على حق من وجهة نظره ، فقبل تعرفـــه علـــى سيفيم لم تتمكن من خداعه سوى امرأة واحدة وحيدة . ثم أي خداع هذا ، طالما أنه كان يعرف كل شيء سلفاً .

وإليكم ما حدث .

في باريس ، حيث يستطيع أي شخص أن يعثر لنفسه على محبوبـــة ، بالطعم الذي يرغب ، واللون الذي يشتهي ، لم يحالف الحـــظ ســـعيداً أبـــداً .

---

[1] ـ في عام ١٩٣٤ صدر عن المجلس (البرلمان) مرسوم اعتماد اسم العائلة في تركيا.

كانــت النساء يهربن من خلَفِ يوسف باشا ، النحيل ، الأخرق والخجــول . حتى مال سعيد لم يكن قادراً علَى مد يد العون له في إشباع الرغبة الطبيعيــة باقتناء صاحبة ، والتمتع بروائع الباريسيات ... يا إلهــي وحتــى بعــد هــذا يتحدثون عن أن في باريس ... دب اليأس في نفس ريجيصين المسكين ، وكاد يصل حد القنوط ، حين هبطت عليه السعادة فجأة في دار الهندوسي ، قــارئ البخت ، الساحر والحاوي . فقد تعرف سعيد على إحدى الزنجيات ، التي لــم تلبث أن رفعت الكلفة معه ، على الرغم من عدم حدوث أي شــيء بينهمــا . كانت المرأة تعامل سعيداً معاملة الأم لابنها ، وقد أدركــت بــسرعة فــي أي وضع بائس يوجد سعيد .

فقالت بحنان :

– أريد يا سعدون أن أساعدك في شيء ما ، دون مقابل بالطبع . فقــط تدفع لي مقابل ذلك ألف فرنك .

ارتجف ريجيصين من فرط السرور ، لكنه تمالك نفسه :

– حسن ... لكن النقود فيما بعد ... بعد أن تساعديني .

– سيلفوبليه (من فضلك) قالت الزنجية الذكية ، وقــادت هــذا الكــائن البريء إلى أستوديو تصوير ، حيث قدمته للموديل مادلين ، إنها نفس مادلين ، التي يمكن أن تعثر على صورها في حقائب وجيوب الرجــال مــن مختلــف القارات . كانت مجموعة الصور هذه تشكل نوعاً من وسائل الإيضاح ... إذا جاز التعبير ... في ميدان التربية الجنسية . وفيها تظهر مادلين شبه عارية ، وليست لوحدها دائماً ، والأصح أنها دائماً ليست لوحدها ...

لم يدرك سعيد – بالطبع – إلى أين جيء به . ولما رأى في صـــالون الاستديو الكنبات والأرائك ، ذات المساند والوسائد ، والمرايا المعلقة ، قــرر أنه في غرفة نوم مادلين بالذات .

لم تكد الزنجية تنصرف ، حتى بدأت مادلين عملها : فلم يكــن لــديها وقت ، وهي المحترفة ، التي تجيد تقدير وقت العمل ، تضيعه مــع ســعيد ، فالتقطت في اليوم نفسه أكثر من أربعين لقطة ، تصور "حب" مادلين وسعيد ، وهذا بالطبع ما لم يخطر للمسكين ببال . كان التصوير يتم بوساطة الكــاميرا

الخفية . لكن العمل هو العمل ، وبين الفينة والأخرى كانت مادلين تسأل بصوت عال ، مخاطبة المصور ، المختبئ خلف الستارة :

– هل هذا جيد مسيو ؟

ولما كان سعيد على ثقة أن السؤال موجه إليه ، فإنه يرد على عجل :

– وِي مدموازيل (نعم يا آنستي) ، شكراً ... حتى أنه جيد جداً ...

– جيد مسيو ؟

– ميرسي بوكو (شكراً كثيراً) ، مدموازيل ...

– وهكذا ؟

– آخ ، لا تسألي ...

صحيح أن المصور رد في إحدى المرات .

– هل يوجد هنا أحد غيرنا ؟ – سأل سعيد بوجل ، وقد احمر وجهه من شدة الخجل .

–"آخ مونَامور (أخ يا حبيبي) ! ومن يمكن أن يكون هنا ؟ كل ما في الأمر أن الأكوستيك (توزيع أجهزة الصوت) هنا ...

حين نادته مادليب"مونَامور" ، نسي سعيد الدنيا وما عليها ... وفي أحد الأيام قرر المصور ، وهو مناضل متحمس من أجل الثورة الجنسية ، تصوير الحب بين ثلاثة ، ودعا إلى الأستوديو عملاقاً ضخماً بشاربين . ولم يتمكن سعيد ، الذي أعمته الأنوار ، التي لا ترحم ، من أن يرى أن أحدهم قد استقر إلى جانب مادلين . وحين سألت مادلين المصور ، كما هي العادة : "هل هذا جيد مسيو؟" قال سعيد : "آخ ، لا تسألي!" ، ورد المصور ، "رائع" ، أما العملاق ، أبو الشوارب ، فهمهم : "كيف أقول لك...".

وإذ سمع هذه المرة عدة أصوات ، سأل سعيد :

– هل هناك أحد غيرنا ؟

– آخ مون آمور ! ومن يمكن أن يكون هنا غيرنا ؟

ولكن أبا الشوارب سعل في هذه اللحظة .

- هناك أحد يسعل – همس سعيد شاكياً .

-كل ما في الأمر أن الأكوستيك هنا ، يجعلك تسمع صوت سعالك يا عزيزي – قالت له مادلين مطمئنة .

- لكنني لم أسعل .

- للتّو سعلت مونامور ...

مد سعيد يده لكي يعانق مادلين ، فتعثر بشارب أحدهم ... لكم تفاخر سعيد فيما بعد بفطنته : فقد كان على وشك أن يطلب يد مادلين ...

انتهت المغامرة الغرامية بأن أوسع العملاق سعيداً ضرباً ، أما مادلين فقد طردته ...

تلك كانت المرة الوحيدة ، التي تمكنت فيها امرأة من خداع سعيد ، هذا إذا ما اعتبرنا ذلك خداعاً .

وفيما بعد ، في اسطمبول ، كان سعيد يحب التباهي بمغامراته "الآمورية" (الغرامية) ، مؤكداً للجميع أنه كان يعرف كل شيء منذ البداية ، وأنه تظاهر بأنه لا يلاحظ شيئاً ، زاعماً أنه كان يتظاهر بالغفلة ...

في الوقت الذي عاد فيه سعيد إلى اسطمبول كان الجو في بيت فيرفييرفيرك ينذر بقرب العاصفة الرعدية ... فالعمليات التحميلية تتوالى واحدة إثر أخرى ، أضف إلى هذا أن الطبيب بدأ يتمرد : فبسبب مثل هذه العمليات ، اضطر للتخلي عن عمله الليلي ، ولذا فقد رفع أجره ثلاث مرات . حتى ميهجوري هانم الرزينة لم تتمالك نفسها ، وبدأت تحاول إقناع سيفيم :

- بنيتي ! عليك أن تجدي أباً لابنك ، فأنت في التاسعة والعشرين .

- سيكون عمري تسعة وعشرين بعد شهر – صححت سيفيم لأمها.

- أنا أيضاً امرأة – أضافت الأم – وأفهم حبك لكرة القدم . لكن علينا الآن أن نفكر ، قبل كل شيء ، بأب للطفل ، خافي الله ، يكفي عمليات تجميلية. لسوف أعثر لك على زوج بنفسي .

– أعطوني مهلة ثلاثة أيام – ردت سيفيم بهدوء – فإن لم أعثر خلال هذا الوقت على الشخص المناسب ، رضيت بمن تختارون .

– للأسف أنك لا تشبهينني – تنهدت الأم – فهل يمكن أن تعثري خلال ثلاثة أيام على مغفل لين العريكة .

– هناك يا أماه رجال يتظاهرون فقط أنهم أغبياء – قالت الابنة بلهجة الواعظ – لقد وضعت عيني على ثلاثة مغفلين ، لكن لا بد في البداية من امتحانهم ، وإلا فإن أي شيء يمكن أن يحدث فيما بعد . هل تذكرين آيلا ؟ للوهلة الأولى أيضاً كان زوجها يبدو بسيطاً ، أما الآن فلا يدع المسكينة تتحرك قيد أنملة . وقد هم بالطلاق ، حين فاجأها مع قلب الهجوم من نادي "المحتاجين" .

– هل يعقل أنه طلقها ؟ سألت الأم باستغراب .

– الحمد لله أن أصحاب النادي أقنعوا الزوج بعدم إثارة فضيحة . فالفرس لا تنحر لأنها تعثر فجأة – قالت سيفيم بسخط – إنني لا أريد أن أعكر السعادة الأسرية بمثل هذه التفاهات . إن علي أن أكون على ثقة تامة من أنني سأبقى أتمتع بحريتي واستقلالي بعد الزواج أيضاً. أرجوك أن تمهليني ثلاثة أيام ، فهم ثلاثة ...

أخيراً حل ذلك اليوم ، الذي عثرت فيه سيفيم غريفون على ضحيتها سعيد ريجيصين ، واكتشف سعيد أخيراً نجمته .

كان الابن الشاب ، المنحدر من أسرة شفران زاده العريقة ، هو الذي خرج للقاء نجمته . فها هو يتمشى مع صاحبه عبر شارع الاستقلال ، يشاطره ذكرياته الباريسية . ما الذي يقفز إلى ذهن الرجل الحقيقي عند كلمة "باريس"؟ النساء طبعاً . وما دام الأمر كذلك فإن الحديث يدور – بالطبع – حول مادلين، سيما وأن سعيداً لم يعرف نساء أخريات .

– كنت أتظاهر بالطبع ، فأنت تعرف أن خداعي ليس بالأمر السهل . وبكل حماسة يوافق صاحبه ، الذي استدان منه للتو خمسمئة ليرة :

– فعلاً ! فأنت زينة الشباب ... لقد أحسنت التصرف ...

- كيف لا ! فقد أرادت مادلين أن تخدعني .

- تخدعك أنت ؟ وجدت من تخدعه !

- هكذا بالضبط ! تصور أن مادلين أقسمت لي أنها عذراء .

- وماذا تبينت ؟ ...

- أن لديها في الواقع زوجاً .

- يا سلام ! وكيف تمكنت من فضحها ؟

- بكل بساطة .... كنت ، كلما استلقي معها في الفراش ، أسمع صوت رجل في مكان قريب ... ومن يمكن أن يوجد في غرفة نوم المرأة غير زوجها ، آه ؟

- بالضبط .

- لا أخفيك سراً أنه لولا تعلمي على يد الفقير الهندي ، إذن لما اكتشفتها على حقيقتها ... وإن كان لا يهمني أهو زوجها، أم شخص آخر ... فأنا إنسان عملي ، كما تعرف ... ودعهم يحلون الموضوع بأنفسهم ، أليس صحيحاً ؟

- طبعاً ...

- وهكذا فإن زوجها هذا التقط لنا الصور خلسة ! لقد أدركت ذلك منذ اليوم الأول ، لكنني تغاضيت ....تريد أن تلتقط الصور ، فالتقطها بالصحة والعافية ، أليس صحيحاً ؟

- اسمع ، هل اكتفي بالتقاط الصور ، أم أنه صور شريطاً سينمائياً؟

- ولماذا ؟ سأل سعيد بوجل – هل عرضوه هنا ؟

كان صاحب سعيد من هواة الأفلام الإباحية ، وقد سبق له أن شاهد مرتين فلماً من بطولة سعيد ومادلين .

- لا أعرف ، إنني أسأل فقط – أجاب هذا متهرباً .

استمر سعيد يتحدث عن "عاصمة العواصم" بحماسة ، أما صاحبه ، الذي مل من كل هذه الثرثرة ، فقد تخلف عنه قليلاً ، ثم اختلط بالزحام ، ولم يلبث أن اختفى ... وفي هذه اللحظة بالذات مرت سيفيم بالقرب من سعيد .

للوهلة الأولى اعتقدت أنه مجرد مشاكس عادي ، وهمت بتجاوزه، لكن زحام المارة الشديد أجبرها على السير بمحاذاته . وهو لا يزال يتحدث ويتحدث عن باريسه . وأصاخت سيفيم السمع ، فأدركت أنها أخطأت في تقديرها ، حتى أنها اهتمت بقصته المسلية.

– تصور ، أنني مددت يدي ، وماذا وجدت ؟ – تابع سعيد قصته بحماسة – لقد عثرت على شارب رجل ... وصحت : "مادلين لمن هذا الشارب؟" ، وإن كنت – كما تعرف – قد أدركت فوراً أنه شارب رجل ... لكن لو أنني سألتها بلطف ، إذن لقالت – على الأرجح – إنه شاربها هي ...

أطلقت سيفيم ضحكة رنانة . وهنا لاحظ سعيد أنه لا يمشي مع صاحبه، بل مع فتاة حسناء .

– عفواً – ارتبك سعيد – كنت أسير مع صاحبي ، لكن يبدو أنه تخلف.

– بسيطة ، لا داعي للاعتذار ، إن قصتك يا بيه أفندي ممتعة جداً – قالت سيفيم ، وهي بالكاد تتمالك نفسها من شدة الضحك – وماذا حدث بعد ذلك ؟

–إذا كانت هذه رغبتك يا هانم أفندي فإنني سأتابع ...

وبالطبع فإن سعيداً صور الأمور وكأنه لقن أبا الشوارب درساً . لكن سيفيم أدركت ، وهي تنظر إليه ، أن أمامها شخصاً يتلقى الضربات أكثر مما يكيلها .

– خسارة أنني لم أسمع القصة من البداية .

– إنني على استعداد لأن أعيدها على مسامعك يا هانم أفندي ، إذا كانت هذه رغبتك ... اعذريني ، فلم أقدم نفسي : سعيد ريجيصين.

– سيفيم فيرفييرفيرك .

- عفواً ؟

- فيرفييرفيرك .

-تشرفنا ... بالله عليك لا تظني بي السوء ، لكن بودي لو أدعوك إلى المقهى ، وهناك سأروي لك كل شيء من البداية .

-أوكيه . – قالت سيفيم موافقة – في الحقيقة كنت ذاهبة إلى السينما، لكن لا يزال لدي وقت . ألست على عجل من أمرك ؟

- كلا ، كلا – هتف سعيد بابتهاج .

عرجا على المقهى ، الذي سبق لسيفيم أن ترددت عليه كثيراً . بدأ سعيد يتحدث عن باريس . وراحت سيفيم تصغي إليه ، وهي تقهقه بمرح ، وكأي فتاة عصرية دلوعة ، اعتادت أن تتصرف بدون تكلف في مجتمع الرجال ، راحت تلامس – بالطبع عن غير قصد محدثها بيدها ، أو تضغط قدمها بقدمه وحينذاك بدأ شيء غامض يحدث لسعيد : فمن هذه اللمسات العفوية كان يبدو وكأن تياراً كهربائياً قد اخترق كل جسمه ، فراح يرتجف ، ويتأتيء، ويحمر ، وتتشابك الأفكار في رأسه ، فيلوذ بالصمت طويلاً ، وهو مطرق برأسه بكل غباء . أما سيفيم غريفون ، التي بدا أنها شمت رائحة فريستها ، فقد راحت تتفحصه بنظرة متفرسة ، محاولة أن تفهم ما إذا كان هذا الأحمق، الذي وقع بين براثنها ، هو ذلك الذي تحدثت عنه مع أمها .

"هذا ما أحتاجه – قالت سيفيم في سرها ، وهي في غاية الفرح ، لسوف أجعله أباً لولدي . فلا يعقل أن يتظاهر الإنسان على هذا النحو ؟ لم يسبق لي في حياتي أن التقيت عبيطاً كهذا" .

– لقد تأخرت على السينما – ألقت سيفيم صنارتها – يقال إن الفلم رائع. خسارة أن يفوت ...

- وهل أنت ذاهبة إلى السينما لوحدك ؟ سأل سعيد بصوت بائس :

-للأسف – تنهدت سيفيم ، وبعد ذلك انتقلت إلى الهجوم – يجب أن تشاهد هذا الفلم من كل بد .

- بودي ذلك ، لكنني لا أذهب إلى السينما بسبب سوء رؤيتي .
- خسارة . جاء دور سيفيم للارتباك .
- إنني لا أرى شيئاً ، حتى ولو جلست في الصف الأول يا سيفيم هانم .

- إذا كنت لا ترى مانعاً ، فإنني مستعدة لأن أشرح لك كل ما يجري على الشاشة – عادت سيفيم إلى الهجوم – ثم لا تنسَ أنني مدينة لك بقصتك الرائعة .

لاذ سعيد بالصمت ، وهو في غاية الارتباك ، ومن ثم همهم بوجل :

- لا أريد أن أثقل عليك ...

"هذا ما ينقصني أيها الحقير البائس" – بدأت سيفيم تغضب ، لكنها تمالكت نفسها ، وقالت بلطف :

- ماذا تقول ... لسوف أفعل هذا بكل طيبة خاطر . إنه ليس بالأمر الشاق فعلاً ... فقط خذ مقصورة كي لا نضايق المحيطين بنا .

كل ما تريد أن تعرفه شيء واحد : من هو هذا الأبرص الطويل النحيل؟ مغفل ، أم محتال ؟

في المقصورة جلس سعيد بتواضع خلف سيفيم . وحين أطفئت الأضواء، وبدأ عرض الفلم ، اقتربت الفتاة من سعيد بهدوء ، لكن هذا سارع بالابتعاد عنها . يبدو أنه محتال – قالت الفتاة في سرها ، ودنت منه من جديد، وعاد سعيد يبتعد عنها . وحين لم يعد هناك مجال للابتعاد ، ووجد سعيد نفسه ملتصقاً بالمقصورة المجاورة ، التصقت سيفيم به بأنين خافت ، وهمست له :

- على الشاشة يعدمون زنجياً ... إنني خائفة ...

لكن سعيد البائس ، الذي وقع في الفخ ، لم يعد يسمع شيئاً . فقد أسكره قرب سيفيم ، ودفء جسدها ، ورائحة شعرها ، وأفقده عقله ، ولم يعد يفهم ماذا يفعل . وكما في حلم سحري تشابكت يداهما ، والتصق خده بخدها ،

واقتربت شفتاه من شفتيها ، لكن الضوء توهج في الصالة في هذه اللحظة . إنها الاستراحة ، ليأخذها الشيطان ...

كان سعيد يجلس قرمزياً ، ولم يتجاسر على أن يرفع رأسه ، وطيلة الاستراحة لم ينبس ببنت شفة . أما سيفيم فلم ترفع بصرها عنه ، وهي تدرسه، كما يدرس البيولوجي الخنزير الهندي ، المخصص للتجارب .

أخيراً أطفئ الضوء في الصالة ، والآن بدأ سعيد يدنو من الفتاة ، بوجل في البداية ، ثم راح يزداد تصميماً . وإذ وجد نفسه بالقرب منها ، همس فجأة بكل شوق وحرارة :

- إنني أحبك ...

- ماذا جرى لك يا زكريا ، هل جننت ؟ - تناهى هذا الجواب إلى مسامع سعيد .

- "زكريا - بدأ يتساءل في سره - زكريا ؟ هل يعقل أنها نسيت اسمي بمثل هذه السرعة ؟ كلا - كلا ، لا يمكن تحمل هذا ، هذا يفوق طاقتي ، لا أستطيع أن أعيش بدونها" .

- أرجوك ، إنني أتكلم بجد ، فعلاً أحببتك من النظرة الأولى - عاد سعيد إلى الهمس ، ومسح على ظهرها بوجل .

- ماذا جرى لك يا زكرياً ، ألا تستطيع أن تصبر حتى نعود إلى البيت؟

- هل يعقل أنك لا تصدقينني يا سيفيم هانم ؟

- سيفيم ؟ زعقت الجارة ، وأعقبت ذلك بصرخة ثاقبة ، غطت الصالة كلها : زا - كا - ري - يا .

- ما بالك تزعقين ؟ - رد عليها بخمول صوت غليظ .

تردد صوت صفعة ... قطعوا الفلم ، وأشعلوا الضوء .

وإليكم ما حدث : فقد اعتقد سعيد ، بسبب ضعف بصره ، أن الستارة المخملية بين المقصورتين هي فستان سيفيم ، فدنا منها ، وراح وهو يتنفس بصعوبة ، ويهمس باعترافاته الغرامية ، بمسح بيده ظهر امرأة أخرى . وحين

أدركت هذه أن مصدر هذا الشوق العارم ليس زوجها ، بل رجل آخر غريب، ناولته على وجهه .

لم يلبث الشرطي أن جاء ، بعد أن سمع الصيحة ، وأخرج الجميع من المقصورة ... كان زكريا رجلاً جبلياً عملاقاً ، يعرف كيف يجب أن يتصرف مع الوقحين ، الذين يتحرشون بزوجات الآخرين .

–لقد اعتدى هذا الفاجر القذر على زوجتي . الآن سوف أريه .

الآن فقط أدرك سعيد ما حدث .

– ميل بوردون مسيو – راح يتمتم ، ومن شدة الارتباك لم يتذكر – لسبب ما – إلا الكلمات الفرنسية – إكسكيوزموا ...

أثارت هذه التمتمة هياج العملاق إلى درجة لا توصف ، ولا نعرف كيف كان سينتهي كل هذا ، لولا سيفيم ، التي تأبطت ذراع زكريا ، وهدلت برقة :

– إنك مخطئ يا بيه أفندي ... فكلمات خطيبي موجهة إلي ، ولا يعلم إلا الله لماذا اعتبرتها عقيلتك موجهة إليها ... خطأ محزن ... أمر يحدث في أحسن العائلات ... إن خطيبي ليس من ذلك الصنف من الرجال ، كي يقوم أمام عيني خطيبته ...

"خطيب !... لقد سمتني خطيبها ! – رفض سعيد أن يصدق أذنيه – يا للسعادة ، بارك الله في هذا اليوم " .

لم يكد زكريا يسمع صوت سيفيم الحلو ، ويشعر بلمسها اللطيف ، حتى تخلى عن سخطه ، وأصبح في غاية الدماثة .

– اعذريني يا هانم أفندي ، إنني أرى الآن أن هناك خطأً قد حصل فعلاً...

–زكريا – قاطعته زوجته – ما بالك واقف . لنذهب ، ونكمل الفلم، فقد دفعنا النقود ثمن التذاكر .

عاد الزوجان إلى الصالة ، بينما بقيت سيفيم مع سعيد في صالة الاستراحة .

– إنني أشعر بالحرج – قالت سيفيم ، وقد غضت الطرف – كل هذا بسببي ...

– إنني مستعد للموت في سبيلك – صاح سعيد ، الذي كاد منذ لحظات أن يموت من شدة الخوف .

خرجا إلى الشارع ، واستقلا سيارة تاكسي ، وعادت الشكوك تراود سعيداً : "طبعاً لم تسمني خطيبها إلا لأنها أرادت إنقاذي من الشرطة . لكن ما هو رأيها في فعلاً ...؟" .

وإذ وجدت سيفيم نفسها عاجزة عن إدراك سبب صمته ، بدأ القلق يساورها : هل يعقل أنها ستفقد العريس ، الذي تمكنت من صيده بمثل هذه المهارة ؟ ... كلا ، لن تسمح بذلك ! كيف حدث أن دخلت هذه الدجاجة العمياء خماً غريباً ! الشيطان دفعني للابتعاد عنه . كان يجب أن أجلس على ركبتيه فوراً .

– إذا كنت تسيء بي الظن – قالت بصوت حنون خفيض – فأنت على خطأ ...

ولم يميز سعيد ، الذي كان غارقاً في أفكاره ، كلماتها ، فرد عليها بشرود :

– لا أعرف ، لا أعرف ...

–كلا ، إنني أشعر أنك تسيء بي الظن – تنهدت سيفيم بحزن ، وفجأة همست ، وهي تزداد التصاقاً بسعيد – هل تريد أن أبرهن لك ...

في هذا الوقت وصلت التاكسي منزل فيرفييرفيرك ، ولم تلحق الفتاة أن تبرهن له شيئاً .

حين خرجا من السيارة قامت سيفيم بمحاولة أخيرة .

– هل تريد أن أعرفك على أمي ؟ قالت سيفيم .

- وهل هذا مناسب ؟ - سأل سعيد بخجل .

- إن أمي هي من أكثر الأمهات ديمقراطية في العالم .

- بودي أن تأتي عمتي إلى أمك أولاً ... ما رأيك ؟

وتظاهرت سيفيم أنها لا تفهم شيئاً :

- وما الداعي لذلك ؟

كان سعيد يقف أحمر ، كما حبة البندورة ، دون أن يجرؤ على رفع عينيه ، وهو يرسم بمقدمة حذائه بعض الزخارف على الأرض .

- لكي ... لكي ... تطلب من أمك ...

- ولماذا عمتك ؟ أوليس لديك أم ؟

- كلا ، فأنا أعيش مع عمتي ...

- طيب ، إذن سنلتقي ؟

- إلى اللقاء ...

وافترقا . راحت سيفيم ترتقي درجات السلم ، وهي تترنم وتتراقص ، وصاحت ، وهي لا تزال على العتبة ، بلهجة الظفر :

-ما – ما ... وجدت – و – وو ... عريساً – ن – ن ... يا سلام – م – م.

حفيدة أمينة الثرثارة

بعد أن ودع سيفيم ، طار سعيد إلى البيت ، كمن له جناحان . طبعاً على جناحي الحب . وقبل أن يجتاز العتبة أذهل عمته العزيزة ، بيرين هانم الموقرة بنبأ زواجه في أقرب وقت ، لأنه عثر على الحمامة ، التي طالما بحث عنها لدخول هذا العش ...

اسمها سيفيم ، سيفيم الفاتنة ، إنها نجمته ، بها كان يحلم طيلة حياته . اسمها وحده كم يساوي : سيفيم – الحنان ، الحب ، ما اسم عائلتها ؟ إنه لم يعد يتذكر . ثم ما أهمية ذلك . المهم الحب من النظرة الأولى . فهي على كل حال ستصبح سيفيم ريجبيصين بعد الزواج . أين تعرف عليها ؟ آه يا ربي ، في الشارع ، طبعاً ، وفي السينما أحبها ، وحين رافقها حتى البيت ، أدرك أنها هي بالذات من يمكن أن يأتمنه على مصيره بكل جرأة .

كانت العمة بيرين في أعماق قلبها تحلم منذ عهد بعيد بزواج ابن أخيها. والكثيرون من آل ريجبيصين كانوا يعلقون الآمال على سعيد بالذات لمواصلة نسبهم العريق ، إذ لم يكن ثمة أحد غيره يمكن أن يعلقوا عليه الأمل . فقد كان سعيد الغصن الشاب الوحيد للشجرة العملاقة في غابر الأزمان ، والبرعم الوحيد ، الذي يمكن أن تتفتح عليه الزهرة ، وتينع الثمرة . ولذا فقد راحوا يستعجلون الأحداث ، خوفاً من أن يجف نسغ الحياة ، من أن تضعف الجذور، وإلا فإن الجذع ، الذي ظل ينتصب بإباء على مدى مئتين وخمسين عاماً ، سوف يتداعى .

وعلى الرغم من كل هذا ، فقد كانت العمة بيرين تعتقد اعتقاداً راسخاً أن على زوجة سعيد القادمة أن تتحدر ، من كل بد ، من أسرة نبيلة ، يكن لها

الجميع الاحترام ، وتليق بأصلهم العريق . لا سمح الله أن تكون مغناجة ، فيضيع الولد – فالثروة يمكن أن تغري أي فتاة .

دحض سعيد بحزم كل مخاوف عمته .

– في حياتي لم أرَ امرأة تفوقها تهذيباً . أنت تعرفين فطنتي ...

– هل يعقل أنك كشفتها على حقيقتها بهذه السرعة يا ولدي ؟

– إنك تنسين يا عمتي أنني درست في باريس . إنني أرى الناس الآن على حقيقتهم . أما فيما يتعلق بنقودي فإن سيفيم لا تعرف عنها شيئاً . ثم إنها كانت في عجلة من أمرها ، حتى أنني لم أتمكن من طلب يدها .

– إنك سريع التصديق جداً يا ولدي .

– إنني واثق أنها من أسرة محترمة . استعلمي عنها ، ولسوف تقتنعين بذلك بنفسك .

لم تنتظر العمة طويلاً ، فحتى مساء اليوم التالي أصبحت تعرف عن آل فيرفبيرفيرك كل ما يجب أن تعرف ، لا بل وأكثر مما يجب أن تعرف .

فقد عرفت أن آل فيرفبيرفيرك أسرة محترمة ، مشهورة وغنية (فتجارة ثياب النساء الداخلية رابحة أبداً) ، لكنهم حصلوا على اسم عائلتهم ، الذي ينتقل عادة عن طريق الرجل ، من أم حسيب بيه ، التي اشتهرت في المنطقة كلها باسم فريدة فيرفبيرفيرك ... ولم تكن جدة سيفيم الأخرى لأمها ميهجوري هانم المحترمة – أمينة ، أقل من الأولى شهرة . عاشت تلك الجدة في إيرينكية، في حي غني ، حيث قصور نبلاء بلاط البادشاده : كبير حلواني السلطان ، كبير مزيني السلطان ، كبير الخياطين ، كبير البستانيين ، كبير صانعي الزجاج ، كبير المنجدين – باختصار كان كل سكان الشارع من الكبار، وعلى رأس جميع هؤلاء الكبار كانت أمينة ، لأن الجميع كان يخاف هذه النمامة ، التي أطلق عليها لقب كبيرة ثرثارات السلطان . وقد شعرت العمة ببعض القلق من أن الدور الرئيس في عائلة سيفيم كان أبداً من نصيب النساء . لكنها ، ما إن عادت من رحلتها الاستكشافية ، حتى قالت لابن أخيها:

– لا أستطيع أن أضع أي عيب في أسرة هذه الفتاة .

- وماذا قلت لك يا عمتي الحبيبة !

- الأسرة نبيلة ، لكن قلبي غير مرتاح للفتاة نفسها .

- ماذا ؟ وهل رأيتها ؟ هل كنت في دارها ؟

- لم أكن في دارها ، لكنني سمعت ما يتقول به الناس عنها .

- وماذا يستطيعون أن يتقولوا ؟ ! - غضب سعيد .

-يزعمون أن سيفيميك كما الفرس العربية الجامحـــة ، لا تقــف فـــي مكانها ثانية . إن مثل هذه بحاجة إلى فارس جيد جداً -ن-ن . أخاف يا ولدي أنك لن تستطيع الصمود على هذه الصهوة .

-لا تقلقي يا عمتي ، فلسوف تكون مطواعة في يـــدي . أرجــوك أن تذهبي غداً إلى والدتها ، وتطلبي لي يد سيفيم الحسناء .

-كلاِ يا ولدي فأنت من سيطلب يدها . هذا هو الدارج اليوم . اتفقا مع بعضكما أولاً ، وبعد ذلك أذهب إلى أهلها .

- حسناً يا عمتي ، اعتمدي علي ، كل شيء سيكون على ما يرام .

سعيد يطلب يد سيفيم

اقترب سعيد عدة مرات من بيت آل فيرفييرفيرك ، دون أن يجرؤ على ارتقاء السلم ، وقرع جرس الباب . وعلى الرغم من أن سيفيم سبق أن دعته فإنه لم يستطع أن يجد ما يقوله حين سيفتحون له . صحيح أن سيفيم قالت إن أمها ديمقراطية ، وإن أباها ليبرالي كبير . لكن من يستطيع فهم هؤلاء الديمقراطيين والليبراليين الحاليين ؟ راح سعيد يراوح في مكانه ، كما يراوح لاعب كرة القدم أمام الكرة في نقطة الأحد عشر متراً .

بعد أن تسكع قرابة ساعة ونصف حول البيت ، استجمع قواه أخيراً ، واقتحم المدخل ، ولم يكد يمد يده إلى الجرس ، حتى فتح الباب ، وخرج من الشقة شاب .

أمسكت قوة خفية بتلابيب سعيد ليجد نفسه في الطابق التالي . "إنه شقيق سيفيم الأكبر" – قال سعيد في سره ، وبعد أن انتظر قليلاً ، بدأ ينزل درجات السلم على مهل . ومن جديد فتح الباب ، وخرج هذه المرة رجلان ، يصلح كل منهما لأن يكون لسيفيم أباً . وانطلق سعيد ، كما الرصاصة ، إلى الشارع، وتسمر في مكانه متردداً . وفي هذا الوقت فتح الباب مرة ، ومن ثم ثانية ، وحتى ثالثة ، وفي كل مرة كان الرجال يخرجون منه .

أمضى سعيد قرابة الساعة يطوف حول البيت ، إلى أن استعاد عزمه ، فحمل روحه على كفه ، واندفع نحو جرس الباب ، ومد يده ، وفي هذه اللحظة سبقه أحدهم ، وقرع الجرس بكل ثقة . والتفت سعيد بخوف : فرأى خلفه ثلاثة شباب ، ذوي أجسام رياضية .

- ماذا تفعل هنا أيها الغندور ؟ سأل أحدهم .

- عفواً ، إنكم تخلطون بيني وبين شخص آخر .

- من أي فريق أنت ؟ سأل الثاني .

-من فريق ؟ لست من الفريق . ولماذا يجب أن أكون من الفريــق ؟ إنني بحالي . مع من أتشرف بالحديث ؟

وفي هذه اللحظة انفتح الباب ، وابتلع الترويكا الرياضية ، ثم أغلق في الحال ، كأن هناك آلة خفية، تفتحه وتغلقه.

خرج سعيد إلى الشارع ، وقد تملكته الحيــرة ، وراح يــسعى جيئــة وذهاباً، وهو غارق – كما هي العادة في هذه المسألة الرياضية : "خلال ثلاث ساعات دخل شقة آل فيرفبيرفيرك ستة ، وخرج خمسة ، فكم من الناس يمكن أن يدخل في اليوم ؟ ... ستوب ! ولماذا لا يدخل إلى هنا سوى الرجال؟" .

كلا إن سيفيم لا يمكن أن تعيش في مثل هذا البيت ، إن المسألة غيــر قابلة للحل بالطريقة الرياضية .

راح سعيد يتلفت يمنة ويسرة ، أملاً في العثور على الجواب ، وإذ رأى مخزناً قريباً ، اتجه نحوه .

- عفواً – خاطب صاحب المخزن باحترام – هلا أخبرتني فــي أي بيت تقطن سيفيم هانم .

-وأي سيفيم بالذات ؟ غريفون ؟ أم سيفيم العالمة ؟ أم سيفيم الكبــرى؟ أم سيفيم إلية الغنم ؟ أم سيفيم اللواكة ؟ أم لعلك تقصد زوجة الصيدلي ؟ كــل ثاني فتاة في شارعنا تحمل اسم سيفيم .

-سيدي إذا كان هذا الطويل لاعب كرة فإنه ، على الأرجح ، يبحــث عن سيفيم الغريفونية – تردد صوت عامل في المخزن .

وقال سعيد ، وهو يشير إلى دار آل فيرفبيرفيرك :

- إذا لم تخني الذاكرة فهي تعيش في هذا البيت ، على ما أظن .

- آ . إذن فأنت تريد الغريفونية بالذات .

- كلا – كلا ، إن اسم عائلتها يبدأ بالحرف "فاء" .

- أليس فيرفييرفيرك ؟

- بالضبط ، بالضبط .

- ومن أي فريق أنت .

وتذكر سعيد أنه سبق أن سئل مثل هذا السؤال ، فلم يخف دهشته :

- ولماذا يعتقد الجميع أنني من فريق ما ؟

- طيب فأي فريق تشجع إذن ؟

- لا شك أنه من مشجعي الفريق ، الذي تشجعه سيفيم غريفون – قال البائع الأول . وقال البائع الآخر ، بعد أن تمعن سعيداً ملياً :

- إن هذا الموديل لا يلعب لا في فريق أنقرة ولا فريق اسطمبول، فأنا أعرف جميع اللاعبين . وهو ليس لاعب كرة عموماً .

لم يعد سعيد يصغي إليهما ، وخرج إلى الشارع ، بعد أن شكر صاحب المخزن ، واتجه نحو بيت سيفيم . والغريب أن الفتاة ظهرت في الشرفة في هذه اللحظة .

- ماما ، صاحت سيفيم – تعالي هنا بسرعة! ... ها هو ذا الذي يريد أن يتزوجني .

وفي اللحظة ، التي خرجت فيها ميهجوري هانم إلى الشرفة ، تشابكت ساقا سعيد فجأة على الناصية ، وكاد يقع على الإسفلت بكل قامته ، ذات المئة وأربعة وثمانين سنتميتراً .

- كلا إنه لا يعجبني كثيراً هذا المارد العبيط .

وصاحت سيفيم باتجاه الغرفة :

- تعالوا يا شباب بسرعة ! سأريكم عريسي .

ظهرت على الشرفة الترويكا الرياضية .

- هل يريد هذا الأبله أن يتزوجك ؟ سأل أحمد الجدار .

– وهل تغار ؟ – سأل ناجي الدلو ، حارس مرمى عغ ، بابتسامة ساخرة .

– هذا ما كان ينقصني – همهم أحمد .

– لا تصغي إليه يا سيفيم ، إنه يقول ذلك بسبب الغيرة – عاد ناجي إلى الحديث – الشاب لا غبار عليه ، إلا أنه نحيف قليلاً . وعموماً يقال إن معشر النحفاء شهوانيون .

– بسيطة ، وهذا مناسب . فالعرسان ليسوا مشلوحين اليوم على قارعة الطريق – أدلى برأيه مصطفى البرغي ، أفضل هداف في فريق عغ .

ولولا الأمور العاجلة إذن لدعت سيفيم سعيداً بالطبع إلى البيت ، أو لخرجت – في أسوأ الحالات إليه . ولكن لسوء الحظ أن عليها أن تلتقي هذا اليوم نادي عغ ومديره العام دوندار مهذار بيه ، لكي يجدوا حلاً لمسألة جر أوزير الخشبة ، قلب دفاع فريق "مطاري الحاجة الدائمة" . كان هذا الفريق ، المعروف باختصار باسم "محد" ، الخصم الرئيس لفريق "عمود الغبار" أو عغ، وكان النزاع مستمراً بينهما ، ليس في ملعب الكرة فقط ، بل ووراء الكواليس. سيفيم وحدها تستطيع تنفيذ هذه المهمة ، وكان ديوندار مهذار بيه يعلق عليها جل آماله . ففي وقت سابق كانت هي التي جلبت أحمد ، فخر عغ والمنتخب الوطني الآن .

كان لقاء اليوم يجري خفية عن حسيب بيه ، فقد كان رب بيت آل فيرفييرفيرك في غاية القلق على شرف الأسرة ، مما جعله يحظر على ابنته أن تلتقي الكروبيين قبل الزواج .

بينما كان الاجتماع السري قائماً لدى سيفيم ، مل سعيد من السير جيئة وذهاباً ، وأدرك أنه لن يجرؤ أبداً على اجتياز عتبة هذا البيت ، فقرر أن يتصل بالهاتف . طبعاً من الأسهل عليه أن يتحدث بالهاتف عن كل ما يجيش في قلبه . لسوف يحدث سيفيم عن مشاعره ، ويسألها بصراحة عما إذا كانت موافقة على أن تصبح زوجته . فإذا كانت غير موافقة ، وضع حداً لحياته بالانتحار ...

إن الاتصال من الشارع غير وارد ، فالاعتراف يتطلب الوحدة . وهكذا فقد استقل تاكسياً ، وانطلق إلى البيت ... الحمد لله لا يوجد أحد في البيت ...

أخيراً عثر على رقم آل فيرفييرفيرك في دليل الهاتف ، ودور الرقم بيد ترتجف .

في بعض الأحيان تلعب نزوات التكنيك المعاصر دوراً قاتلاً في حياة الناس . وهذا ما حدث هذه المرة ، فبدلاً من بيت آل فيرفييرفيرك ، أعطوه معمل الجوارب النسائية .

- ألو – رد عليه صوت رجل مريح .
- هلا تكرمت وأعطيتني سيفيم هانم .
- حاضر ...

وبعد قليل تردد في السماعة صوت نسائي :

- نعم .
- طاب يومك سيفيم هانم .
- مرحباً .
- كيف صحتك ؟
- جيدة ، شكراً .

غالباً ما كان الرجال يتصلون بالعاملة سيفيم ، ولما كان معلمها غير مرتاح أبداً لمثل هذه المكالمات ، فلم تكن تحب البقاء على الهاتف طويلاً .

– إنني أزعجك يا سيفيم هانم ... بدأ سعيد من بعيد، لكنه قوطع بعجلة:

– تحدث بسرعة ، ماذا تريد ، فأنا في غاية العجلة .

– راحت كلمات الاعتراف تتراقص على شفتيه ، لكن الوجل قبض على عنقه كما الكماشة .

- أنا ... أنا ... همهم سعيد – لقد سمحت لنفسي أن أزعجك ، لأن..

- باختصار .

- أريد الزواج منك ، - بق سعيد البحصة أخيراً ، بشكل مباغت حتى له ، ولاذ بالصمت ، وقد زر عينيه .

راحت سيفيم الثانية تطلق التنهدات في السماعة ، لا تعرف ماذا تقول ، وبدأت تفكر بعذاب من يمكن من أصحابها أن يطلب يدها على هذا النحو المفاجئ .

لعله ذاك الذي بدأ يعاكسها منذ يومين ، ورافقها حتى البيت ؟ أو ربما أراد أحدهم المزاح ؟

- هل أنت جاد ؟ - سألت بصوت متقطع .

- طبعاً ، وبمنتهى الجد حتى ... لسوف أبذل قصارى جهدي كي أجعلك سعيدة يا سيفيم هانم .

- كل الرجال يقولون هذا ، بصراحة لا أعرف ما إذا كان بالإمكان تصديقك ...

- صدقيني يا سيفيم هانم ، صدقيني ... صدقيني ، راح سعيد يكرر ، كما المحموم .

- مدى الحياة ؟

- نعم . نعم ... مدى الحياة ...

- طيب ، المهم أن لا تنسحب فيما بعد ! فقد سبق أن طلب يدي الحلاق سليمان والسائق نوري والنادل حمدي ... لكن أين هم ؟

- إنني أتكلم بجد ... تمتم سعيد – فأنا أحبك .

- الواقع أنني أريد الزواج من زمان ، المهم أن يكون الشخص محترماً، طبيباً أو مهندساً ، وحتى في أسوأ الحالات فإن الملازم يناسب ...

صحيح أن سعيداً كان يعاني من سوء النظر ، لكنه لم يكن يشكو من السمع أبداً . ومنذ بداية الحديث بدا له صوت سيفيم غريباً .

- هل صحتك على ما يرام يا سيفيم هانم ؟

- ولماذا تسأل ؟

- لعلك مصابة بالرشح ؟

- نعم إن لدي سعلة خفيفة ، ثم إنني مضطربة جداً ...

- "أوي يا إلهي ، هل يعقل أن عرضي جعلها تضطرب هكذا؟" دار في رأس سعيد .

- صباح اليوم راحت عيني اليسرى ترتجف ، وهذا فأل خير أبداً – تابعت سيفيم الثانية – إنني موافقة على أن أصبح زوجتك ، ولكن بودي أن أفكر أيضاً ... مساء اليوم لدي موعد مع أحد طلاب الجامعة (في الحقيقة كان هذا الطالب إسكافياً) . إنني أسير معه منذ عهد بعيد ، وقد وعدني بالزواج بدوره ، لكنه الآن بدأ يتملص... وهكذا فإنني أريد أن أعرف ... "هل أتحدث معه بلطف يا ترى ؟" – خطر لها فجأة ، وراحت تضع كلمة "عفواً" حيث يجب ، وحيث لا داعي لها .

- مساء اليوم ، عفواً لدي موعد مع هذا – عفواً – الشاب . وإذا ما جاء عفواً ، وإذا لم يأتِ فحينذاك ، عفواً ...

- إذن لن نلتقي اليوم ؟ – سأل سعيد بصوت واهن .

- اليوم – عفواً – لا أستطيع ... إن هذا ، عفواً ، الشاب يغار علي، عفواً ، بشكل فظيع . وإذا ما رآك ، عفواً ، فلن يتركك سليماً – عفواً . أما غداً ، عفواً ، فممكن .

- وهل باستطاعتي القدوم إليك ؟ – سأل سعيد بجرأة .

- لكنها لم تكن تريد أن يرى الشخص ، الذي يريد الزواج بها ، في أي كوخ تعيش ...

- كلا ، عفواً ، سوف أنتظرك في مقهى ، عفواً ، "إيتوال"، غداً في السادسة .

وفي هذه اللحظة دخل المعلم الغرفة ، فأسرعت تنهي المكالمة :

- اتفقنا ؟

- نعم ، نعم .

- إلى اللقاء ...

- مع السلامة ، إلى اللقاء غداً – وقبل سعيد السماعة .

ظل سعيد طيلة المساء واليوم التالي كله لا يقر له قرار ، ولا يعرف ماذا يفعل ، "لسوف أراها . إنها موافقة" – يقول بابتهاج ، وللحال تسيطر عليه الأفكار الكئيبة : "عفواً ، لكن هناك طالباً يمكن ، عفواً ، هل يتغلب علي؟...". انطلق نحو بيت سيفيم ، وراح يجري من حوله ، محدقاً بالنوافذ المضاءة ، وفيها تتراءى الظلال العديدة . "أيها سيفيم يا ترى ؟ أما هذا ، عفواً لعله الطالب ؟ ...

بعد ليلة أرق طويلة بالكاد استطاع سعيد النهوض من فراشه ، وراح يستفسر عن مكان وجود مقهى "إيتوال" في اسطمبول . وقد تبين أن هناك ثلاثة بهذا الاسم ... أما هو فلم يتفق معها في أي مقهى بالضبط سيلتقيان .

"الأفضل أن أذهب أولاً إلى ذلك الأقرب إلى منزلها – فكر سعيد بما عرف عنه من فطنة – وإذا لم أجدها هناك ، أخذت سيارة تاكسي ، وذهبت إلى الباقيين ...

في الساعة الخامسة كان سعيد في المكان المفترض أنه هو ، وبعد أن اختار لنفسه طاولة في الزاوية، حيث يمكن أن يتحدث بكل ارتياح ، راح ينتظر بزوغ نجمته .

إلى الطاولة المجاورة كانت تجلس سيفيم الثانية ، بانتظار الشخص ، الذي عرض عليها البارحة يده وقلبه بالهاتف . وراح الوقت يمر دون أن يأتي، ولكي لا تضيع وقتها سدى ، راحت تتفحص الرواد المنفردين ، أما سعيد فلم توله أي اهتمام "يا له من رجل" .

نظر سعيد إلى الساعة ، إنها السابعة ، وحتى الآن لم تأتِ الخطيبة . آن الأوان – على ما يبدو – للانتقال إلى المقهيين الباقيين ، لكن ربما أتت سيفيم في هذا الوقت ؟

نادى سعيد النادل :

–سوف تأتي إلى هنا فتاة ، نحيلة ، سوداء الشعر ، ذات حاجبين دقيقين ... دعها تنتظر ، قريباً سأعود ... أبقها من فضلك . بالمناسبة إن اسمها سيفيم – أضاف ، ودفع للنادل بسخاء .

بعد أن طاف على المقهيين الآخرين ، ولم يعثر فيهما على ضالته ، عاد سعيد أدراجه ، وشغل مكانه السابق .

– أفندي ، ربما تناسبك سيفيم أخرى – سأله النادل بتعاطف . بوسعي أن أعرفك عليها ، وسوف تبقى مسروراً ...

كان سعيد يائساً تماماً : لا بد أنها اتفقت مع طالبها . فما الحاجة إلى وعودها إذن ؟ وكيف يمكن بهذه السرعة نسيان العناق الحار في مقصورة السينما ؟ ... راحت الغيرة تنهش قلبه . وكان مستعداً للقيام بأي شيء – لسوف يقدم ثروته إذا ما دعت الحاجة . لكنه لم يكن يعرف حجم هذه الثروة الآن ، إذ أن ثروة آل ريجيصين كانت تدار من قبل مجلس الشيوخ العائلي .

حوالي منتصف الليل لم يعد سعيد يتحمل ، فاتصل بسيفيم . وكانت أمها هي التي أخذت السماعة . وراح – بسبب الارتباك ، يهمهم بأشياء غير مفهومة .

– لا أفهم من تريد ! قالت ميهجوري هانم بغضب .

–اعذريني يا أفندي أنني أزعجكم في هذا الوقت المتأخر ، هل أستطيع التكلم مع سيفيم هانم ؟

– سيفيم سافرت إلى أنقرة ، فغدا يلعب عغ ؟ ماذا أبلغها ؟

– من فضلك قولي لها إن سعيداً اتصل .

– طيب .

– شكراً ، تصبحون على خير .

لم تدرك ميهجوري هانم ، إلا بعد أن وضـــعت الـسماعة ، أن الــذي تحدث معها هو سعيد نفسه ، الذي صرعتها ابنتها بالحديث عنه . للأسف أنها لم تتحدث معه .

علق سعيد السماعة ، وأصبح الضوء الأبيض ظلمة دامسة في عينيه ، وتوقفت الحياة على الأرض ، فأوصد باب غرفته على نفسه ، ولم يعد يـــرد على أحد .

لقاء سعيد ريجيصين الأول بأحمد الجدار

هل كان بمقدور سعيد أن ينسى الدقائق الحلوة ، التي أمضاها مع سيفيم في مقصورة السينما ؟ وراح خيال المحب الوثاب يعيد لقطات النشوة القريبة مرة ومرة ، مما زاد في عذاب الغيرة ، فسيفيم خدعته . وحين أصبح عذابه لا يطاق راح يتذكر باريس ، وحتى مادلين، مادلين نفسها، التي سبق له أن خدعها بكل مهارة ...

راحت العمة بيرين تنظر إلى ابن أخيها بحزن ، وقد حاولت أن تبدأ الحديث معه عن الزواج ، فكان يزداد تجهماً وتقوقعاً على نفسه ، وحينذاك تركته العمة وشأنه : من يدري ماذا جرى بينهما ...

أما سيفيم المهملة فقد ظلت تعتقد أن العريس لن يفلت منها ، ولا ضير أنه اختفى فجأة ، بعد أن اتصل مرة واحدة في غيابها . وراحت كل يوم تحمد الله أنه رحمها ، وأرسل لها ما تحتاج إليه بالذات . وفي هذا الوقت راح خصرها يتخذ أحجاماً أفظع فأفظع . ومن جديد فاحت رائحة العاصفة في بيت فيرفبيرفيرك .

وحينذاك قرر أحمد الجدار ، قلب دفاع عغ المظفر ، أن ينكب على قضية زواج صديقته المحبوبة . فلأسباب تكتيكية كان بحاجة لتزويج سيفيم أكثر مما هي بحاجة لذلك .

– ألا تذكرين أنك حدثتينني عن شاب أبيض الشعر ؟ – قال أحمد مخاطباً سيفيم – حتى أنكما كنتما تنويان الزواج ... فأين اختفى ؟

– لست أدري – ردت سيفيم ، وهي تهز كتفيها .

– ما اسمه ؟

– سعيد على ما أظن .

- وعائلته ؟

- وماذا تريد أيضاً ، من أين لي أن أعرف ...

- اسمعي كيف يمكن أن تجهلي اسم عائلة خطيبك ؟!

امتعض أحمد ، وسارعت ميهجوري هانم الفطنة تدافع عن ابنتها :

- إن لدى سيفيم نوايا في غاية الجدية ، وهي ستتزوج الرجل لا اسم عائلته ...

مر أكثر من شهر ، ولم يبدِ سعيد خلاله أي مظهر من مظاهر الحياة ، وكان من المحتمل أن تنسى سيفيم وجود سعيد لولا ... لولا أن تبين فجأة أنه غني بشكل فاحش . فمن في اسطمبول لا يعرف آل ريجيبصين الموقرين ؟ هكذا إذن ، يبدو أن للعائلة أهميتها أيضاً . لا يجب تفويت هذه الغنيمة ! المهم أن تلتقي به . فهي تعرف الوسائل ، الكفيلة بالسيطرة عليه وإغرائه ، ومن ثم الحصول عليه نهائياً . وهي لا تحتاج من أجل هذا إلا لجو قريب من الظلمة ولحديث ذي شجون ... "قريباً يا حبيبي سوف يظهر لدينا فرخ" – ستقول له . ولن يجرؤ أي رجل شريف – أي ساذج ، وأغلب الرجال من هذا النوع بالذات ، على أن يعترض على هذا بشيء . أضف إلى ذلك أن كلامها سيكون الحقيقة بعينها : فهي تنتظر طفلاً فعلاً ، وعلى سعيد بالذات أن يصبح له أباً . ذلكم كان قرار الفتاة البائسة ، التي تخلوا عنها .

لم يمض من الوقت إلا أقله حتى سنحت الفرصة المواتية ، التي انتظرتها سيفيم بفارغ الصبر . ففي ذات مرة أطلت من النافذة .

"حمداً لك يا رب!" – فهذا سعيد يمر أمام منزلها .

وفي لحظة واحدة لبست سيفيم ، وانطلقت إلى الشارع على عجل . لم يسبق لها أن أسرعت على هذا النحو .

مرت سيفيم عدة مرات بجواره ، فهي تريد أن يتعرف عليها بنفسه . لكن سعيداً لم يلق نظرة على سعادته ؛ بل مر بها ، دون أن يرى شيئاً. واضطرت سيفيم لأن تدفعه ، فكاد المسكين يسقط ...

-باردون – قال بالفرنسية ، دون أن يتعرف على محبوبته .

وهنا اضطرت لأن تذكر بنفسها :

- هوو ! أنت ... يا له من لقاء ! لقد خرجت للتو من البيت ...

تسمر سعيد ، إذ عرفها ، من صوتها ، وخاف أن يصدق أذنيه ، فدنا منها حتى كاد يلتصق بها .

- نعم ، هذا أنا ... كان صوته يرتجف من الاضطراب .

- إذن فأنت في اسطمبول ...

- لماذا لم تعرج علينا مرة واحدة ؟ لقد انتظرتك طويلاً ...

وانتعش سيعد فرحاً .

-صحيح كنت أريد القدوم يا أفندي ... لكنني نسيت ... لم أستطع العثور على بيتكم .

- ها هو ذا بيتنا ! – ودلته عليه .

- صحيح ، هذا ؟ هل هذا هو بيتكم ؟

-قررت أن أتمشى قليلاً ... إذا كان لديك وقت، فدعنا نتمشى – قالت سيفيم على عجل ، خوفاً من ضياع العريس ، بعد أن عثرت عليه.

ولما كانت تعرف ، بالتجربة أن التغلب على حياء الرجال ممكن فقط بالكلام الحنون ، فإنها لم تغلق فمها لدقيقة واحدة .

أخيراً بدأ سعيد يعطي ما يدل على أنه ما يزال على قيد الحياة ، حتى أنه تجاسر وقال :

-في ذات مرة جئت إليكم – بدأ يتكلم – لكن ... عفواً ... هل أستطيع طرح سؤال عليك ؟

-نعم بالطبع ، إسأل كل ما يحلو لك .

-أخبريني ماذا كان لديكم آنذاك – ختان – أم إحدى المناسبات العائلية؟

وقهقهت سيفيم :

- ولماذا ختان ! ... فنحن نعيش ثلاثة : الماما ، البابا ، وأنا .

- آ ...

- ولماذا تسأل ؟

- لأن الناس في ذلك اليوم لم يكفوا يدخلون إلى بيتكم ويخرجون .

- فقررت أن الناس قد اجتمعوا بمناسبة الختان ؟ ...

كان الشك لا يزال يراودها ... إن أمامها مغفلاً نادراً من موديل القرن الماضي ...

- إنهم على الأرجح الشباب من عغ ... إنني متيمة بكرة القدم ... وأنت ؟

- إنني أحب كل ما تحبين - نطق سعيد واحمر - "أعتقد أنني قلت حماقة !" - خطر له .

- شكراً . هذا لطف كبير من جانبك - شكرته سيفيم - وأي فريق تشجع ؟

- الآن لا أشجع أي فريق ؛ لكنني سأبدأ من كل بد ... وما هو فريقك المحبب ؟

- إنني أشجع فريق عغ ...

بلع سعيد ريقه بتشنج عدة مرات .

- - سيفيم هانم ... إذا سمحت فإن بودي أن أحدثك في موضوع في غاية الجدية والأهمية .

للحال حزرت سيفيم سيفيم عن أي "موضوع في غاية الجدية والأهمية" سوف يدور الحديث . فحين يتحدث والداها في "موضوع هام" ، تعرف سيفيم أنهما يتدارسان مسألة زواجها .

- تعال نعرج على مكان ما ، ونجلس قليلاً ، إذا كان لديك وقت طبعاً.

-لدي الوقت كله – صاح سعيد بفرح .

عرجا على أقرب مقهى ، حيث استقبلهما رجل شائب الشعر وقور ، يشبه البرفيسور ، أكثر مما يشبه النادل . كان يعرف سيفيم ، ولذا فقد دلهما على طاولة في الركن ، بعيداً عن أعين الفضوليين .

جلست سيفيم إلى الطاولة ، أما سعيد فقد ذهب ليخلع معطفه – فهو لم يكن يغادر البيت أبداً بدون معطف ، حتى ولو كانت السماء صافية ، والشمس ظاهرة للعيان ... لدى عودة سعيد إلى الطاولة زر عينيه ، وبعد أن ألقى نظرة على الجمهور ، اتجه بخطوة واثقة نحو الطاولة ، التي كان يعتقد أن سيفيم تجلس إليها .

– أفندي – بدأ سعيد حال جلوسه – بودي أن أتحدث معك حول موضوع في غاية الأهمية بالنسبة إلي ...

وإزاء عجزه عن تمالك فؤاده ، الذي راح يقرع بقوة ، جلس متقنفذاً على نفسه ، لا يجرؤ على رفع عينيه .

وغير بعيد منه ، إلى طاولة أخرى ، كانت سيفيم منهمكة في وضع أحمر الشفاه ، دون أن تلاحظ عودة سعيد .

– الآن سيأتي زوجي – قالت المرأة الجالسة قرب سعيد بابتسامة لعوب– لكن إذا كنت مصراً هكذا فدعنا نلتقي هنا غداً في مثل هذا الوقت ...

لم يفهم سعيد شيئاً مما يجري ، فجحظت عيناه ، واختلج من هول المفاجأة : فقد كانت أمامه امرأة لا يعرفها .

-أوه باردون ... عفواً ... لقد أخطأت ... ظننتك ... ثم وثب إلى وسط الصالة ، وتسمر في مكانه ، وراح يتلفت يمنة ويسرة عاجزاً .

-إنني هنا يا سعيد – نادته سيفيم .

أربكته غفلته لدرجة أنه لم يعد قادراً على أن ينبس بكلمة ، واضطرت سيفيم لأن تأتي لنجدته من جديد .

– أظن أنك أردت أن تتحدث معي ...

–نعم ، نعم ... إنني أتوق لذلك ... أريد أن أستشيرك حول الفريق الأفضل ، الذي يستحق أن أشجعه ...

–لهذا الغرض أتيت بي إلى هنا ؟ ... أهذا هو الموضوع الجدي؟... – كان صوت سيفيم يرتجف من السخط .

– أجل ، رد سعيد بفظاعة .

قدمت لهما القهوة – كلاسيه . جلست سيفيم صامتة . وبعد أن شربا القهوة ، وقفت الفتاة بتصميم :

– لنذهب .

– كما تريدين ...

وفي التاكسي لم ينبس أي منهما ببنت شفة ، فقد كانت سيفيم غاضبة من سعيد لدرجة أنها كانت تود أن تتخلص منه بأقصى سرعة ، فأوقفت السيارة ، وخرجت متحججة بأمور عاجلة . وأمامها وقف سعيد البائس ، وهو يبدل رجلاً برجل ، فراحت تتفحصه باهتمام ، وإذ ذاك أدركت أنه لا يجوز أن تفرط فيه ، فقالت عند الوداع ، وقد لانت قليلاً :

– أيمكن أن تعرج علينا في وقت آخر ؟

شكر سعيد الفتاة بحرارة ، وهو يتأتيء ، وحين مدت له سيفيم يدها ، كاد يفقد وعيه من شدة اغتباطه ...

ما إن عادت سيفيم إلى البيت ، حتى وقعت على الأريكة ، وهي تنتحب بصوت عال . نظرت ميهجوري هانم إلى ابنتها ، وقد تملكتها الدهشة ، ثم راحت تتمتم : "الله . الله ، ماذا جرى لها ؟" فلم يسبق لأمها أن رأتها تبكي بسبب الرجال .

– هل يعقل يا ابنتي أنك أحببت هذا المجنون ؟ إذا كان الأمر هكذا فلن أسمح لك بالزواج منه . المرأة الذكية لا يجب أن تتزوج الرجل ، الذي تحب ، إلا إذا كانت تريد أن تصبح بائسة . تذكري ...

وفي هذا الوقت بالذات ظهر أحمد .

– إنه يسخر مني ! راحت سيفيم تخبط بهستيريا – لم يسبق لأي رجل أن سمح لنفسه بذلك ...

بدأ أحمد يرثي لها فعلاً .

– طيب ، طيب ، لا تبكي يا صغيرتي ، لسوف أعلم هذا المغفل كيف يهزأ من المرأة الضعيفة .

واستمرت سيفيم تذرف الدمع .

– لقد قال لي إنه يريد أن يتحدث معي حول موضوع بالغ الجدية ، ورافقني إلى المقهى ... حتى أنه لم يفكر بطلب يدي ! ... إنني أعرف أنه يتظاهر بالغباء ... يريد أن يسخر مني ...

وكاد أحمد يختنق من شدة السخط ؟

– يا للطفيلي ، يا للوغد ! آه لو ألتقي هذا العقرب الرمادي في الملعب أقسم بالله إذن لما تركت منه لحماً على عظم ، وإلا لما كنت أحمد الجدار. أعطني عنوان هذا المغفل .

– لا أعرف عنوانه .

– وبماذا كنت تفكرين إذن؟ لا تعرفين العنوان ، واسم العائلة تجهلينه. لعلك تعرفين ماذا يعمل ؟

– في مجال الرياضيات ، أو ما شابه .

– أهو أستاذ ؟

– لا أعرف .

– ومن أين ظهر إذن ؟

راحت سيفيم بين الضحك والبكاء ، تروي لأحمد كيف تعرفت على سعيد ، وكيف قبلا بعضهما في السينما ...

– حمودتي ، لا تظن بي السوء ، كل ما في الأمر أنني كنت أمتحنه... فقط خطر لي أنه ربما يتزوج ... مرة واحدة فقط قبلنا بعضنا . كان شكله في منتهى البلاهة ...

كانت سيفيم تحاول الرأفة بمشاعر أحمد ، وعدم إعطائه ذريعة للغيرة .

– تقولين إنه راح يسخر منك ؟

– في البداية قال إنه يريد أن يتحدث معي جدياً – كررت سيفيم – فابتهجت ، ظناً مني أنه سيقول لي شيئاً ما عملياً ... أما هو فقد دعاني إلى المقهى – تصور – لكي يسألني عن الفريق ، الذي أنصحه بتشجيعه . فهو – يا سيدي – يريد أن يحب كل ما أحب أنا ...

– يا للعبيط ! طيب انتظري ، لسوف أعثر عليه . لا تبكي يا صغيرتي، لسوف أريه كيف يغرر بالفتيات الشريفات .

انقضى يومان على لقاء سعيد بسيفيم . ومن جديد توهج الأمل في قلب الشاب ، فراح يرجو عمته بيرين الذهاب إلى دار فيرفييرفيرك للتعرف على أهل العروسة ، والاتفاق معهم بشأن العرس . وقد وافقت هذه بكل ارتياح على القيام بهذه المهمة المشرفة ، لأنها كانت تدرك أن هذا يفوق طاقة سعيد . كانت العمة تريد أن يعقد القران على الطريقة القديمة ، مع مراعاة تقاليد الأجداد .

بعد أن أرسل عمته إلى آل فيرفييرفيرك ، راح سعيد ينتظر عودتها على أحر من الجمر . ولشدة اضطرابه لم يعرف ماذا يفعل ، فراح يدور في الغرف ، ويتلو الأشعار ، وينشد الأغاني ... وحين تردد جرس الباب أخيراً – اندفع إلى المدخل ، وهو يكاد يطير فرحاً .

– ماذا جرى ؟ كيف الأحوال ؟ – استقبل سعيد عمته بأسئلته .

– هيه أنت ، حاذر ! هيا ابتعد – تردد صوت أبح .

نظر سعيد، فإذا أمامه شخص لا يعرفه .

– أرجو المعذرة ، لم أفهم يا أفندي .

- الآن سوف أجعلك تفهم كل شيء . لسوف أصحح لك دماغك بسرعة.

- تفضل يا أفندي ، أدخل .
- سأدخل ، ولن أسألك .

هكذا تعارف أحمد وسعيد ... في البداية جلسا صامتين ، وراح كل منهما يتفحص الآخر . بعد ذلك نهض أحمد ، واقترب من الجدار ، الذي علقت عليه صور الباشوات القدامى ذوي اللحى ، لابسي الطرابيش ، تزين صدورهم النياشين . ومن السقف تدلت ثريا قديمة ... وعبر نافذة الشرفة رأى حديقة كبيرة مهملة .

- هل هذا بيتك ؟ - سأل بلهجة فظة ما أمكن .

لم يكن أحمد بطبيعته إنساناً فظاً ، لكنه كان يعتقد أنه يجب أن يتصرف مع سعيد كما يتصرف مع الخصم في ملعب الكرة .

- بيتنا يا أفندي - رد سعيد بخجل .

وجلس أحمد من جديد .

- إنك تعرف من أنا بالطبع ؟

اقترب سعيد من أحمد يتفحصه.

- عفواً يا أفندي ، لا أستطيع أن أتذكر ... أين يمكن أن نكون قد تعارفنا ؟

- كيف ؟ ألم تتعرف علي ؟
- عفواً يا أفندي ، لم أتعرف عليك ...

- هل تتكلم بجد ، أم انك تسخر مني ؟ أنظر بشكل أفضل . طيب من أشبه ؟

ودنا سعيد من أحمد حتى كاد يلتصق به .

-ربما تأخذ النظارة المقربة ؟ ... إنك تجلس قربي تماماً ... إنزع النظارة ، وانظر مرة أخرى .

- إن نظري ضعيف ... بدأ سعيد .

- إذن فلم تتعرف علي ؟ - قاطعه الضيف .

- ألا تستطيع يا أفندي أن تذكرني أين تعارفنا ؟

وارتبك أحمد : فأمامه يجلس إنسان لا يعرفه ، وهو لاعب الكرة الأوسع شهرة ، والذي كان همس الإعجاب يتردد من خلفه أبداً ... يا سلام !

- ألا تذهب إلى مباريات كرة القدم ؟

- كلا يا أفندي ...

- وفي الصحف ألا تقرأ عن كرة القدم ؟

- كلا يا أفندي ...

-ليتك تنفق ! فخلال الأشهر الأربعة الأخيرة لم تكف الجرائد عن الكتابة عني .

- ومن أنت ؟ بماذا تشتهر ؟

-يا سلام ! لا تنس : أمامك يجلس نجم حي . نجم كرة قدم ... في البداية لعبت في فريق الشباب ، وبعد ذلك انتقلت إلى فريق آخر ، إنك لا تعرف على كل حال ... فقام هذا ببيعي ...

بينما كان أحمد يتحدث بحماسة عما تكتبه عنه الجرائد : كيف أصاب في إحدى المباريات ثلاثة لاعبين ، وكيف أوسع مساعد الحكم ضرباً ، أما الحكم نفسه فقد طرده من الملعب ، دخلت مدام أنجيلا ، الوصيفة العجوز . وبعد أن وضعت صينية القهوة على الطاولة ، ناولت أحمد فنجاناً . وما إن عرفته ، حتى كادت تسقط الفنجان من يدها ، وصاحت :

- ألست أحمد الجدال (الجدار) ؟

- هو بالذات ... - ابتسم أحمد بغبطة .

– لقد قلأت (قرأت) عنك الكثيل (الكثير) ... أوه يا إلهي كم هي ممتعة حياتك ... ولما كانت المدام فرنسية أصيلة فقد راحت تلثـغ بحـرف الـراء وتلفظه لاماً .

– إذن فأنت تعرفين هذا الأفندي يا مدام أنجيلا ؟ سأل سعيد بدهشة.

– ومن لا يعلف (يعرف) أحمد الجدال (الجدار) المشهول (المشهور) ؟ ففي كل صباح أبدأ قلاءة (قراءة) الجلائد (الجرائد) بما تكتب عنه .

– والآن هل اتضح لك من أنا ؟ الجميع في البلاد يعرفونني .

– وأي لجلين (رجلين) لديك ! – تابعت مدام أنجيلا – يـا لهمـا مـن لجلين! ... حين تشوط الكلة (الكرة) في اسطمبول يتلدد (يتردد) الصوت فـي قالص (قارص)...

لم يعرف سعيد ماذا يفعل من شدة الخجل ، يا للعار – أن يجهل مثـل هذا الإنسان ، وهو أشهر من نار على علم . ولم تكد مدام أنجيلا تغلق البـاب خلفها ، حتى نهض سعيد من كرسيه ، وانحنى ، ثم قال :

– إنني في غاية السرور يا أفندي بالتعرف عليك . إن معرفتك شـرف كبير لي ... وإذا كان لديك أي طلب مني ، فلسوف أحققه بكل غبطة ...

بينما راح صاحب البيت يوزع كلامه المعسول ، كان أحمد يتفحصه ، ويعترف في سره أن سيفيم محقة ،،على الأرجح : فلا تفهم ، أهو أحمق فعلاً، أم أنه يتظاهر ...

– طيب ، طيب ، لا داعي للتشكرات . الآن ، وبعد أن عرفـت مـن أكون، دعنا نتحدث بصراحة . هل تعرف سيفيم ؟ أقصد سيفيمنا ...

لم يفهم سعيد شيئاً ، لكنه هز برأسه على كل حال .

– وهكذا – تابع أحمد – إن سيفيم فتاة طيبة ، وهي لا تتورع عن القيام بأي شيء من أجل الفريق ... ففي العام قبل الماضي لم يفز مـراد بـوروف بسباق المئة متر سباحة على مسيوت إلا بفضل سيفيم ... إنها فتاة في غايـة الاستجابة . سيفيمنا . هذه هي الأحوال ... وإجمالاً فقد كـان ميـسوت فـي

الطليعة ، حتى أنه كان أول من بلغ الحاجز ، لكنه لم يجرؤ على الخروج من الماء ... تصور أن سيفيم تمكنت تحت الماء من نزع سروال السباحة عنه ! وفاز مراد . وعن هذا لم تقرأ شيئاً أيضاً ؟ يا إلهي أي شيء تقرأ إذن ؟

عند سماع اسم سيفيم ، قفز قلب سعيد في صدره ، كما العصفور في القفص .

- بالطبع يا أفندي ، أنا أعرف سيفيم هانم - قال بقلق .

- ها أنا قد جئت لأتحدث معك عنها .

"لكن من هذا الأحمد ؟ - راح سعيد يفكر بينه وبين نفسه بشكل محموم - لعله قريبها ، أو ربما يريد أن يتزوجها هو أيضاً ؟ لماذا جاء لاعب الكرة المشهور إلي في الوقت الذي ذهبت فيه عمتي تطلب لي يدها ؟ ساعدني يا إلهي ...

- هل أنت قريبها ؟ - سأل سعيد بوجل .

- ها ... قريب ... إنني أقرب إليها من أقرب أقربائها ... ولهذا فقد جئت إليك .

- كلي آذان صاغية يا أفندي .

- هل يليق بالرجل - بدأ أحمد من بعيد - أن يضحك على فتاة مسكينة؟ وهل يليق بالإنسان المهذب - عموماً - أن يتصرف على هذا النحو ؟ - فجأة نطق أفضل لاعب في نادي عغ بهذه الكلمات .

- لا يليق طبعاً يا أفندي - تمتم سعيد ، دون أن يفهم ما يرمي إليه محدثه .

- لماذا تتصرف على هذا النحو إذن ؟ - صرخ أحمد الجدار .

- إنه - والحق يقال - لم يكن ينوي الصراخ ، ثم إن كل ما في هذا البيت يدفع إلى الحديث الهادئ الصريح .

- يشهد الله أنني لم أسمح لنفسي بأي شيء تجاه سيفيم هانم ، فنحن لم نتعرف على بعض إلا منذ عهد قريب جداً ...

وهنا ألقى أحمد قنبلته :

– ها ... عهد قريب ... وجدت من تخدع ! ... وبهذه السرعة جعلتها حاملاً !

وقفز سعيد من مكانه .

– ماذا ؟ حامل ؟ هي ؟

– ومن إذن ؟ أنا ؟

تسمر سعيد في مكانه من فرط الغبطة . لسوف يكون لديه ولد ! ولد صغير يناديه "بابا" ... يا لها من سعادة، يا إلهي ... طبعاً مستحيل أن تكون سيفيم قد حملت منه ، كل ما في الأمر أنه قبلها مرة واحدة ... لكن هذا لا يهم... المهم أن الناس بدؤوا يتحدثون عن ذلك ، والجميع واثقون من هذا ...

أمسك أحمد عن الكلام ، بعد أن أدرك أنه دخل "الأوف سايد" (تسلل)، فانتقل إلى التراجع فوراً :

– عموماً إن الحمل لا يزال في بدايته ، لكن يجب أن تفهم هل يليق بك، وأنت المنحدر من مثل هذا الأصل العريق ، أن تتخلى عن المرأة الحامل؟... إنني – والحق يقال – أرثي لهذه المسكينة جداً ...

وبينما راح سعيد يفكر كيف يقول له إن عمته بيرين ذهبت إلى آل فيرفييرفيرك لتخطب سيفيم له ، نهض أحمد :

– حسناً ، سنعتبر أننا اتفقنا . آه ؟ حاذر أن تغشني ! إذا كان لا يزال لديك بعض الشكوك من ناحيتي ، فاخرج إلى الشارع ، واسأل أول من تصادفه من هو أحمد الجدار ؟ فاهم ؟ طيب بخاطرك ، أنا ذاهب ...

ودع سعيد ومدام أنجيلا الضيف المحترم بكل تبجيل . ولم يكد الباب يغلق وراءه ، حتى وثب العريس السعيد من مكانه ، وراح يلف ويدور ، وهو يزعق : "سعيد – أب ... سعيد – أب ... ".

كان يعرف أن آل ريجيصين يعيشون في خوف من أن يأتي اليوم ، الذي ينقطع فيه نسبهم العريق . ومنذ الآن لم يعد مثل هذا الخطر يتهدد نسب

ريجيصين . إن بوسع هذا النسب أن يفخر به ويتباهى ، فقد تمكن – خلافاً لكل الخوف ، من حل مشكلة مواصلة سلالة ريجيصين .

راحت مدام أنجيلا تراقب سعيداً بصمت لبعض الوقت .

– لماذا جاء إليك أيها الباشا ؟ – تجرأت على سؤال سعيد الشاب.

ورد سعيد أن أحمد هو أقرب أقرباء الفتاة ، التي يريد أن يتزوجها .

– أي لجلين لديه ! يا لهما من لجلين ! – بدأت مدام أنجيلا تطلق صيحات الإعجاب – يشهد الله يا باشا أن لجليه إذا ما قولنتا بألجل الآخلين كمن يقالن المدفع اللشاش بالبالودة .

أدرك سعيد أن مدام أنجيلا تعرف الكثير عن أحمد ، فرجاها أن تحدثه عنه . وقد فهم من حديثها أن أحمد يضرب بقوة أكثر بقدمه اليسرى ... فبعد عدة ضربات بيسراه ، يقع الخصم على الأرض فوراً ... وفي وقت من الأوقات حظروا عليه إجمالاً اللعب بيسراه ... كان يكفي أن يغضب أحمد ، حتى تبدأ قدمه اليسرى تتحرك من تلقاء نفسها . الكثيرون يعرفون ذلك عنه ، ويحاولون أن لا يثيروه أثناء اللعب . وحين يقال له في نهاية المباراة إنه عاد فجندل لاعبين – ثلاثة ، يأتي جواب أحمد : "كل ذلك بسبب يسراي ... لا أستطيع أن أفعل بها شيئاً ... " .

كان سعيد يصغي لمدام أنجيلا ، وهو مغتبط في سره أنه نجا بأعجوبة من ساق أحمد اليسرى .

رن جرس الباب ، فانطلق سعيد إلى غرفة المدخل .

– ماذا وراءك ؟ – انقض على العمة بيرين .

ولما كانت عمته المحبوبة شركسية قحة ، وتربت في جو البلاط ، فقد كانت هانم أفندي حقيقية ، ولذا فلم تكن تطيق العجلة .

–دعني ألتقط أنفاسي يا ولدي – أوقفته – هاتي لي بعض الماء يا أنجيلا .

خلعت المعطف بتؤدة ، ونزعت المنديل عن رأسها ، ثم جلست في الكنبة بشكل مريح ، بينما سعيد يراقب كل حركة من حركاتها .

- الله ، الله ، كم أنا تعبة !

أما سعيد فراح يلف كما اللبلاب ، وقد فرغ صبره ، وهو لا يكف يكرر :

- هيا يا عمتاه ، لا تعذبيني ! بماذا أجابوك ؟

- هلا صبرت قليلاً ، دعني ألتقط أنفاسي . سوف أروي لك كل شيء بالترتيب ، المهم أن لا تستعجلني . عما كنت أتحدث ؟

- لم تتحدثي عن شيء بعد . لقد قلت : "الله ، الله ، كم أنا تعبة" .

- كلا بعد ذلك ... نعم ... يا للزحام في الشارع ... يخيل إليك أن أحداً لم يبق في البيت . ما هذا الذي جرى للناس ، لست أفهم ... إلى أين يندفعون، ولماذا لا يجلسون في البيت ؟ يستحيل أن تركب الباص .

ومن شدة القلق بدأ سعيد يقضم أظافره .

- بالكاد استطعت أن أركب سيارة سرفيس ...

بعد ذلك تحدثت طويلاً كيف تجادلت مع السائق ، وعما تحدث الركاب...

- لا تطلعي روحي يا عمتي . بماذا ردوا عليك ؟

- لا تقاطعني يا بني ، سوف أحدثك بكل شيء ... ففي الحديث متعة... لماذا أنت على عجل ؟

كادت تفلت من سعيد أنه سوف يصبح أباً سعيداً قبل الزواج ، لكنه تمالك نفسه في الوقت المناسب .

واصلت العمة قصتها ، محاولة أن لا تفوت أي تفصيل : فتحدثت عن أثاث غرفة الضيوف ، وعن السجاد ، المعلق على الجدران والموضوع فوق الأرائك ، وعن المزهريات فوق الطاولات ...

وبينما راحت تتحدث عن السجاد والمزهريات، كان سعيد يحاول التكهن بالجواب ، الذي جاءت به العمة : إذا كانوا قد قالوا لها "لا" – فلا يبقى إلا أن تكتب ملحمة تراجيدية بعنوان "سيفيم وسعيد" – قال سعيد في سره .

أخيراً انتقلت العمة إلى تناول القهوة .

– الخادمة هي التي جلبت القهوة ، ولن أخفي عنك يا ولدي أن ذلك لم يعجبني . طالما أن الزائرة جاءت لمشاهدة العروس المنتظرة ، فعلى الفتاة أن تقدم القهوة بنفسها ، مهما كانت الأسرة غنية ... تلك هي العادة ...

– أوي يا إلهي دعي هذه العادات وشأنها يا عمتي .

– لقد عدت إلى موالك ... وبعد القهوة قلت : "عفواً" ، بودي أن أغسل يدي ... " .

– آخ يا عمتي ، لماذا ذهبت إلى هناك ؟ لتطلبي يد سيفيم ، أم لتغسلي يديك ؟

– إنها العادات يا ولدي ... إذا كنت تريد معرفة كل شيء عن أسرة العروس ، فالق نظرة من كل بد على المكان اللازم : إذا كان هذا المكان نظيفاً ، فبوسعك الزواج بكل جرأة ، أما إذا كان قذراً ، فلا داعي للبقاء ، بل عد أدراجك ...

– طيب ولماذا لم تقولي لهم يا عمتي منذ البداية ، إنك تريدين غسل يديك ؟

– لم أستطع يا ولدي ، فهذا غير لائق ... فأنا لست مفتشة صحة ... كل شيء في وقته ...

– طيب ، وماذا جرى بعد ذلك ؟ ماذا قال حسيب بيه ؟

– ومن يكون حسيب بيه ؟

– حسيب بيه ، والد سيفيم .

– لم يكن ثمة رجال ، نساء فقط ... صحيح أن بعض الشباب كانوا في غرفة أخرى ... آخ لقد قطعت حبل أفكاري ... أين توقفت ؟

- في المكان اللازم ...

- لم أمكث هناك طويلاً . فليس ثمة ما يمكن القيام به هناك – ألقيت نظرة وخرجت . وأقول لك أن سيفيمك فتاة غير مدبرة .

- ومن أين عرفت ؟

- الآن ستفهم ... أنت تعرف أنَّ العادة أنْ لا يذهب الإنسان خالي الوفاض ، ولذا اشتريت كستناء مغطسة بالسكر ، ورجوتهم في المخزن أن يربطوا العلبة ربطاً محكماً لغرض في نفسي .

- ولماذا ؟

- للسبب التالي : إذا ما فكت العقدة بعناية فهي مدبرة ، أما إذا قطعتها، فإنني أرثي لذلك الرجل ، الذي سيصبح لها زوجاً ...

كان سعيد يعرف جيداً مدى مغالاة العمة في التدبير ، فهي لم تكن ترمي شيئاً أبداً ... وكل ما كان يقع بين يديها تكومه ، وهي تقول : "لا ترم القشة ، فلسوف يأتي وقتها" – ثم تحمله إلى الشونة ، حيث الأكداس من كل ما هب ودب : فوارغ شراب الفاكهة ، زجاجات الكولونيا ، علب المربى الفارغة، المعلبات الفارغة ، البراغي والمفاتيح والمسامير ، التي أكلها الصدأ، اللعب المكسورة ...

- وهكذا – استأنفت العمة قصتها – فهي ليست مدبرة ... لقد تركت العلبة في البهو عن قصد ، وقلت لها : "هاتي العلبة يا ابنتي وفكيها ، فثمة في داخلها شيء... " .

- وهل هذا معقول يا عمتي ؟

- إنها العادة يا ولدي ... وإلا فكيف يمكن أن تمتحنها ؟

- طيب وهي ؟

- بدأت تفكها بعناية ، ومن ثم راحت تشد الخيط ، وفي النهاية قطعته بأسنانها ... ولذا يا ولدي فإن هذه الفتاة ...

راحت أسنان سعيد تصطك من شدة الاضطراب .

– عمتي – قاطعها – إنها هي كما هي ! ماذا قالت أمها ؟ هل وافقت؟

– الآن سأقول لك ... إنك تستعجلني كثيراً ... إذن أين توقفت ؟

لم تطل العمة قصتها عبثاً ... فقبل أن تذهب إلى آل فيرفييرفيرك استفتت جميع أفراد عائلة ريجيبصين لكي تعرف رأيهم بزواج سعيد . وقد أيد بعضهم زواج ابن أخيهم بأسرع ما يمكن وبأي كانت ، المهم أن لا ينطفئ نسبهم العريق ، بينما لم يرغب بعضهم الآخر حتى بسماع قصة الزواج . صحيح أن سعيداً خبير في الرياضيات ، لكنه لم يكن يجيد عد النقود ، لذا فقد كان أقرباؤه ، البالغو الحرص ، يخافون أن تظهر في البيت فتاة شاطرة تجيد عد النقود ، فتضع يدها على كل شيء ، أو فتاة مغناجة تضيع الثروة وتبذرها. وقد أعرب الأقرباء للعمة عن مخاوفهم بدون مواربة ، فأدركت هذه أنه سيكون من الأفضل أن تتمكن من إقناع سعيد بالتخلي عن فكرة الزواج من سيفيم ، ولا يمكن بلوغ ذلك إلا بالأسلوب المعروف : إلقاء الظل على العروس.

–لقد جاوبتني أمها على النحو التالي : "نحن لا نشكو – والحمد لله – من غياب الراغبين في طلب يد ابنتنا . يكفي أن تخرج إلى الشارع حتى تتعلق بها ما لا يقل عن سرية من الشباب ...

–ماذا ؟ هل هذا ما قالته ؟ – توقف قلب سعيد عن الخفقان .

–نعم ، وأضافت : "إذا كان ابن أخيك قدر ابنتنا فليكن ذلك" .

–لست أفهم شيئاً – قال سعيد .

–وماذا تريد أن تفهم ؟ فهي لا تستطيع أن تقول بصراحة : الحمد لله، أخيراً وجدنا الشاري ! .

وهنا لم يتمالك سعيد نفسه .

– آه يا عمتي – قال بصوت ضعيف – عما قريب ستصبح سيفيم أماً... والأصح أنني سأصبح أباً عما قريب ، ولذا فأنا على عجل ...

لكنها ما إن سمعت قول سعيد ، حتى تأوهت ، وسقطت الحقيبة من يدها .

– خاف الله ، هل هذا صحيح يا ولدي ؟ ... أنت ؟ أب ؟ ... أوه يا إلهي أنت القادر على كل شيء ...

أصيبت العمة بيرين هانم بالدهشة : فسعيدها ، صبيها ، الذي كانت حتى عهد قريب تعتني به طفلاً ، وفجأة يصبح أباً !

– شيء لا يعقل ! ومتى لحقت ؟

– لقد لحقت ... أنا نفسي لا أستطيع فهم ذلك – وتردد في صوت سعيد الارتباك والفخار .

– لكنك ، اعذرني أنا العجوز على هذا الكلام – تبيت في البيت دائماً.

وأفلت من فم سعيد .

– لقد بت معها نهاراً ... في السينما ... في المقصورة .

– الله ! ماذا أسمع ؟ كلا ، كلا ، كل شيء إلا هذا .

– وما المانع يا عمتي ، فقد أصبحت كبيراً – صاح سعيد ريجيصين مدافعاً عن عزة الرجل لديه .

– وأي أب أنت ؟ قالت بيرين هانم ، وبدأت تبكي .

ومن اللهجة ، التي قالت بها ذلك ، أصبح وجه سعيد الشاحب قرمزياً .

– إنك تعاملينني وكأنني طفل يا عمتي ، بينما أصبحت في الرابعة والعشرين ... إن لدى كل من أترابي عدة أولاد ... طيب ، أما أنا فسيكون لدي البكر ...

آه كم يتوق لأن يصبح أباً ! وكان سعيد ، والحق يقال ، يفهم جيداً أنه لا يمكن أن يكون أباً لهذا الولد ، لا نظرياً ولا عملياً . لكن هذا لا يقدم ولا يؤخر شيئاً ! فالآخرون وقعوا في هذه الورطة أيضاً ، وليس هو بالأول ، ولا هو بالأخير . لم يكن سعيد يخاف كلام الناس ، سيتقولون ويتقولون ، ثم

يتوقفون . كان يخاف شيئاً واحداً – نفاق أقربائه الأعزاء ، الذين سيعارضون دون ريب – زواجه بالمرأة ، التي لحقت أن تحمل قبل الزواج ... أما هو فلم يألف – للأسف – معارضة الأكبر منه ... يا له من إنسان منحوس حقــاً : إذ لم يكد يلتقي نصفه الآخر ، فتاته المحبوبة الوحيدة ، حتى أسرعت فحملت .

بدأ سعيد يتحدث بالتفصيل كيف تعرف على سيفيم ، لكن بيرين هانم . قاطعته :

– يكفي . يجب أن نجتمع ، ونقرر معاً ماذا يجب أن نفعل لاحقاً . لقــد أخطأت ، إذ أصغيت إليك . لم يكن هناك حاجة للذهاب خاطبة بل كان يجــب أن أنتظر ، وأسمع رأي الباقين ...

– أنا من يريد الزواج يا عمتي ، لا هم – للمرة الأولى في حياته تجرأ سعيد على خوض النقاش .

– ومع هذا يجب أن يحضر الجميع – اعترضت بيرين هانم بعناد .

كان سعيد يعرف أن من العبث النقاش مع العمة .

– حسناً فليجتمعوا ، وليناقشوا ، وليقرروا ، لكن إذا ما عارضوا فإنني أعرف ماذا سأقول ... إن من تسمينهم "عائلتنا" ، ليسوا سوى مجموعــة مــن ركام الصلعان ، والشيوخ الدرد ...

– أسكت حالاً ! هل أنت من يقول هذا ؟ – قالت المرأة العجوز ، وقــد هالها ما سمعت – كيف يطاوعك لسانك ؟

خاف سعيد نفسه من جرأته هذه ، فقال شاكياً :

– لا تزعلي يا عمتي ... فأنا أحبها ! إنه الحب ... الحب ... إن الحب أقوى من الموت .

– أنجيلا ! أنجيلا ! – صرخت العمة ، إذ سمعت كلمة "الموت" – أعطني ماء ! – وسقطت على الأريكة ، مغشياً عليها .

مجلس العائلة الكبير

فركت مدام أنجيلا صدغي بيرين هانم بالكولونيا ، وأعطتها قطرات النعناع . ولم تكد العمة تثوب إلى رشدها ، حتى كان أول شيء تقوم به أنها هرعت نحو الهاتف ، وراحت تتصل بجميع الأقرباء ، داعية إياهم إلى المجلس .

جاب سعيد أرجاء الحديقة ، وهو يترنم في سره بـ "الحب أقوى من الموت" ، بعد ذلك عاد إلى البيت ، وانفرد في غرفته ، حيث جلس في المكتب، وغرق في حل مسألة رياضية غاية في التعقيد ، لا تزال تقض مضجعه منذ عام ونيف .

حين افتتح في اليوم التالي مجلس العائلة الكبير ، الذي ضم جميع ممثلي نسب ريجيصين العريق ، كان سعيد لا يزال جالساً إلى الطاولة ، دون أن يتناول لا طعام العشاء ولا الفطور .

دخلت بيرين هانم :

– لنذهب يا ولدي .

– إلى أين – سأل بشكل آلي – هكذا دائماً ، ما إن أبدأ التركيز ، حتى يأتي أحد ما من كل بد ، ويزعجني ...

– كيف إلى أين ؟ لقد التأم شمل الجميع ، ولا ينتظرون سواك .

– ينتظرونني أنا ؟ من ؟ ولماذا ؟

– الله ، الله ، ما هذا الولد الشارد – صاحت العمة بيأس .

وبالفعل ، فحين ينكب سعيد على مسائله المحببة ، لا يبقى للعالم وجود بالنسبة إليه، ولم تكن بالأمر السهل إعادته إلى الأرض . وأثناء وجوده في

باريس كان أصدقاؤه الطلاب يدلقون في هذه المناسبة الماء البارد عبثاً على رأس سعيد .

- اسمعني يا ولدي ... لقد اجتمعنا اليوم للحديث عن سيفيم . وارتعش سعيد .

- سيفيم ... سيفيم ... أنا جاهز يا عمتي . هيا بنا ...

في غرفة الضيوف ، حيث التأم شمل جميع الأقارب ، من أحفاد عائلة شفران – زاده – ريجيصين العريقة ، علقت فوق الباب صورة مؤسس الأسرة – يوسف باشا الأرقط . ولولا اللحية والنياشين لخيل إليك أنك ترى صورة سعيد ... وعلى الجدران الأخرى اصطفت صور أخلاف يوسف باشا الكثيرين. ومن بينهم الوجهاء القادة في الأردية العسكرية ، الموشاة بخيوط الذهب ، والصداري والطرابيش ، بلحى وبدون لحى ، بشوارب وبدون شوارب ، في ياقات منشاة وربطات عنق .

إلى طاولة عملاقة من خشب الجوز جلس ستة عشر عجوزاً من الجنسين . وكان عبد الشكور بيه ، ذو الثمانين عاماً ، الأكبر سناً بين آل ريجيصين ، أما أصغر أعمام سعيد ، قسمة بيه ، الدبلوماسي المتقاعد ، فقد بلغ التاسعة والستين منذ عهد قريب .

دخل سعيد غرفة الضيوف بكل ثقة ، وتوقف في مواجهة المدفأة الجدارية ، التي كان اللهب يتراقص منها بمرح ، فكان وهجه يغمر وجه الشاب المتيم والمدبب قليلاً .

- أهلاً وسهلاً – انحنى سعيد للمدفأة الجدارية ، دون أن يعرف أن عمته غيرت مكان الطاولة .

- شكراً يا ولدي – رد قسمة بيه ، نيابة عن الجميع .

كانوا جميعاً يعرفون أن سعيداً لا يرى جيداً ، فلم يغضبوا منه. أذن عبد الشكور بيه لسعيد بالجلوس ، وبدأ مجلس العائلة الكبير أعماله .

-هانم أفندي ، بيه أفندي المحترمين ! – قال كبير آل ريجيصين ، مخاطباً الحضور – يتوجب علينا اليوم اتخاذ قرار بالغ الأهمية والمسؤولية .

بخصوص عقد قران أفتى فرع في شجرة عائلتنا العريقة ، وأملنا الوحيد – سعيد . بعد إذنكم أعلن افتتاح مجلس العائلة .

رفع ذهني بيه – أحد أعمام سعيد – إصبعه .

– الرئيس المحترم إن سمونا يطلب السماح .

هز عبد الشكور بيه – الرئيس – رأسه موافقاً . وقد تبين أن ما يشغل بال ذهني بيه مسالة شكلية بحتة :

–لما كان الموضوع ، الذي اجتمعنا من أجله ، يتطلب النقاش الطويل والشامل – بدأ ذهني بيه ، فإن مجلسنا العائلي لا يمكن أن ينهي أعماله بالسرعة الكافية ... ولما كان سمونا مضطراً ، بسبب عارض خفيف ، إلى مغادرة الاجتماع ، والخروج من الغرفة باستمرار ، فإنني اقترح إعطاء استراحة كل عشر – خمس عشرة دقيقة .

– من يؤيد اقتراح ذهني بيه ليرفع إصبعه – قال عبد الشكور بيه .

تقرر بالأغلبية الساحقة ، بفارق صوتين ، وامتناع واحد ، إعطاء استراحة في جلسات المجلس كل خمس عشرة دقيقة .

– إن القضية ، التي اجتمعنا اليوم من أجلها – تابع الرئيس – تتطلب النقاش من جميع جوانبها ، ولذا فإننا نرجو من قسمة بيه أن يطلعنا على فحوى المسألة بأكبر قدر ممكن من التفصيل .

بالمناسبة فإن كلا العمين ، الأكبر والأصغر ، يعارضان زواج سعيد .

– – هانم أفندي . بيه أفندي المحترمين – بدأ قسمة بيه – علينا اليوم – كما تعرفون – أن نقرر مسألة عقد قران ولدنا سعيد بيه ، الذي أعرب عن رغبته في الاقتران بالعرى الأسرية بسيفيم هانم من بيت آل فيرفييرفيرك . إن أختنا وعمته بيرين هانم أفندي ، التي جمعت كل المعلومات الضرورية عن الفتاة الشابة ، الراغبة في التقرب من آل ريجيصين ، تؤيد سعيد بيه في نواياه النبيلة والطبيعية . أما رغبة سعيد في الإسراع بالزواج من الفتاة المذكورة فتعود إلى أن ولدنا سعيداً يستعد، هو وسيفيم هانم المذكورة ، لإهداء نسبنا العريق ريجيصيناً آخر في المستقبل القريب .

وبدون لباقة ، سألت زبيدة هانم ، وهي إحدى العمات ، التي بلغت الخامسة والستين من عمرها ، والتي لم يسبق لها الزواج أبداً :

– هل صحيح ما فهمت من أن سعيداً سيصبح أباً حتى قبل الزواج ؟

وبدأ العجائز يتهامسن ، ولم يستطعن كبح جماح القهقهات . وتزعزع إلى حد ما الاحترام الكبير ، الذي كان سعيد يكنه حتى الآن لمحفل عائلة ريجيصين العظيم .

– إن عمتك المبجلة يا سعيد بيه تسأل كيف تمكنت من أن تصبح أباً قبل الزواج ؟

– بشكل عادي جداً – تردد التحدي في صوت سعيد .

– وكيف "بشكل عادي" ؟ عادت العانس زبيدة هانم ، ذات الخمسة والستين ، تسأل .

– هكذا . في منتهى البساطة . للأسف أنني لا أستطيع أن أشرح لعمتي المحترمة – انفجر سعيد فجأة – كيف يصبح الناس آباءاً . فهي على حد علمي تفتقر إلى أية تجربة في هذا الميدان . لكن إذا كانت هذه المسألة تهمها ، فبوسعها مراجعة الاختصاصيين ، أو قراءة الكتب حول ذلك .

وخيم صمت فظيع . فلم يكن أحد يتوقع هذه الوقاحة من سعيد . وإذ شعر الفرع الشاب من الشجرة العريقة بنشوة النصر ، راح صدره يبرز من شدة الغرور ، كما تفعل الديكة .

ومزق قسمة بيه الصمت بقوله : في وقتنا نحن كان مثل هذا الزواج السريع جداً يعتبر غير لائق ... كم مضى على تعارفكما ؟

– إننا نراسل بعضنا منذ عهد بعيد – قرر سعيد الصمود حتى النهاية، دفاعاً عن شرف حبيبته المثلوم .

– إلى هنا إذن يقود التقدم ، الذي يتحدثون عنه بمثل هذا الصخب ... إذن فقد أصبح الحمل ممكناً الآن بواسطة البريد ؟ – قالت زبيدة هانم بسخرية لاذعة ، وهي تتعطش للانتقام .

وحاولت إحدى العمات الوقوف في صف سعيد .

–لقد تغير الزمن يا هانم أفندي المحترمة . كل شيء ممكن الآن . حتى أنني – على سبيل المثال – قرأت في مكان ما أن الرجل لم يعد الآن لازماً ...

– عفواً أفندي – سمع صوت أحدهم – لا ضير في القول إن هذا يعرف باسم التلقيح الاصطناعي ، وإذا كان الطفل ، الذي نتحدث عنه هنا ، قد لقح بهذه الطريقة بالذات ، فكيف يمكننا إذن قبوله في عائلتنا ؟

–لكن ألا تعرف أن كل شيء الآن اصطناعي ؟ – تدخل أحدهم – فنحن نعيش في عصر كل شيء أصبح فيه اصطناعياً : الجلد الاصطناعي ، الفرو الاصطناعي ، والكافيار الاصطناعي .

– إنني أفهم – قال عبد الشكور بيه بصوت واهن ، محاولاً العودة إلى جدول الأعمال – أن كل شيء يمكن أن يحدث الآن غير أن الشيء الوحيد ، الذي لا أستطيع فهمه ، هو كيف يمكن قبل الزفاف ؟

– أرجو السماح لسمونا بالخروج – رفع ذهني بيه إصبعه .

تطاول مجلس العائلة حتى منتصف الليل . وقد جرى كل شيء كما في البرلمان : البعض يأخذ غفوة ، ورأسه على الطاولة ، والبعض الآخر ، ما إن يَصْحُ ، حتى ينخرط في النقاش الحامي الوطيس . وحده ذهني بيه لم تغمض له عين ، بسبب مرضه ، فقد كان المسكين مضطراً لمغادرة قاعة الاجتماعات كل خمس عشرة دقيقة .

تبنت زبيدة هانم العانس موقفاً معارضاً للزواج بكل حسزم . وحدث خلاف حاد في الآراء في المجلس ، مما أدى إلى تكوين معسكرين متخاصمين. وفي أثناء المداولات لم يخطر ببال أي منهم أن يسأل سعيداً نفسه عن جدية مشاعره ونواياه ، كأن النقاش لم يكن يدور حول زواجه أبداً . أخيراً فرغ صبر سعيد :

–أرجو المعذرة أنني أدلي بدلوي في نقاشكم بدون إذن – بدأ سعيد بلهجة حازمة – لم أسجل اسمي في المناقشات ، لكن بودي أن أطرح عليكم

سؤالاً وحيداً : من الذي سيتزوج في النهاية ، أنتم ، أم أنا ؟ ومع خالص احترامي لكم أنتم كبار نسبنا فإنني أريد أن أعرف هل لي الحق في الزواج بمن أريد ، أم لا ؟

-لكن هناك تقاليد الأسرة ... بدأ قسمة بيه .

-عفواً يا عمي - قاطعه سعيد - كم مرة تزوجت ؟ وكم مرة طلبت إذن الكبار ؟

ولاذ قسمة بيه بالصمت .

ولا بد من القول إن زواج قسمة بيه المتكرر كان موضوعاً للقيل والقال، ومصدر إزعاج لعائلة ريجيصين المحترمة . فقد تزوج قسمة بيه الأرعن والطائش ثماني مرات ، هذا عداك عن العلاقات المشبوهة بالأجنبيات، اللواتي لا يحصى لهن عدد . فكان ما إن يتزوج ، حتى يبدأ يخون زوجته ، التي لا تلبث أن تتركه . وباختصار فإن مغامرات العم كلفت العائلة ثمناً باهظاً، حيث شوهت سمعة آل ريجيصين ، وبدوره دفع ثمنا غالياً ، إذ كلفته منصبه ، حيث أحيل على المعاش قبل الوصول إلى مرتبة سفير .

-الأمر يختلف بالنسبة لك يا سعيد - قال أحدهم بلهجة المصالحة - فأنت الوحيد القادر على إهداء نسبنا العظيم ولياً للعهد . ولهذا فنحن نولي زواجك مثل هذا الاهتمام . إن عليك ، ومن واجبك أن تفهمنا نحن الشيوخ ...

لكن جميع المشاركين في مجلس العائلة كانوا يدركون جيداً أن سعيداً لا يمكن أن يتراجع بهذه البساطة عما عقد عليه العزم . وحينذاك طلبوا منه مغادرة قاعة الجلسات ، والانتظار خلف الباب . وقال قسمة بيه ، الذي استعاد موهبة الكلام :

-من الواضح تماماً يا أفندية أن سعيداً سيتزوج هذه الفتاة ، بغض النظر عن قرارنا . وإذا ما كابرنا فإن الضرر لن يلحق إلا بهيبتنا، فلم يعد الشباب يهتمون برأي الكبار . ولن نجني سوى الفضيحة. أما إذا أعطينا موافقتنا على الزواج ، فإننا ننقذ هيبتنا ونسبنا وتلاحم العائلة ، مصدر توفيقنا وازدهارنا .

ومن باب اللباقة فكر الجميع قليلاً ، ثم قرروا بالإجماع أن سيفيم هانم عروس مناسبة ، ولا داعي للبحث عن عروس أخرى .

واستدعوا سعيداً .

– ابننا سعيد ! – بدأ عبد الشكور بيه بلهجة احتفالية – بعد أن ناقش مجلس العائلة الكبير في جلسته الطارئة طلبك حول السماح لك بالاقتران بابنة عائلة فيرفيبرفيرك ، يشير إلى أن اختيار ابننا سعيد ، الحصن الأخير والأمل الوحيد لعائلة ريجيبصين ، التي دخلت التاريخ تحت الاسم الوجيه شفران – زاده ، المنحدر من يوسف باشا الأرقط الجزيل الاحترام ، لعقيلته القادمة ، قد تم دون التشاور مع الكبار ، مما يتنافى وتقاليد العائلة . وفي الوقت نفسه ، فمع الأخذ بعين الاعتبار لمتطلبات العصر المتنامية ، والأخذ بالحسبان للنتائج الإيجابية للتحقيق الشامل حول العروس وأسرتها ووضعها وسمعتها وشخصيتها ، يتخذ المجلس قراره المبدئي البالغ العمق: اعتبار الفتاة سيفيم هانم ، كنتنا القادمة ، لائقة ومهذبة ، وبالتالي إعطاء الإذن بالزواج لابننا سعيد من سيفيم هانم ، المذكورة أعلاه ، والترحيب بهذا الحدث ، باعتباره بالغ الأهمية في حياة أسرة ريجيبصين " .

كان سعيد يصغي محاولاً فهم كلام عمه ، لكن سيل الكلمات دوخه ، فراح يطرف بعينيه شبه العمياوين ، دون أن يفهم شيئاً . وحينذاك كررت العمة، التي تجلس بجواره، خطاب الرئيس بإيجاز ، وأضافت من عندها :

– سوف نحتفل بالعرس بعد أن تتخلص سيفيم هانم من الطفل ...

في البداية استاء سعيد ، لكنه استطاع تمالك نفسه :

–هذا مستحيل يا عمتي العزيزة ... ربما لن أتمكن في المرة القادمة من أن أصبح أباً ؟ فهل تجوز المخاطرة ؟ ...

وهنا سارعت العمة ، التي سمعت الكثير عن مواهب سعيد ، فطمأنت ابن أخيها مؤكدة أن هذه الكارثة لا تهدده ، ولن تهدده .

أدخل قرار مجلس العائلة الكبير السرور إلى قلب سعيد – فالطريق إلى السعادة سالك . ناحية واحدة فقط ظلت تقض مضاجع العريس – الأب . كلا

إنه لا يلوم سيفيم في أي شيء – فما العمل ، لقد حصل ما حصل، ولا بد أن أسباباً قاهرة وراء حمل سيفيم . لكن أن يصبح أباً دون أن يسهم في هذا الأمر بأي جهد ، هذا لعمري مثير للشجن . فهو لا يريد أن يكون كسولاً . لم يسبق له أن عمل وكسب قوت يومه . ولما كان يحصل على كل شيء جاهزاً، فقــد شعر برغبة عارمة في أن يجرب قواه في ميدان العمل ...

الخطوبة

أخيراً حل يوم الخطوبة المنشود ...

بعد المفاوضات والمداولات ، اتفق آل فيرفبيرفيرك وريجيصين على اليوم والساعة والمكان للاحتفال بالخطوبة . وتلقت صفوة مجتمع اسطمبول المخملي بطاقات الدعوة للتشريف إلى قاعة "البانكيت" في فندق "دالتون" .

منع حسيب بيه ابنته من لقاء العريس قبل الخطوبة . وقد وقفت ميهجوري هانم الفطنة إلى جانب زوجها في هذا المنع خوفاً من انسحاب سعيد نتيجة الشائعات ، التي تروج عن عروسه ، أما الفراق فإنه يضرم نيران الشوق . كان حسيب بيه يعرف ذلك بتجربته الخاصة : وهو يذكر جيداً ، أنه كاد يجن من شدة الحب .

– الأفضل أن يبقى أحدهما بعيداً عن الآخر – كان حسيب فيرفبيرفيرك يقول لمعارفه – فأنا إنسان شريف ، وأريد أن أموت مطمئناً ... لا يجوز وضع البارود والنار متجاورين...

وقد قال هذا كله لسعيد ، الذي أصغى إليه مطرق الرأس ، وهو يتساءل في سره من منهما النار ومن هو البارود .

– إنك على حق يا أفندي – قال بحيرة – لكنني لا أفهم أبداً ما الذي سيحصل إذا ما تلاقينا ؟

حاول حسيب بيه الإعراب عن تصوراته بهذا الخصوص بأكبر قدر ممكن من اللباقة . وقد أصغى إليه سعيد بكل احترامٍ ، لكنه لمح من جانبه إلى أن سيفيم حامل ، بينما هو على أبواب أن يصبح أباً – ويا للمفارقة – قبل أن يصبح زوجاً . لم يسبق أن حدث شيء من هذا في عائلتهم ، وأنه في حيرة من أمره بسبب الوضع القائم ، وإن كان لا يزال على حبه لسيفيم .

الآن بدأ حسيب بيه يصغي إليه ، وهو يشعر بالحرج ، مدركاً أن من يقف أمامه ليس غبياً، كما أكدت له زوجته وابنته . فراح حسيب بيه يضرب بيده على صدره مؤكداً أنه في حيرة أكبر ، وراح يورد الأمثلة التاريخية والدينية حول الحبل قبل الزواج ، ويحاول إقناع سعيد بلطف بانتظار الخطوبة، مؤكداً أن الفراق سيكون لمنفعة العروس والعريس . وبدوره أقسم سعيد أنه باق على حبه لسيفيم ، ووعد بتحمل الفراق بصمود ...

باختصار حل يوم الخطوبة ، وجرى الاحتفال في فندق "دالتون" بشكل رائع ، ولفترة طويلة سيظل مجتمع اسطمبول المخملي يتذكر هذا الاحتفال ... صحيح أن البعض – لا يخلو من هؤلاء مكان – حاول الهزء بسعيد . لكنه ، وقد أعماه الحب ، لم يولهم أي اهتمام . إنه يبصق على هؤلاء الخبثاء ، الذين يعتبرونه مغفلاً فقط لأن خصر خطيبته الفاتنة ليس نحيلاً كما يجب .

لا يجوز القول ، إن كل شيء في تلك الأمسية ، التي لا تنسى ، كان على ما يرام ، فلم يخل الأمر من بعض المنغصات المحزنة . فقد سمح أحد المشهورين بالطيش لنفسه بتصرف أرعن ، إذ روى على رؤوس الأشهاد النكتة التالية :

– قرر أحد الرعاة الزواج . ويقولون له : "إن المرأة ، التي اخترت عرجاء" ، فيرد "وليكن" ، ويقولون له من جديد : "ثم إنها عمياء ، صماء ، بأذن واحدة ، وحدباء" ، فيكرر "وليكن" ، ويقولون له : "لكنها مجنونة" ، أما هو ، فيقول : "وليكن ، المهم أن تنجب أولاداً" ...

قوبلت النكتة بعاصفة من القهقهات ، والتفت الضيوف باتجاه سعيد ساخرين . أما سعيد فكان يقف أحمر كما السرطان . الحمد لله أن سيفيم لم تكن في الجوار . ولم ينقذ الوضع إلا برودة دم ريجيبصين الشاب ونبل محتده وتربيته .

كان سعيد الرزين يحاول جاهداً مراقبة كل حركة ، كل إشارة ، وكل كلمة ، كي لا يفضح ارتباكه ، ويتجنب السخريات . لكن النكتة الحمقاء أخرجته عن طوره لدرجة أنه اندفع إلى صالة الرقص ، وكاد يصطدم بالمرآة

الكبيرة ، التي تغطي الجدار كله . وبعد أن دار على عقبيه مئة وثمانين درجة، وقع بكل عزم على الحاجز الزجاجي ، الفاصل بين الصالتين .

اتجه سعيد بخطوات مترددة نحو الطاولة ، حيث كـان يجلـس عمـه المنتظر ، ودعاه إلى الرقص ، ظناً مه أنه سيفيم :

– أرجو أن تهديني هذا "التانغو" .

نهض حسيب بيه ، ثم تأبط ذراعه ، وقاده إلى حيث تجلـس ابنتـه . وحين طلب والدها منها أن تذهب ، وترقص مع خطيبها ، قطبت سيفيم أنفها ، وناولت سعيداً يدها ، ثم نهضت دون رغبة .

كانت تلك رقصتها الأولى . فقد ظلت سيفيم طيلة الحفلة بعيـدة عـن خطيبها ، متظاهرة أنها لم تتزوج هذا المغفل برغبتها ... كان مظهر الخطيبة بائساً جداً ، لدرجة أن الضيوف بدأوا – على غير إرادة منهم – يرثون لهـا ، أما المسكين سعيد فقد زاده نفورها منه خراقة وخجلاً .

كانت الأوركسترا تعزف "تانغو" عاطفياً . وكـان المـراقص الـشاب يعرف أن من المفروض عليه أثناء الرقص أن يقول لمراقصته كلمات لطيفة . لكنه بدل الاعترافات الغرامية وجد نفسه يسألها فجأة :

– هل تحبين برامس ؟ ...

ظنت سيفيم أن خطيبها الغيور يسألها عن أحد عشاقها السابقين .

– من ؟ من ؟

– برامس .

– ومن هو ؟

– ألماني ... رومانسي ...

إنها لا تتذكر أنه سبق أن كان لديها معارف من لاعبي الكرة الألمان ، والرومانسيين أيضاً – هافبيك ربما ؟ كلا عبثاً يشك بها ، إنه يظلمها ...

– كان موسيقياً عظيماً – تابع سعيد ، وقد أدرك أنه بدأ حديثاً فارغاً ، لكنه لم يستطع التوقف – ملحناً مشهوراً .

برامس ؟ ... كانت سيفيم تعشق لاعبي الكرة ، ولذا فقد سألت بسذاجة:

- هل هو صاحب هذا التانغو ؟

- إنه ملحن عظيم من القرن الماضي – أعلن سعيد بمهابة .

لكن سيفيم لم تعد تسمع ، فقد لمحت أحمد قربهـا ، يـراقص إحـدى الشقراوات منفوشة الشعر . "هذا ما ينقصنا" – قالت الخطيبة في سرها ، وهي تحرق الأرم غيرة .

لم ينطلق اسم برامس العظيم من صدر سعيد مصادفة ؛ فقد كان يحـب الموسيقى الجادة ، ويعزف على البيانو ، كما كان يجد أن لديـه الكثيـر مـن الصفات ، التي تجمع بينه وبين برامس . حيث يؤكد معاصرو الملحن الألماني الأشقر الشعر ، الأزرق العينين أن شعر ذقنه لم ينم حتى سن الثلاثين ، مثـل سعيد ، ومثل سعيد كان خجولاً ، منحوساً ، وموضع السخرية أبداً ... ويؤكد علماء القرن الماضي أن جسم برامس كان يتطور بشكل شاذ ، مما جعلـه لا يستطيع الزواج في شبابه ، لكن المعجزة حدثت له بعد سن الأربعـين . فقـد نضج ، ونمت لحيته بكثافة ، وأصبح رجلاً حقيقياً . ولهذا بالذات علق سـعيد في مكتبه صورة كبيرة للملحن الملتحي ، وعلى البيانو وضع تمثالاً نصفياً له. كما اشترى سعيد كل ما عثر عليه من أسطوانات هذا الموسيقي العظيم . إنـه بانتظار المعجزة – صحيح أنه لا يزال بعيداً جداً عن الأربعين .

- لم أفهم ما دخل الألماني ، الذي سألتني عنه هنا ؟

صمت سعيد قرابة دقيقة ، ثم أجاب بصدق :

– حتى سن الثلاثين لم تنم اللحية لدى برامس ...

نظرت سيفيم إلى وجه خطيبها الـشاحب والأجـرد ، وغرقـت فـي الضحك. وبعد ذلك تأبطت ذراعه بدلال ، وشدته إلى مائدة شاغرة : لقد أثرت فيها صراحة سعيد وعجزه . وفجأة تخلى ، بقدرة قادر ، عن ارتباكه ، وراح يتحدث – أخيراً – عما كان يقض مضجعه – عن الطفل ... وأوضـحت لـه

سيفيم أنه لا يفقه في الحياة شيئاً بسبب رياضياته ، وبعد ذلك راحت تهدل بصوت بالكاد يسمع :

–لعلك ترتاب من ناحيتي في شيء يا حبيبي ؟

حين سمع سعيد كلمة "حبيبي" ، توقف قلبه في صدره عن الخفقان .

–كلا – صاح سعيد – معاذ الله ...

وهنا اقترب منهما سوآت الزنجي ، وسأل سعيداً :

– هل أستطيع اختطاف خطيبتك منك للرقصة التالية ؟

ابتسم سعيد باعتزاز .

– بالطبع، تفضل.

انطلقا يرقصان ، بينما توقف سعيد يراقب خطيبته المدهشة ، محاولاً أن لا يلفت الانتباه . كانت ترقص بدون استراحة ، تارة مع هذا ، وأخرى مع ذاك ، وبين الرقصات كانت تثرثر بحيوية مع الضيوف ، وكأنها نسيت خطيبها تماماً . وبشكل عام فإنها لم تكن وحدها التي نسيته ، بل إن جميع الضيوف تصرفوا وكأنهم لم يأتوا إلى حفل زفاف ، بل إلى حفلة استقبال لكي يشربوا ، ويمرحوا ويرقصوا ...

سعيد وحده لم ينس سبب احتفال اليوم . ولما كان يظن أنه من غير اللائق ترك خطيبته طويلاً فقد اقترب من الطاولة ، حيث تجلس سيفيم ملتصقة بأحمد الجدار ، واضعة رأسها على كتفه . وكان أول ما وقعت عليه عينا سعيد ساق قلب دفاع عغ اليسرى ، التي كانت تختلج بهمة ونشاط . وخوفاً من حدوث ما لا تحمد عقباه ازدادت سيفيم التصاقاً بأحمد .

–هل حدث مكروه ؟ – سألت سعيداً .

وهنا اكتشف صاحبنا أن خطيبته تعانق أحمد ، فارتبك ورد بتأتأة :

– أر – أرجو المعذرة ... كلا ... لم يحدث شيء . لن أزعجكما ...

وابتعد ، وهو في دهشة من قدرة أحمد الجدار على التعصيب بساقه اليسرى بالذات . إن عبد الشكور بيه وحده القادر على تفسير مثل هذا الشذوذ العصبي . لكن سعيداً لم يجد له أثراً . فقد غادر على الأرجح . وحينذاك راح سعيد يبحث عن ذهني – بيه ، وحتى هذا لم يعثر سعيد عليه . وكانت مدام أنجيلا تؤدي إحدى الرقصات الحديثة بخفة ورشاقة لا تتناسبان وعمرها . وقرر سعيد الحديث إلى قسمة – بيه ، الذي لم يكن يحبه – والحق يقال . ولكن حتى هذا لم يره في أي مكان . وحينذاك دنا من عمته ، بيرين هانم ، التي كانت جالسة في أريكة في الزاوية ، فانحنى على أذنها ، وسألها همساً :

– أين قسمة بيه يا عمتي ؟

– لقد غادر الجميع يا ولدي، فقد تأخر الوقت .

– دون وداع ؟

– لم يرغب في إزعاجك . فقد كنت ترقص مع سيفيم . لقد ودعوني وطلبوا مني أن أبلغك تمنياتهم لك بالسعادة .

ابتعد سعيد عن عمته ، فرأى قريبه البعيد محي الدين بيه ، الذي كانت الإخفاقات ، ذات الطابع التجاري ، ترافقه في حله وترحاله ، مما تسبب في ضياع نصيبه من الإرث منذ عهد بعيد . وكما جميع الفاشلين فقد كان يعتبر نفسه بالطبع – تاجراً عظيماً . لم يحالفه الحظ بشكل شيطاني في الحياة . ولم يكد محي الدين يرى سعيد بيه يتجه ناحيته ، حتى خطر له على الفور أنه لن يكون بالأمر السيء أن يحصل على بعض المال من الخطيب السعيد . وبعد تبادل عدة عبارات لا معنى لها مع قريبه ، سأل سعيد فجأة :

– بودي أن أسألك يا أفندي عن ظاهرة في غاية الغرابة .

– تفضل يا ولدي .

– هل تعتقد أن الساق لدى الإنسان المضطرب يمكن أن تختلج إلى درجة أنه يجد نفسه عاجزاً عن السيطرة عليها ؟ فهل يعقل أن ساق الإنسان يمكن أن لا تطاوعه ؟

نظر محي الدين بيه إلى سعيد باهتمام ، محاولاً أن يخمن كيف يجاوب الخطيب بالشكل الذي يرضيه . فلا يستبعد أن يكون سعيد يسأل عن ساقه بالذات ، التي لا يستطيع التحكم بها ، وإذا ما أعطى رداً مناسباً فإن سعيداً المغتبط قد يسخو في عطائه . هم العجوز أن يروي للخطيب قصة مدهشة من الحرب العالمية الأولى ، حيث وضعوا لأحد الضباط الجرحى ساق رجل آخر لكنها لم ترغب في طاعة سيدها الجديد ، غير أن سيداً بالغ الرزانة والإلحاح لا يقل عن التاجر المفلس اهتماماً بأموال آل ريجيبصين ، اقترب من سعيد وسحبه معه .

لم يكن هذا الدخيل سوى ديوندار مهذار بيه ، الأمين العام لنادي عغ الرياضي، فقد كان في قرارة نفسه مغتبطاً بصدق لعقد قران سعيد القادم مع سيفيم الحسناء ، فهو ، يعرف أن سعيداً الوريث الوحيد لثروة آل ريجيبصين ، التي "لا تأكلها النيران" ، وللأغنياء – كما هو معروف هواياتهم ، وهم لا يبخلون بالمال على هذه الهوايات . وعلى الرغم من أن نادي عغ "عمود الغبار" المحترف مؤسسة ذات إيرادات عالية ومستمرة ، فإن شؤونه المالية تتوقف إلى حد كبير على مساهمات عشاقه الأغنياء . وكلما زاد عدد هؤلاء المعجبين في النادي ، ازدادت أسهم النادي ارتفاعاً .

وكان مدير نادي عغ يسهر بنفسه على مسألة تجنيد الأغنياء . ومن أجل هذا جاء إلى حفل الخطوبة . "إذا ما أمكن ، بمساعدة سيفيم ضم هذا الطويل النحيل ، لابس النظارات ، إلى عضوية نادينا ، فإن ذلك لن يعود على فريقنا إلا بالفائدة" – فكر ديوندار مهذار بيه في سره . وفي وقته كان قد وظف هو نفسه مبلغاً كبيراً في عغ ، وقد وظفه ، والحق يقال ، بذكاء ، لأنه استرده منذ عهد بعيد ، بعد أن در عليه ربحاً ليس بالقليل . كان مهذار بيه يدرك جيداً أن هناك عوامل أخرى مهمة ، إلى جانب المال : اللاعبون الجيدون ، المدرب الممتاز ، والأهم من هذا وذاك – نائب ذو نفوذ في المجلس، كرئيس فخري للنادي . ومن المفيد جداً تقديم هذا المنصب – لنقل – لأحد زعماء الحزب الحاكم . وحينذاك سيكون من السهل العثور على اللاعبين الجيدين والمدرب الممتاز . في المرة الأخيرة حالف الحظ ديوندار مهذار بيه : فقد تمكن من الحصول على زعيم حزبي واسع النفوذ لرئاسة النادي . صحيح

أنه كان أعرج منذ الولادة ، ولذا فمن المستبعد أن يكون قد شاط الكرة مـرة واحدة في حياته ، لكن بالمقابل كان لا يشق له غبار في ميدان السياسة ، وهذا ما كان في غاية الأهمية للدعاية لعغ . وبكل سرور أخذ الزعيم الحزبي علـى كاهله مهمة الرئيس الفخري لعغ ، وهو منصب جلب له الشهرة بين صـفوف الناخبين العريضة . فكان يحضر من كل بد كل مباراة ، ويشجع بكل حماسـة فريق "العمود" ، حتى أنه كان في بعض المرات يثب في مقعده، ويلوح بقدمه العرجاء بكل قوته، وحينما يشوط أحد اللاعبين الكرة مخطئاً المرمى، يـصيح الزعيم : "يا حيف عليك ! حتى أنا ما كنت لأخطئ الهدف من هذه المسافة !". ولم تلبث هذه العبارة أن أصبحت قولاً مأثوراً ، يردده اللاعبون ، والمشجعون وحتى البرلمانيون المغرورون ...

بعد منتصف الليل لم يعد ديوندار مهذار بيه يبتعد خطوة واحـدة عـن وريث آل ريجيبصين ، الذي تفتق لديه الاهتمام بكرة القدم وبشؤون النادي لأن الطريق إلى قلب سيفيم ، كما أدرك ، يمر عبر عغ فقط .

وهنا أيضاً كان يسعى إيرول أركان بيه الصحفي والمعلق الرياضـي ، وهو شاب حربوق ، يجيد التفاهم مع الناس من مختلف الأعمار ، ويخاطـب الجميع دون استثناء بقوله " يا صاحبي" . وعلى الفور قدمه ديوندار مهذار بيه لسعيد :

-تعارفا ، إنه أركاننا ، المعلق الموضوعي وغير المنحاز الوحيد في البلاد – ثم أضاف بعد أن فكر ملياً – الحمد لله أن أركان بيه يؤيد فريقنا .

- وعلى هذا رد أركان بيه بتواضع :

-كل ما في الأمر يا صاحبي أنني أؤدي واجبي – وأضاف ، بعد أن وضع يده على قلبه : ها هنا "عمود الغبار" دائماً .

-إن أركاننا – عاد مهذار بيه يقول – هو الذي جعل أحمد مشهوراً، وأعطاه لقب أحمد الجدار . إذا ما ألقى إيرول أنشوطته على أحد ، فإن هذا لن يصمد على الصهوة طويلاً ...

بعد هذه الكلمات أصبح سعيد يكن لأركان بيه الإعجاب البالغ ، ولم يعد يرفع نظره عنه ، كأنه نوم تنويماً مغنطيسياً .

-كيف تمكنت يا أفندي من بناء شهرة أحمد ؟

-لكل مهنة - يا صاحبي - أسرارها - رد المعلق بشكل غامض - الأفضل أن نشرب قليلاً ...

تفرق الضيوف عند الصباح . وطلب سعيد من مهذار بيه وأركان بيه أن يعرجا عليه بكل بساطة ، بدون رسميات . أما سيفيم السكرانة فقد رفضت بشكل قاطع ، أن تغادر ركبتي أحمد الجدار ، بينما كان هذا يزأر ، ويسراه تختلج ، إن سيفيم لن تذهب إلى البيت إلا على جثته . ولولا العمة بيرين هانم أفندي ، التي قادت الفتاة للحظة إلى غرفة الزينة ، إذن لكان من الصعب التكهن بما كان سيجري ، وكيف كانت ستنتهي حفلة الخطوبة .

رافق سعيد آل فيرفييرفيرك حتى البيت . وكان لا يجهل بالطبع أن عليه عند الوداع أن يلثم عقيلته القادمة ، لكن ما إن حلت هذه اللحظة حتى ارتبك لدرجة أنه أخذ يد سيفيم في يده ، ولم يعد يعرف ماذا يفعل بعد ذلك . قهقهت سيفيم ، ثم قبلت خطيبها العبيط في خده ، واختفت داخل البيت .

بدأ نور النهار يغمر الكون . ولأول مرة في حياته شرب سعيد بهذا القدر ، ولكي يطرد السكرة من رأسه قرر أن يعود إلى البيت على قدميه . راح يسير وكأنه في حلمٍ من شدة السعادة والغبطة . وفجأة اصطدمت قدمه بشيء ما ، فانحنى قليلاً ، فرأى علبة بسكويت كرتونية . "يا للصدفة السعيدة- استيقظ لاعب الكرة في سعيد - الآن سوف نشوطها" . تراجع خطوتين ، ثم انطلق ، وسدد ، وشاط و ... وتمدد سعيد في الشارع .

حين نهض ، وهو يئن ويشتم ، اكتشف أن نظارته تحطمت ، وأن الدم يسيل من أنفه .

"إنني بانتظارك غداً" - تذكر كلمات خطيبته . لكنه لن يستطيع الخروج من المنزل ، بمثل هذا الأنف المحطم . "ربما ينتظر إلى أن تنمو لحيته كما حصل لبرامس" - فكر سعيد .

الخطيب والخطيبة على انفراد

الانتظار إلى أن تنبت اللحية سوف يطول ، والحب لا يتحمل الفراق . ومن حسن الحظ أن عادات الأسلاف تسمح من الآن فصاعداً للخطيب برؤية خطيبته ، ولو كل يوم . ونفس هذه العادات لهؤلاء الأسلاف تفرض على الأهل السهر على عفاف ابنتهم . وقد منعت سيفيم منعاً باتاً من الذهاب إلى الملعب ، وبخاصة في تلك الأيام ، التي يلعب فيها فريق نادي عغ . "حين تتزوجين افعلي ما يحلو لك – يؤكد الوالدان لابنتهما اللجوجة – حينذاك سيكون الزوج مسؤولاً عن كل شيء ، أما الآن فلا – لا ... " .

وجدت سيفيم نفسها مضطرة للرضوخ لإرادة أبويها ، خوفاً من أن يفشل الزواج لسبب تافه . ولذا فقد بذلت قصارى جهدها من أجل عدم انتهاك الحظر الوالدي . وإذا ما صدف ، والتقت في الشارع بلاعب تعرفه ، فلم تعد تتوقف ، كما في السابق ، لكي تثرثر وإياه كما يحلو لها ، بل أصبحت تكتفي بتبادل كلمتين – ثلاث ، ثم تهرول إلى البيت حتى دون أن تسأله عن زملائه اللاعبين ولا عن أحمد الحبيب . لكن كلما طال أمد الحبس الطوعي ازدادت أفكارها إصراراً في العودة إلى عغ وقلب دفاعه الذي لا يخترق ، وأصبحت زيارات الخطيب لا تطاق ، وبدأ استقبال سيفيم له يزداد جفاءاً . وراح سعيد البائس والمتيم جداً ، يتقوقع على نفسه ، ويتعذب ، لكنه استمر يتردد عليها يومياً .

وهكذا فإن على سيفيم هذا اليوم أيضاً أن تبقى جالسة في البيت ، بينما يلتقي المنافسان اللدودان عغ ومحد . إن هذا ما لا يقبل به عقل ... وزاد وجود سعيد في الطين بلة . تباً للشيطان ، الذي أتى به ... كأنها لم تكن تنتظر أحداً غيره ...

غادر الوالدان الدار قصداً لكي يبقى الخطيبان وحيدين . لكن مثل هـذه الاختبارات كانت غير لازمة أبداً . ففي مثل هذه الحالات لم يكن سعيد يخاف خطيبته فقط ، بل ونفسه بالذات ، فكان يمضي الأمسية كلها منطوياً على نفسه في الزاوية . ولم تكن الخطيبة ، والحق يقال ، تنتظر منه التعبير عن مشاعر العاطفة كخطيب ، لكن عزة نفسها كامرأة أهينت ، فهي سيفيم غريفون ، التي يجب أن تبقى محط الأنظار ... وبشكل عام فليتجاسر وليجرب فقط ، سـوف تريه ...

كانت سيفيم تستعد لسماع المباراة بواسطة المذياع ، وكان قد بقي على بدايتها حوالي نصف ساعة . يا إلهي هل يعقل أن عـذابها سيـستمر نـصف ساعة، وستبقى تلعب لعبة الصمت المطبق مع خطيبها ، وهي التي لا تستطيع أن تسكت دقيقة واحدة ؟

"طيب ماذا سيحدث – تساءلت في سرها – إذا ما ذهبـت معـه إلـى الملعب؟" . وعلى الرغم من أنها لم تكن تحب أن تظهر وإياه على الملأ ، لكن الأسوأ من ذلك أن تجلس وإياه في البيت ، وتموت من السأم .

وثبت سيفيم ، وراحت تجوب الغرفة . بماذا تشغل نفسها ؟ يجـب أن تستحم ! وبدأت الخطيبة تخلع ثيابها أمام سعيد في غرفة الاستقبال : "طريف ، كيف سيتصرف يا ترى ؟ " .

أما سعيد فكان يجلس هادئاً ، كما يجلس التلميذ المطيع أمـام الأسـتاذ الصارم ، دون أن يرفع عينيه ... "لعله لا يرى أنني أخلع ثيابي؟" ، اقتربـت سيفيم منه حتى كادت تلتصق به ، وأوعزت :

– فك البكلة ...

وثب سعيد ، وبدأ يفك البكلة تلمساً ، وقد أدار وجهه ، كي لا يرى مـا لا يصح أن يراه بعد .

– هل انتهيت ؟

– خلاص – تمتم بصوت بالكاد يسمع .

– والآن سحاب التنورة ...

- "أوخ ! ... هذا هو طريق الغواية ، الذي يقود إلى القدسية" .

بيدين مرتعشتين عثر سعيد على السحاب ، وفكه ... "ما الـداعي لأن يتركوهما وحيدين ؟ " - هذا ما دار في رأس سعيد .

دخلت سيفيم الحمام ، ولم تمض دقيقة حتى تردد صوتها :

- سعيـ - يد ... سعيـ - يد !

- ماذا يا سيفيم هانم ؟

- تعال هنا يا عزيزي !

انطلق سعيد ، والدنيا لا تسعه من فرط السرور أنهـا نادتـه بـ"يـا عزيزي" ملبياً النداء ، فأوقع في طريقة الكراسي ، وعلى الرغم من أن الباب كان مفتوحاً ، فقد توقف في الممر ...

- تعال إلى هنا يا عزيزي !

- إنني هنا - رد سعيد من وراء الباب .

- أدخل إلى هنا يا روحي ...

ودخل . كانت سيفيم ترقد في المغطـس ، وقـد أخرجـت قـدمها ، ووضعتها على طرف المغطس ... وزر سعيد المرتبك عينيـه ، ثـم غطـى وجهه بيديه .

- لست أنظر يا سيفيم هانم ، لست أنظر - راح يتمـتم - يمكنـك أن تستحمي بدون خجل ...

- انقلع من هنا ... زعقت سيفيم بصوت غاضب - انقلـع مـن هنـا فوراً...

وانطلق سعيد لا يلوي على شيء . "عجيب أمر هؤلاء النـساء : فـي البداية يناديك ، ومن ثم يطردنك ... " . وهل يستطيع أن يتصرف على نحو أخر ، ما دام والداها قد ائتمناه عليها ... لعلهما يريدان أن يمتحناه ؟ الحمد لله، فليعرفا أنه شخص شريف ومهذب ...

كان سعيد يخدع نفسه بنفسه : كل ما في الأمر أنه كان يخاف سيفيم ، يخاف أن لا يتمالك نفسه بعد أن يقبلها ، وأن يقوده الخوف إلى حرج آخر . كم مرة خذله خوفه ، كلا لقد قطع على نفسه عهداً أن لا يمس خطيبته قبل الزواج .

خرجت سيفيم غريفون من الحمام ، وقد خرجت عن طورها من شدة السخط والغضب – فلم يسبق لأحد أن تصرف معها على هذا النحو .

– سيفيم هانم – همهم سعيد ...

– ماذا تريد أيضاً ؟

– لا شيء كل ما الأمر أنني ...

– إذا كان لا شيء فاخرس ! الآن ستبدأ المباراة .

– لقد أردت أن أقول ...

– ماذا ؟

– في ذلك اليوم الذي تعارفنا عليه ... في السينما ... يا للذكرى الحلوة...

في كل مرة يبقى سعيد فيها معها وحيدين يتذكر من كل بد ذلك اليوم "الرائع" ... ولقد ملت سيفيم هذه الذكريات لدرجة أنها كادت تقول له : "ومن أين لك أن تعرف أيها المسكين عما يتذكر الرجال الحقيقيون؟ " – لكنها تمكنت من تمالك نفسها .

في هذا الوقت تردد صوت المذيع :

– أعزائي المستمعين : نبدأ ريبورتاجنا عن مباراة كرة القدم بين فريق نادي عغ وفريق نادي محد . معكم على الهواء معلقنا الرياضي إيرول أركان بيه .

– انتباه ، انتباه ، بدأ إيرول – نحن معكم أعزائي المستمعين في ملعب مدحت باشا . بعد عدة دقائق ستبدأ هنا مباراة الموسم ، حيث يلتقي المتنافسان الدائمان ، اللذان يليقان ببعضهما – عغ ومحد – مفخرة وزينة كرتنا

الوطنية... بين لحظة وأخرى سيظهر الفريقان في الملعب . اليـوم أعزائـي المستمعين سنشارك في أحداث تاريخية : لمن سيكون الفوز لـ عـغ أم لـ محد؟ ... على المدرجات ...

بالطبع لم تكن مباراة هذين الفريقين تعني لسعيد شيئاً ، لكنـه أراد أن يسمع تعليق أركان بيه الشهير ، الإنسان الذي صنع مجد أحمد الجدار .

–حتى يومنا هذا – تابع المعلق – لعب الفريقان مئة وثمانٍ وعشرين مباراة ...

–أحمق – قالت سيفيم بهدوء – ليس مئة وثمان وعشرين، بل مئة وسبعاً وعشرين ، فقد ألغيت إحدى المباريات ...

–في هذه المباريات المئة والثماني والعشرين فاز فريق محد أربعاً وخمسين مرة ، أما عغ ففاز ثمان وأربعين مرة .

–من أين لك هذا يا أبله النحس – انفجرت سيفيم .

كان سعيد ينظر إلى خطيبته ، وقد جحظت عيناه : فالفتـاة ، التـي لا تعرف شيئاً عن برامس ، تعرف كرة القدم أفضل من أركان بيه نفسه .

–الفريقان يدخلان الملعب ، هل تسمعون ردة فعل الجمهور . المشجعون يرحبون بأحبائهم . محد يلعب اليوم في زيه العادي : القمصان المخططة والسراويل البنية الفاتحة . أما لاعبو عغ فقد غيروا زيهم ، فهم اليوم يرتدون الأصفر الفاقع ...

–مغفل – انفجرت سيفيم – يرتدون الأصفر الفاقع ... تعليق بايخ .

–في الملعب اختلط الحابل بالنابل ... بينما يتجادل الحكم مع كابيتاني الفريقين . سأعرفكم بإيجاز على كل فريق . نبدأ بـ"عمود الغبار" . إن قوة عغ الرئيسة وعموده الفقري هو أحمد الجدار بالطبع ، وهو كابيتان "الأعمدة"...

أشرق وجه سيفيم ، إذ سمعت اسم أحمد بالمذياع .

-ثلاثاً وعشرين مرة شارك أحمد الجدار في مباريات منتخبنا الوطني... إنه نجمنا ... لقاء مبالغ طائلة ... أما فريق "مطاردي الحاجة الدائمة" فيقوده إلى الهجوم كابيتانه ، الذي لا بديل له ، عثمان الفلفل . اختار عثمان الفلفل المرمى . الكرة في وسط الملعب ... صفارة الحكم ، وتبدأ المباراة ... الكرة مع "المحديين" . قادري يشوط لعلي الصغير... وهذا – لعثمان ... عثمان يقتحم منطقة جزاء "الأعمدة" ... يا له من اختراق مندفع ، ليس من باب المصادفة أنهم يلقبونه بـــ الفارس ... عثمان فلفل يشوط لعلي الصغير ، وهذا يعيد الكرة لعثمان . هجوم كاسح للمحديين ...

كانت سيفيم تقضم أظافرها بعصبية .

– عثمان يتجاوز المدافع . فرصة سانحة . مراوغة أخرى ... يحتفظ بالكرة بشكل رائع الآن سيشوط و ... مرحى لأحمد ! صحيح أنه جدار، يا له من لاعب ... لكن كيف نجح ؟ فبقفزة لا تصدق ، وبضربة رأسية يخرج الكرة من منطقة الجزاء ، منقذاً مرمى الفريق من هدف محقق ! مرحى لأحمد...

وثبت سيفيم ، وارتمت على سعيد تعانقه ، وقد فوجئ الخطيب بهذه القفزة فتأوه ، أما ركبتاه النحيلتان فقد طقطقتا تحت ثقل الخطيبة .

ثابت سيفيم إلى رشدها بسرعة ، وعادت إلى مكانها .

– الصراع يجري حامي الوطيس ... المحديون في وضع الدفاع . و"الأعمدة" استقروا بشكل راسخ في عقر دار الخصم ... الكرة مع مصطفى ، إنه يشوط لبكر ! يا الله ... خسارة ! آخ يا بكر ... على اللاعب أن يسدد من مثل هذا الموقع ! ... أما هذا فلا داعي له أبداً : بكر يشوط لعثمان ... الكرة مع "المحديين" ... تنتقل إلى أتيلا ... الذي يندفع نحو المرمى بهجوم كاسح . يتجاوز الدفاع ... يدخل منطقة التسديد ... يا الله ، يا أتيلا ! لقد فوت الفرصة. يشوط لبكر ! بكر ... يسدد وهدف ! يا له من هدف رائع ... هدف جميل ...

قفزت سيفيم من شدة الفرح ، وارتمت على سعيد من جديد . ثم عانقته وقبلته بحرارة ... ومن جديد لم يلحق سعيد ، الذي فوجئ ، أن يفرح – فلحس شفتيه ، كما بعد تناول البوظة .

وحين سجل "الأعمدة" هدفهم الثاني أدرك سعيد أخيراً سبب اضطراب سيفيم ، وراح يتوسل إلى العلي القدير أن يسجل عغ أكبر قدر ممكن من الأهداف في مرمى محد .

في ذلك اليوم أسبغ الله على سعيد، الكثير من النعم : حتى حينما سجل الهدف في مرمى "الأعمدة" قفزت سيفيم وارتمت على ركبتيه ، ثم التصقت بصدره بقوة ، وأجهشت في البكاء . ومن شدة الفرح بدأ رأس سعيد يدور .

انتهى الشوط الأول والنتيجة اثنان – واحد لصالح عغ . وخرج الفريقان للاستراحة . وعزفت الموسيقى ، وراح سعيد يفكر بتأثير كرة القدم على سلوك المرأة العاطفي ...

– هل سبق لك أن كنت في الملعب ولو مرة واحدة ؟ – سألت سيفيم ممزقة الصمت المخيم .

– مرة واحدة ، حين كنت طالباً في المدرسة ... لم أذهب بنفسي ، بل جروني إلى هناك .

– ومن الذي جرك ؟

– لم أعد أذكر ... بعض الناس ... يوم الأحد توجهت لحضور الدروس ،وإذا بي أجد نفسي في الملعب ...

كانت سيفيم تحرق الأرم غيظاً : "هل يعقل أنه كتب علي أن أصبح زوجة هذا العبيط ؟ صحيح أنه ليس بالضرورة الزواج من ذكي ، لكن أن أتزوج من أحمق – فهذا ليس مدعاة للسرور ... " .

– وكيف وصلت إلى الملعب ؟ – سألت سيفيم بلهجة لا مبالية ، فقط بهدف مواصلة الحديث .

–كانت هناك مباراة هامة ، وكان الناس يتدفقون على الملعب من كل حدب وصوب . وقد وجدت نفسي بالمصادفة ، وسط الزحام ، ولم يعد بإمكاني التخلص ، وهكذا وجدت نفسي على المدرجات .

–ومن كان يلعب آنذاك ؟

–هذا ما لا أعرفه ... لم أكن أفكر بالمباراة ... فقد أمضيت كلا الشوطين وأنا أبحث عن الحقيبة ، التي فقدتها في الزحام ...

بدأ الشوط الثاني ، ومن جديد بدأ صوت أركان بيه يهدر من المذياع ، ولم تكن سيفيم ترفع عينيها عن المذياع ، أما أفكارها فكانت كلها هناك ، في الملعب .

– هيا يا أحمد ! هيا يا حبيبي ! ...

وراح سعيد يهتف بدوره منادياً أحمد . فقد كانت سعادته اليوم رهناً بعدد الأهداف ، التي يسجلها "الأعمدة" في مرمى الخصم . وحين زعق إيرول أركان بيه : "هدف" ارتمى الخطيبان في أحضان بعضهما ...

وقبيل نهاية المباراة سجل هدف جديد ، وقد أعلن المعلق الرياضي عن ذلك بدون حماسة ... وقفز سعيد فرحاً ، لكن سيفيم تمتمت بأسى :

– اجلس ... لقد سجلوه في مرمانا ...

–في مرمانا ؟

وأراد أن يواسيها .

– أرجوك أن تدعني وشأني ، اتركني أثوب إلى رشدي ...

وبينما راح إيرول أركان بيه يثرثر عن أخطاء دفاع عغ ، ذهبت سيفيم إلى غرفتها ، فبسبب الدموع بدأ الكحل يقرص عينيها بشكل لا يطاق . وإذ بقي سعيد لوحده ، بدأ يفكر من جديد بالطرق، التي تقود إلى قلب خطيبته الفاتنة... آه لو أن بمقدوره أن يصبح لاعب كرة مشهوراً ! مثل أحمد الجدار ، أو مثل بيليه البرازيلي ، في أسوأ الأحوال ...

جلس سعيد غارقاً في أحلامه . ها هو ذا يندفع كما الزوبعة عبر الملعب ، يشوط الكرة ، وتتوالى التسديدات واحدة إثر أخرى ، وتطير الكرات لتحط في المرمى ... أهداف ... أهداف ... ويهدر الجمهور .

وفي ذروة هذا التحليق على أجنحة الخيال انفتح باب الغرفة ، ودخلت ميهجوري هانم بكل هدوء . وفي هذه اللحظة بالذات صرخ إيرول أركان بيه: "هدف" – فعاد سعيد إلى الواقع .

– من سجل ؟ نحن ؟ في مرمانا ؟ – ارتبك سعيد .

– يا إلهي هل يتحدث مع نفسه ؟ " – دهشت حماة المستقبل .

وهنا أعلن المعلق الرياضي ، أن "الأعمدة" سجلوا هدفاً آخر ، فوثب سعيد ، وعانق ميهجوري هانم ، الواقفة خلفه ، وهو يصرخ بصوت ثاقب :

– هدف ... هدف .

بالكاد استطاعت الأم التخلص من أحضان سعيد .

– انتظر ... ماذا يجري ؟

دخلت سيفيم على عجل ، فتراخت ساقا الخطيب المسكين :

– أرجو المعذرة يا هانم أفندي ، لقد اعتقدت انك سيفيم هانم .

كانت ميهجوري هانم سعيدة ! "عملنا عين العقل ، إذ تركناهما وحيدين... كل شيء يسير كما رتبنا ... الحمد لله " .

الخطوبة في خطر أو العريس يصفق الباب خلفه

كان الجميع في دار آل فيرفييرفيرك ، بدءاً من العــروس ، وانتهــاءاً بأصحابها الكرويين ، وحتى الضيوف ، يعتبرون أن من واجبهم أن يهزأوا من العريس . وكان سعيد يتحمل هذه التهكمات ، ويتظاهر أنه لا يلاحظ شـيئاً . وباختصار فقد كان شارداً برباطة جأش ومتيماً . وفي كل يوم يظهر في بيت العروس ومعه هدايا غالية لسيفيم وأهلها . لكن جلب الهدايا لم يساعد أبداً في تحسين مواقعه : فقد ظلت سيفيم تحتقر عريسها بشكل استعراضي ، ولم تكـن تكف عن السخرية منه . أما هو ، وكما يحدث غالباً ، فكان حبه لها يــزداد . إنه إحساس بالعبادة العمياء الصامتة . وكان لدى خروجه يقطع علــى نفـسه عهداً أن لا يعود إلى هنا بعد الآن ، إلا إذا ما دعته سيفيم . وفي اليوم التــالي يشتري الهدايا من جديد ، وينطلق خانعاً إلى بيت الخطيبة . كما يقع الأرنــب المنوّم مغناطيسياً بين فكي الأفعى ...

لكن فكرة عبقرية خطرت لــسعيد ذات مــرة : مــاذا لــو يــدعو آل فيرفييرفيرك إلى بيته ؟ ثم أسرع إلى عمته لتشاطره هذه الفكرة .

– حتى الآن يا عمتي لم ندع أهل العروس إلى عندنا . الله وحده يعرف بماذا يفكرون عنا ...

– إنك على حق يا ولدي – وافقت العمة – كان يجب أن ندعوهم من زمان ...

– الأفضل أن تقومي أنت بذلك يا عمتي ، فأنا أخاف أن لا أنجح في هذا .

أرسلت بيرين هانم دعوة رسمية إلى أقرباء المستقبل لحضور العــشاء في منزلها . حتى أنها همّت بدعوة جميع آل ريجيبصين ، لكن سعيداً عــارض

ذلك بكل حزم : فأعمامه وعماته الكثر لا يطيقون والدي سيفيم ، ومن يدري فقد يعيّرون والد العروس بأنه متوحش ، وغير متعلم ، ويصفون حماة المستقبل بالتاجرة الجاهلة ، أما سيفيم فستقول حتماً شيئاً ما ليس في مكانه . كلا الأفضل أن يجري العشاء في جو الأسرة الضيق .

في ذلك اليوم ، ومنذ الصباح ، كان سعيد يروح ويجيء من ركن إلى ركن ، لا يعرف بماذا يشغل نفسه . وكلما اقترب موعد قدوم الضيوف بدا له الانتظار أدهى وأمر . لكن الوقت يمر والضيوف لم يأتوا ، فاستولى اليأس على سعيد ، أما العمّة فقد راحت تمتم باستياء : "الله ، الله ، يا لقلة الاحترام..." .

لم يظهر آل فيرفييرفيرك إلا في الساعة التاسعة . ولا تسل عما أصاب سعيداً ، إذ اكتشف أن حمويه جاءا بدون ابنتهما . وحين أخذ الجميع أماكنهم في غرفة الاستقبال، سألت بيرين هانم بلهجة بدت وكأنها عابرة :

– ألن تأتي سيفيم هانم ؟

وردّت ميهجوري هانم دون أدنى ارتباك :

– لقد اعتقدنا أنها هنا . إذن لا شك أن بعض الأمور العاجلة قد أخرتها...

لم يجلسوا إلى المائدة ، بانتظار سيفيم .

تناولت ميهجوري هانم من حقيبتها صرّة ، وناولتها للعمة :

– هل يعجبك ؟

في الصرّة كان ثمّة كورسيه . وشحب وجه بيرين هانم من الغضب . "يا الله ! أي هديّة هذه ؟ يا للعار !" ورفعت رأسها بإباء ، وقد همّت برفضها. لكن ميهجوري هانم قالت دون بارقة حياء :

– لقد اشتريته لنفسي . فقد أصبح ما لدي رثاً .

وأدلى حسيب بيه بدلوه :

– لا شك أنك تسعرفين يا هانم أفندي المثل الشعبي الذي يقول : "دجاجة الجيران تبدو أوزة" . وهكذا فإن عقيلتي لا تشتري الكورسيه إلا في مخازن منافسيَّ ، على الرغم من أن الجميع يعرف أن شركة حسيب فيرفييرفيرك أفضل من يبيع الكورسه في اسطمبول ، إذا كنت تحتاجين لشيء يا هانم أفندي فلسوف أكون في غاية السعادة ...

تردد الجرس في غرفة المدخل . ها هي ذي سيفيم أخيراً . وللحال ملأ صوتها الجهوري وضحكها الحاد غرفة الاستقبال .

– أين تأخرت هكذا يا بنيتي ؟ – سألها حسيب بيه بلطافة .

– آمل أنكم لم تموتوا جوعاً بسببي – قالت سيفيم دون رسميات – في الطريق التقيت الشباب من عغ ، منذ ألف عام لم أرهم . فوقفنا وثرثرنا .

دعت العمّة بيرين هانم الجميع إلى غرفة السفرة . وبمناسبة قدوم الضيوف المحترمين كانت المائدة ذات ديكور احتفالي – غطاء ثمين يدوي الصنع ، ومناديل مطرزة بخيوط من الفضة ، وأدوات المائدة المتوارثة في العائلة من جيل إلى جيل ، والورود ، والشموع في شمعدانات فضية ...

وحين جلسوا إلى المائدة ، ألقت عليها سيفيم نظرة فاحصة ، ثم سألت:

– ماذا سنشرب ؟

ولم يرد عليها أحد ، وهنا وجهت كلامها إلى سعيد :

– إنني أسأل ماذا سنشرب ؟ لكأنك لا تسمع كلامي ...

هذا الكلام بصيغة المفرد ، الموجه لسعيد ، مزق أذن العمة . "ما هذه التربية" فكرت بيرين هانم – لم يسبق للنساء من نسب شفران زاده أن سمحن لأنفسهن بمخاطبة أزواجهن بصيغة المفرد ، حتى ولو كانوا معهم على انفراد...

وقبل أن ترد العمّة على العروس ، سبقها حسيب بيه :

– أقترح أن نشرب العرق ... فبعده لا تشعر بوجع كبير في الرأس ...

كان الأمر سيان بالنسبة لسعيد الصاحي . فقد كان يكتفي بوضع القدح على شفتيه ، لكن آل فيرفيبرفيرك أخذوا راحتهم . فقد راحوا يقرعون الأقداح، ويفرغونها الواحد تلو الآخر ...

–لست أطيق الغداء الرسمي . في أوربا يتبعون من زمان أ – لا – فورشيت – قالت سيفيم بعناد .

–وأنت ماذا يعجبك يا حسنائي ؟ – سألت بيرين هانم ، التي لم تفهم ما الذي لم يحظ بإعجاب العروس .

–أحب أن يكون كل شيء ببساطة : كل واحد يضع ما يعجبه في صحنه ، ويصب ما يريد – هذا شيء عصري . ولا يجلسون أحداً ...

– هذا ليس بسبب التقدم يا حسنائي – لاحظت بيرين هانم ساخرة – بل بسبب ضيق المكان . فمن المعروف أن البيوت الشاسعة ، التي لا تبنى اليوم... وغرفة استقبال الكفار – ليست أكبر من غرفة الشونة عندنا ... فلا تتسع للجلوس ، ولذا فهم يرتبون أمورهم حسب إمكانياتهم ...

–ربما البيوت ضيقة في أوربا ، لكن ما الجيد في زريبة كالتي عندكم؟ انفجرت سيفيم .

كادت بيرين هانم أفندي تخرج عن طورها بسبب الإهانة ، التي لحقت ببيت العائلة . ولحسن الحظ أن مدام أنجيلا تدخلت في الحديث في الوقت المناسب .

– لا شك أنكم ستشيدون بيتكم على أحدث طلاز ؟

وبكل ارتياح انتقل الجميع إلى موضوع آخر . وبدؤوا الحديث عن بيت الزوجية الجديد .

حين ذهب الخطيب في وداع الضيوف ، وبقيت بيرين هانم والخادمة العجوز وحدهما في البيت ، راحتا تتأوهان طويلاً : مسكين سعيد ! ماذا سيحل به ؟ لا شك أن الشيطان جمعه مع هذه الفتاة غير المهذبة والمتعجرفة ، والحامل بالإضافة إلى هذا وذاك ...

في اليوم التالي توجه سعيد إلى خطيبته حاملاً طاقة من الأزهار القرمزية . وقد وجد لدى آل فيرفيبرفيرك حشداً هائلاً من الناس ، الذين لا يعرفهم. وكان كل منهم يتصرف وكأنه في بيته : بعضهم يكرع الويسكي ، والبعض الآخر يحشو فمه بكل ما لذ وطاب ، وبعض ثالث يتمدد على الأرائك، ويطلق لشخيره العنان . لا شك أن الضيوف كانوا يتصرفون هنا بعيداً عن الرسميات. وحده سعيد ، الغارق في أفكاره عن محبوبته ، لم ينتبه لكل ما يجري من حوله . وحين قدم الطاقة لعروسته كان مظهره ، كما هي العادة ، مرتبكاً وبائساً .

–ضعها بنفسك في إحدى المزهريات – قالت سيفيم ، حتى دون أن تلقي نظرة على الأزهار .

– انطلق سعيد يبحث عن مزهرية ، وهو يتعثر في كل زاوية .

–– حسناً . لا داعي – أوقفته سيفيم – لا تبحث ، وإلا فإنك سوف تسقط شيئاً ما من كل بد ، أو تكسره . ضعها على النافذة ، وفيما بعد تضعها أمي ...

وبكل سرور نفذ العريس ، وهو الذي لم يفسده الدلال ، أوامر سيدة فؤاده ، فقد صدف أن العروس لم تلحظ قدومه بتاتاً ، ولم تمن عليه بالحديث. طاف سعيد الغرف ، وعثر لنفسه على زاوية بعيدة عن الأضواء ، خلف البوفيه ، واسترخى في الكنبة ... ولا تسل عن عظيم دهشته حين ظهرت سيفيم على حين غرة ، وإذ عثرت عليه جلست في كنبة مقابلة .

– ماذا لديك من أخبار ؟ – سألت سيفيم .

كان سعيد يعرف جيداً أنه يكفي أن يروي لها قصة مضحكة عن حاله، حتى تستعيد مرحها . فكم ضحكت حين راح يصف لها زيارته للملعب ...

- كان بودي أن أقول ... ولاذ بالصمت .
- ماذا ؟
- هكذا ... لكنني أخجل ... إنه سر .

- علي أنا ؟

- كلا . ليست لدي أسرار عليك ... لكن الحقيقة ...

- ماذا هناك ؟ - بدأت سيفيم تغضب .

-بودي أن أكسب فؤادك ، ومن أجل هذا أنا مستعد للقيام بأي شيء، حتى أنني، إذا ما دعت الضرورة، سأصبح لاعب كرة ... وترددت في صوت العريس نغمة التصميم .

وجحظت عينا سيفيم من فرط الدهشة :

-ماذا ! ؟ لاعب كرة ؟ لكنك حتى عهد قريب سألتني عن النادي الذي يستحق التشجيع ...

-نعم سوف أصبح لاعب كرة – ولأول مرة ظهرت في صوته ثقة لا عهد له بها – أقصد أنني أريد ذلك من كل قلبي – عبر سعيد عن حلمه المنشود .

-أوي لكم أضحكتني ... أرجوك أن تتوقف ، وإلا انفجرت ...

لقد حقق سعيد ما كان يسعى إليه – أضحك خطيبته .

قرع جرس الباب ، ودخل أحمد الجدار ، فوثبت سيفيم ، واندفعت للقائه، ثم تعلقت على عنقه .

قبل أحمد تعويذة فريقه قبلة رنانة .

-ماذا بك ؟ – سألها – هل كنت تبكين ؟

-كلا يا روحي ، إنه بسبب الضحك ...

وجلسا متجاورين على الأريكة ، غير بعيد من البوفيه ، وراحا يتهامسان، وهما متلاصقان ، دون أن يوليا أي اهتمام لسعيد ، الذي سمع حديثهما رغماً عنه . "إذا ما أصبحت لاعب كرة فلسوف تندفع دائماً لتقبيلي ، مثل أحمد" – قال سعيد في سره .

–آخ يا عزيزي – بدأت سيفيم تشكو لأحمد – إن الزفاف يتأجل ويتأجل ، بينما علي – كما تعرف – أن أستعجل .

احمرّ وجه سعيد من فرط السرور إذن فهي تحبه ، طالما أنها تتحسر أن الزفاف يتأجل .

– ماذا حدث ؟ لماذا لا تأتين إلى النادي ؟

– كل هذا بسبب أبي . أنت تعرف أن الحرية هي أثمن شيء عندي، لكن والدي لا يكف يؤكد : "لن تكون لك حرية قبل أن تتزوجي!" حتى أنني لا أستطيع حضور المباراة ، التي تشارك فيها . وأنا لا أذهب إلى النادي ... ربما هكذا أفضل ... لكن بعد الزفاف سوف أحصل على حريتي ، وحينذاك لن نفترق أبداً ... لا تعرف كم أنا بشوق إليك ...

ومن جديد عادا يتبادلان القبل كأنهما أخ وأخت ، أما سعيد فكان يصغي، وهو لا يكف يفكر : يجب أن أصبح لاعب كرة – هذا هو الحل الوحيد .

عصر أحمد يديها في كفيه .

– ولماذا تؤجلون الزفاف ؟ حدديه غداً ، فنحن ننتظر ذلك بفارغ الصبر...

– لا أستطيع يا عزيزي . فوالدتي لا تكف : "إنني أعطيهم ابنتي الرائعة كما الزهرة ، ولا أستطيع السماح أن تعيش في زريبة عتيقة ، وإن كانوا يسمونها قصراً ... " ، إن والدتي تصر على أن يشتري بيتاً جديداً .

– طبعاً فليشتر – قال أحمد – إن لديه الكثير من المال ... والبيت يجب أن يكون ضخماً ... لكي يكون ثمة مكان نتحرك فيه ، حين سنأتي لزيارتك بكامل الفريق .

– لقد أستأجر مؤقتاً شقة رائعة ... حتى أن بوسعك أن تبيت هناك...

– طيب فلماذا هذا التسويف بالنسبة للعرس ؟

– أنا موافقة ، لكن والدتي تطلع عليه كل يوم بشيء جديد : فغرفة النوم يجب أن تؤثث حسب طراز التكعيبية الألكوفية ، وغرفة السفرة– مودرن . إن الأثاث لديهم عريق ، فأسلافه كانوا إما باشاوات أو باديشاهات ، أو مجرد نصابين ومحتالين . كل ما في القصر سقط متاع، عفا عليه الزمان . إن مامتي تؤكد : "لا أستطيع السماح أن تعيش ابنتي بين المعروضات المتحفية" .

– فليشتر الحقير هذه المكعبات ! قال أحمد ، وأخذ يهز ساقه اليسرى.

– لقد اشترى ذلك يا روحي ، لقد اشترى كل شيء .

– اسمعي سوف تجننون الرجل . الشقة استأجرها ، والأثاث اشتراه، فما المشكلة ؟

– الماما ... "فليعرف صهر المستقبل قيمة ابنتي !" .

– كلام جواهر ، فكلما رفعتم الثمن بدت السلعة أغلى ... اسمعي يا صغيرتي ، لكن ماذا لو أن الشاب بدأ يضايقنا بعد الزفاف ؟ ...

– اعذرني يا أفندي – لم يتمالك سعيد – أنني أقطع حديثكما ، لكن بودي أن أقول إن بيتنا سيكون مفتوحاً لكم دائماً وأبداً ، أهلاً وسهلاً في أي وقت ... تفضل ... على الرحب والسعة دائماً ...

جاءت كلمات سعيد بالنسبة لسيفيم ، التي نسيت وجوده ، كما هزيم الرعد في وضح النهار :

– آ – آ ... أنت هنا ... لقد سمعت كل شيء !

– إنني أجلس هنا طيلة الوقت يا سيفيم هانم ...

– إذن فأنت تتلصص علينا ؟ يا عيب الشوم ...

– أرجو عفوكما ، لكنني لم أعرف أن حديثكما سري – تمتم سعيد – وإلا لكنت جلست في مكان آخر ... اعذراني .

لكن اعتذارات الخطيب جاءت لتصب الزيت في النار ، وزعقت سيفيم:

– لا اريد ... لا اريد ... أبدا ... لن أتزوجه ، وانتزعت الخاتم من يدها. ثم قذفته في وجه خطيبها – هاك خذه .

وقع الخاتم على نظارة سعيد . فارتدّ وتدحرج على الأرض ...

ليست هذه المرة الأولى ، التي ترمي فيها سيفيم الخاتم في وجه سعيد . فقد سبق أن صالحوهما مرتين – في البداية والدا العروس ، ومن ثم عمة العريس . وفي كلتا المرتين اضطر سعيد لأن يكون أكثر سخاء ، في المرة الأولى اشترى لها ساعة بثلاثة آلاف ليرة ، وفي الثانية قلادة بعشرة آلاف ...

– لكنني ... يا سيفيم هانم ... لكنني لم أقل شيئاً ... أرجوك يا أحمد بيه ... هل قلت ما من شأنه أن يزعلها ؟

وفي هذا الوقت راحت سيفيم تزعق :

– لا أريد . أبداً ... فلينقلع من هنا ... بحيث لا تقع عليه عيناي ...

هرعت ميهجوري هانم على صيحات ابنتها الوحيدة الهستيرية .

– ماذا جرى ؟

– لن يكون هناك زفاف ! لست بحاجة لزوج كهذا ...

– لكنني لم أكن أريد استراق السمع – استمر سعيد يتمتم .

تأبطت ميهجوري هانم ذراع سعيد ، وخرجت به من الغرفة ، وهي تراضيه :

– أنت ترى أن سيفيم عصبية جداً ... ما الذي جعلها تغضب من جديد، لست أدري ... الأفضل لها أن تبقى لوحدها ...

– حسناً يا هانم أفندي – رد سعيد بإذعان .

وفجأة تدخل أحمد :

– قف أيها الحقير . لقد أهنت سيفيم .

تجمد سعيد في مكانه .

–لكن ما الذي فعلته يا أفندي ؟

–ألم أقل لك – عادت سيفيم إلى صراخها ، ألم أحذرك ألاّ تتدخل في شؤوني ؟ وأن لا تسترق السمع ! وأن لا تتجسس ...

لم يسبق لسعيد أن استرق السمع في حياته ، وليس لديه عادة كهـذه ، لكن خوفه من الصراخ والزعيق جعله يقول فجأة ، وكأنه يعترف بذنبه :

–نعم لقد حذرتينني يا سيفيم هانم ...

–كم مرة رميت الخاتم في وجهك ؟

–مرتين ...

–وماذا قلت لك في المرة الأخيرة ؟ – سألت سيفيم .

–ماذا قلت ؟ سألها سعيد .

– هل يعجبك هذا ؟ ويسأل بعد هذا كله ... إذن فأنت لا تذكر ما أقول لك ؟ !

–ماذا تقولين ، وهل هذا معقول !

الأفضل أن ينصرف ، وأن تنشق الأرض وتبتلعه ، المهم أن لا يسمع هذا الزعيق وكلمات الإهانة هذه . لكن سعيداً ظل واقفاً في مكانه لا يـريم ، وعلى الرغم من أن الوقار كان زائداً هنا ، فإنه لم يستطع تمالك نفسه ، وراح ينقل نظره – بأمل – من أحمد إلى ميهجوري هانم .

– اسمحي لي أن أوضح لك – قال سعيد مستنجداً بحماته القادمة – أظن أن بوسعي أن أعتبر نفسي في هذا البيت غير غريب إلى حد ما ، ولذا فإن حديث سيفيم هانم مع أحمد بيه بحضوري بدا لي طبيعياً جداً . أليس كذلك يا هانم أفندي ؟ ولو أنني كنت أعرف أن لديهما بعض الأسرار فهل يعقل أنني كنت سأبقى جالساً في المكان نفسه ، حيث كنت جالساً للتو، أتحدث مع سيفيم هانم .

حتى أحمد خرج عن طوره .

-كفاية – صرخ بسيفيم – لقد بالغت ...

ولاذت سيفيم بالصمت فوراً .

-شكراً يا أفندي ، فأنا في الحقيقة لم أكن أريد أبداً ... قال سعيد مغتبطاً .

-إنه لا يفهم إلا مثل هذه المعاملة – همست العروس لأحمد – كلما تماديت في صراخك عليه ، ازدادت قيمتك في نظره .

-وأنت مخطئ بدورك يا سعيد ، قال أحمد بلهجة إرشادية – ألا ترى كم هي عصبية . وهكذا فلم يكن ثمة داع لاستراق السمع على حديثها . وتعتبر نفسك بعد هذا من الأشراف ...

بعد هذا احتضن سعيداً من كتفيه ، وسحبه جانباً – لا بد أنك جننت يا أخي . فهل يجوز التصرف مع الحامل على هذا النحو : هيا اذهب ، واطلب منها الصفح ... ألا تذكر اتفاقنا ؟ لقد وعدتني أن لا تتخلى عن الفتاة ، وهي حامل .

احمرّ وجه سعيد .

-– طيب ، طيب ، والآن هيا تصالحا – قال أقرب أقرباء الخطيبة ، وهو يدفع العريس باتجاه العروس، ألا ترين يا سيفيم مدى حيائه . إنه يطلب منك الصفح .

كان سعيد مستعداً للتنازل مراضاة لأحمد ، لكن سيفيم لم ينثن لها عود:

– لا أريد ... فلينقلع إلى قصره ... لا أريد أن أراه بعد الآن ...

راح العريس الخائف يتقهقر نحو الباب ، وهو يهمس : "حسناً ، إنني منصرف ... "انفتح الباب بسهولة ، وإذ ابتلع سعيداً ، اصطفق بصوت كهزيم الرعد ، حتى أن الزجاج في البيت راح يتراقص .

راح سعيد ينظر ببلاهة إلى الباب المغلق . "يجب أن أعود ، وأوضح أنه لا ذنب لي . كل ذلك بسبب تيار الهواء اللعين" – دار في رأس سعيد ،

لكن يده لم تطاوعه ، ولم يكن قادراً على إرغام نفسه على قــرع الجــرس . وبشكل آلي أدار ظهره ، وراح يهبط درجات السلم على مهل .

كيف وصل سعيد البيت ، كيف بلغ السرير وارتمى عليه ، هذا مــا لا يتذكره ... رقد سعيد ، وراح يبكي . فقد طفح كيل إحساسه بالمرارة والإهانة. وانسلت إلى قلبه رغبة لا عهد له بها أن ينتقم ... لكن ماذا بوسعه أن يفعــل وهو العاجز ، النحيل ، البائس ، وغير القادر على شيء ... وحينذاك ، وكما طوق النجاة ، جاءت لنجدته الأحلام الكروية المجنونة ... "آه لو يصبح فجــأة لاعب كرة مشهوراً . إذن لأراهم حينذاك .

ورأى سعيد نفسه في ملعب الكرة : فها هو يتجاوز الخصوم ، واحــداً وآخر ، فثالثاً . وها هو يرسل الكرة بضربة جبارة إلى مرمى الخصم ، فيندفع الفريق كله يوسعه تقبيلاً ، ويضج الملعب "سا – عيد ! هوب – سعيد" .

غرق سعيد في أحلامه لدرجة أنه لم يسمع جرس التلفون إلا بعــد أن رن أكثر من مرة . إنه ديوندار مهذار بيه يريد أن يتفق مع سعيد بشأن اللقاء .

– أجل ، أجل ، إنني بانتظارك يا أفندي ، إنه لشرف لي ... أرجو أن تأتي في الوقت الذي يناسبك ...

عاد سعيد إلى الغرفة ، ولكي يسترد هدوءه ، انكــب علــى مــسائله الرياضية ...

بعد أن اصطفق الباب بمثل هذا الــدوي فــي دار فيرفييرفيــرك وراء العريس ، وصل استياء العروس وأمها ذروته ، وبدا وكأنه لن ينتهي . وأمــا أحمد فقد راح يدخن ، وينظر إلى سيفيم بغضب ، ثم سألها بلهجة لاذعة :

– والآن هل أنت مبسوطة ؟

جاءت كلماته ، فصبت الزيت في النار .

– وماذا فعلت ؟ – كشرت سيفيم ، وفكرت في سرها : "إن الماما غالباً ما تقول لأبي : "وغد ، انقلع من هنا ، لم أعد أستطيع البقاء معك تحت سقف واحد ... " طيب وماذا في ذلك ؟ إن الأب يصبح نتيجة هذا الصراخ مثل الحرير ، فيركع أمامها متوسلاً : "اعذريني يا زويجتي الغالية ... لا

تطرديني... " بسيطة لسوف يعود من كل بد ، فأنا أعرف – أضافت سيفيم بثقة .

–لقد تماديت يا ابنتي ! يجب أن يعرف المرء متى يتكلم ، ومتى لا يجوز ... أوخ من هؤلاء الشباب ... – قالت ميهجوري هانم ، وهي تهم بالخروج .

– ها هي قد شحنت لأسبوع كامل – دمدمت سيفيم في إثرها .

كان أحمد مستاء من سعيد ، ويرثي له في الوقت نفسه .

– هل تعرفين يا سيفيم أنك تماديت جداً – قال أحمد بصرامة .

–ومن أين كنت أعرف أن هذا المجنون سيصفق الباب ؟ ... سوف يأتي ، ولن يختفي ... من المفيد تعليم أمثاله باستمرار . وهل هذه هي المرة الأولى التي أطرده ؟ سوف يأتي ، ويركع عند قدمي ... إن سعيداً وبابا من عجينة واحدة – كلاهما عبيطان – مغفلان ...

– إيه لو أنك وقعت بين يدي آخر – قال أحمد – إذن لكان قد علمك، ولما سمح لك بأن تتنفسي ... ماذا تخافين ؟ الشاب مثل مادة الشمع ، فاجبليه بالشكل الذي يحلو لك ... إنه زوج رائع ... لكنك لا تريدين... ماذا تريدين أيضاً ؟،أي رجل عاقل يمكن أن يعد خطيبته بالحرية قبل الزواج ؟

كانت سيفيم تدرك أن أحمد على حق ، لكن هل يعقل أن تتعذب العمــر كله مع موديل مضجر كهذا ؟ ومع ذلك فهي لا تريد أن تفقده ...

سعيد يلتقي صديقه القديم، الطبيب النفساني،رفيق العائد من أمريكا

في الليل رأى سعيد حلماً غريباً ، وكأنه أصبح أشهر لاعب كرة . وحين وجد نفسه عاجزاً عن التخلي عن هذا الحلم اللذيذ ، غادر البيت عند الصباح ، وراح يضرب في المدينة على غير هدى ، وهو لا يكف يحلم في اليقظة . فمن جديد رأى نفسه ، وهو النجم الكروي الجديد ، يسجل الأهداف ، وكيف ارتمت سيفيم بعد المباراة على عنقه ، وراحت تقبله ، وكيف يلعب لصالح منتخب البلاد الوطني ضد أشهر الفرق العالمية . وفي كل مرة ينتزع الفوز لفريقه ، وكيف راحت شهرته تكسف شهرة أحمد الجدار وعثمان الفلفل، وكيف أصبح – أخيراً – كابيتان المنتخب ، وبدأ يلعب في الفرق الأوربية . ولم تعد صوره، التي لا حصر لها ، تفارق صفحات الجرائد والمجلات .

راح سعيد يحلق على أجنحة الخيال أبعد فأبعد ، وراح يجوس الشوارع، دون أن ينتبه إلى أنه يحدث نفسه ، ويجادل بحماسة ، ويلوح بيديه، ويشوط بقدميه الكرة غير المرئية ، ويضحك بسعادة نافخاً صدره نفخة الظفر، وكان المارة يبتعدون عنه ، كما يتجنب الناس المخبول ، وكان الأولاد يشيرون إليه، ويسخرون منه ، أما كبار السن فكانوا يلاحقونه بنظرهم ، وهم يشفقون عليه ، ويرثون لحاله . بينما سعيد يطوف الشوارع والأزقة ، ويعبر الساحات والحدائق الخاوية ، إلى أن وجد نفسه أخيراً في شارع عريض مزدحم .

كانت ساعة الذروة ، والشوارع تغص بالمارة والسيارات . وعلى تقاطع الطريق توقفت سيارة زرقاء ، وإذ رأى الشاب ، الجالس خلف المقود ، سعيداً ، التفت إلى زوجته ، وقال :

– انظري إلى ذلك الطويل النحيل – إنه رفيق الدراسة .

- ايهم ؟

-ذو الشعر الأبيض ... ذاك الذي يلوح بيديه ، لكأنه يتحدث مع حاله ، هل جن يا ترى ؟ سعيد ، سعيد بيه ؟ - صاح هذا ، وقد أخرج رأسه من السيارة .

لكن سعيداً لم يسمع شيئاً - على الأرجح أن رشقة مدفعية غير قادرة على أن تعيده إلى الواقع ، ففي هذه اللحظة بالذات كان قد قفز متخلصاً من المدافع ، وخدع الحارس ، وعلى هدير الجمهور ، وصيحات الإعجاب وضع الكرة داخل المرمى ، ومن ثم غرز شفتيه بشفتي سيفيم - هانم ...

كان اسم صاحب السيارة الزرقاء هو رفيق . إنه طبيب نفساني ، عاد من أمريكا منذ عهد قريب ، بعد تدريبات ناجحة . كان سعيد صديقه القديم ، فقد درسا في ثانوية واحدة ، وحين انتسب سعيد إلى الصف الأول ، كان رفيق قد انتقل إلى الصف الأخير .

حزن رفيق لرؤية صديقه في مثل هذه الحالة المفجعة . وقد حدث زوجته عن آل ريجيصين ، وكيف كان يتردد عليهم ليعطي دروساً خصوصية لسعيد ، الذي كان مقصراً في كل المواد ، باستثناء الرياضيات ، وعن العمة بيرين - هانم ، التي كانت تعامل سعيداً كما لو أنه ابنها الحميم . لم يكن أهل رفيق بالأغنياء ، فكان آل ريجيصين يسخون عليه بالهدايا ، وقد ساعدوه حين انتسابه إلى المعهد . استمرت الصداقة بين سعيد ورفيق طويلاً ، إلى أن جاءت الخدمة العسكرية ، ومن ثم التدريبات في أمريكا ، ففرقت بينهما .

أحس رفيق بالذنب تجاه سعيد ، وتجاه جميع آل ريجيصين . فهو ، بعد العودة من أمريكا ، لم يكلف نفسه عناء زيارة هذه الأسرة الكريمة ، ولذا فما إن وصل البيت ، حتى اتصل بآل ريجيصين هاتفياً .

كانت مدام أنجيلا هي التي رفعت السماعة . ذكر رفيق اسمه ، لكن مرت فترة طويلة قبل أن تستطيع المدبرة العجوز التعرف عليه . وحين تذكرت رفيقاً أخيراً ، تملكتها الفرحة ، وانطلقت تنادي صاحبة البيت .

- مرحباً يا بيرين هانم أفندي . إن بي رغبة عارمة لزيارتكم . وإذا ما سمحت فإنني على استعداد للقدوم ، ولو الآن .

لم يقل رفيق أنه رأى سعيداً في الشارع .

لم يكد رفيق يحصل على دعوة رقيقة بالتفضل في أي وقت ، حتى قرر عدم تأجيل الزيارة، وانطلق برفقة زوجته إلى آل ريجيصين . ولا تسل عن سرور بيرين هانم برؤية صديق سعيدها ، وازدادت سروراً ، إذ عرفت أن رفيقاً قد تخرّج من معهد الطب ، وأصبح طبيباً نفسياً ، وتلقى تدريباته في أمريكا .

كانت ثقتها كبيرة برفيق ، فقد كان أبداً صديق سعيد الصدوق والمدافع عنه . وبالطبع فلسوف يقف الآن أيضا إلى جانبه ، فراحت تحدثه عن كل المصائب ، التي رزئ بها ابن أخيها الحبيب ، وعن حبه ، والخطوبة والعروس ، التي لحقت أن تصبح حاملاً .

كما أخبرته أن سعيداً فقد في الآونة الأخيرة عقله . ولم يعد يدرك مغزى ما يقول ويفعل . وحدثته عن عزمه على أن يصبح لاعب كرة مشهوراً.

إنها – عمته – تدرك جيداً أن كل الذنب في ذلك يقع على حمل خطيبته، وتعلقها بكرة القدم ، وبلاعبي كرة القدم بخاصة ، أما سعيد فيريد أن ينال إعجاب زوجة المستقبل –...

–وأين سعيد الآن ؟ – سأل الدكتور رفيق .

–اختفى منذ الصباح – ردت المرأة العجوز – حتى أننا لا نعرف أين نبحث عنه ... آه يا ولدي ، هلا تحدثت معه ، وأوليته اهتمامك . إنه يسمع كلامك ... فأنت الآن عالم كبير .

وقد وعدها رفيق بذلك ، وهم بالانصراف ، لكن بيرين – هانم دعته إلى البقاء وتناول الغداء .

ربما يعود سعيد – أضافت .

لم يكد الضيوف يجلسون إلى المائدة حتى تردد وقع الخطوات فعلاً ، ودخل سعيد .

ما إن رأى سعيد رفيقاً في البيت ، حتى استولت عليه الدهشة ، وتملكه سرور بالغ .

بعد الغداء انصرف الرجلان إلى المكتبة ، وكان سعيد ينتظر الانفـراد بصديقه القديم بفارغ الصبر ، لكي يكشف له عن خبايا فؤاده . راح الطبيب يصغي إليه باهتمام ، وهو يزداد قناعة أن أمامه شخصاً مريضاً جداً . وحين راح سعيد يبرهن أنه سوف يصبح لاعب كرة من كل بد ، لم يحاول رفيق أن يثنيه عن عزمه ، بل راح يهز برأسه موافقاً .

–طيب ، إن هذا ليس بالشيء الصعب ... صحيح أنك بحاجة في البداية إلى التدريب . وحين سيقوى عودك تمارس الرياضة ، وبعد ذلك يأتي دور كرة القدم ...

قفز سعيد من فرط الفرح :

– هل تخدعني ؟

–وما الداعي لذلك ... تعال إلي ، ولو غداً ...

كلا فهو مشغول غداً مع ديوندار مهذار بيه وإيرول أركان بيه ، أما بعد غد فسوف يأتي من كل بد .

– إذن فأنت – يا رفيق – أصبحت طبيباً نفسياً ؟ وتستطيع أن تساعدني؟...

وأقسم سعيد أنه سوف يتقيد بكل نصائح صديقه .

لماذا أصبح أحمد "جداراً، أو كيف تصنع النجوم ؟

... الحكم يعلن ضربة ركنية . تسمر سعيد ريجبيصين المهاجم الأيمن ، في مكانه بانتظار الكرة ، ثم سدد إلى المرمى ، الحارس يفشل في الإمساك بالكرة ، ومن وسط حشد اللاعبين يقفز سعيد ، وبضربة رأسية يضع الكرة في الزاوية اليمنى – هدف ... وترتمي سيفيم على عنقه ...

نظرت العمة بيرين هانم بخوف إلى سعيد ، الذي وثب على الكرسي ، وضرب الهواء برأسه بيأس . "الله ، الله ما هذا الذي يجري له ؟!

فكرت العمة ، لكنها لم تقل شيئاً بصوت عال .

واستمر تناول الفطور ، وفي كل دقيقة كان سعيد يقفز ، ويلوح بيديه ، ويطوح برأسه ، ويلبط بقدميه .

نهضت بيرين هانم عن المائدة ، وتظاهرت أنها ذاهبة إلى المطبخ ، لكنها توقفت في الباب ، وظلت تراقب ابن أخيها طويلاً "هل يعقل أن سعيداً قد جن ؟ الحمد لله أنه سيذهب اليوم إلى رفيق . احفظه يا إلهي ، وارحمه ... " .

... الحكم يركز الكرة . ضربة جزاء . خمسة وعشرون متراً بين الكرة والمرمى . وران الصمت المطبق على المتفرجين . ويجري سعيد من بعيد . وتطير الكرة ، كأنها كلة مدفع ، لتحط في المرمى – حتى أن حارس المرمى لم يلحق أن يتحرك . وضج الملعب من شدة الإعجاب ، وأجهشت سيفيم بالبكاء ...

عادت العمة إلى المائدة ، وجلست في مكانها ، وبدأت تصب الشاي ، وعلى حين غرة تمايلت الطاولة ، وقرقعت الصحون ، وتساقطت الكؤوس على الأرض .

– غو – و – و – ل – صاح سعيد ، بعد أن لبط رجل الطاولة بكل ما أوتي من قوة .

– لا شيء . – رد هذا ، وهو ينظر إلى عمته بدهشة – كل ما في الأمر أنني اصطدمت بعمود المرمى ...

بعد أن انتهى الغداء ، وذهب سعيد إلى مكتبه ، انطلقت بيرين هانم تتصل برفيق .

– لقد جن سعيد تماماً يا ولدي ... فهو يلوح بيديه وقدميه في الهواء، للتو رفس الطاولة بقدمه – على هذا النحو يمكن أن يصبح أعرج... يا إلهي ماذا سيجري له في المستقبل ؟ افعل يا ولدي ما تريد ، المهم أن تنقذه . لم يعد سعيد يحدثنا ، ولا يكف يصرخ : "غو – و – و – ل" . لا شك أن الشيطان قد سيطر عليه ...

حاول رفيق طمأنة بيرين هانم أفندي ، ووعدها بأنه سوف يساعد سعيداً حال قدومه إليه .

جلبوا الغداء لسعيد إلى المكتب . وحين طرقت مدام أنجيلا الباب ، ترددت من هناك صيحة "غو – و – ل" . وإذ ظنت المدبرة العجوز أن ذلك يعني الإذن بالدخول ، فتحت الباب فرأت ، ويا لهول ما رأت : رأت سعيداً ، وهو الذي لا يخلع ثيابه الدافئة حتى في عز الصيف ، وليس عليه إلا سراوله، يشوط الوسادة المخملية . كما رأت – وسادتين أخريين في وضع يرثى له على الأرض ، وفي الجو يتطاير الزغب ، بينما ندف الصوف مبعثرة هنا وهناك . أما منظر سعيد فكان يستدر الشفقة ، حتى أن مدام أنجيلا وضعت الصينية على الطاولة فوراً ، دون أن تنبس ببنت شفة ، وخرجت ، ثم أغلقت الباب وراءها بحذر .

سارعت المرأة العجوز فأخبرت السيدة بكل شيء .

– آخ يا هانم أفندي ، لو أنك علفت (عرفت) لو أنك لأيت (رأيت) ماذا جلى (جرى) لسعيدنا ...

لا شك أن مدام أنجيلا بالغت إلى حد ما في وصف الوضع الحقيقـي ، لكن أي شيء لم يعد يثير دهشة العمة .

أرسلت مدام أنجيلا إلى المطبخ ، أما هي فصعدت إلى ابن أخيها ، فهي لم تكن تريد أن يعرف الآخرون أنها تتلصص عليه .

ما إن ألصقت عينيها بثقب الباب ، حتى رأت سعيداً يرقد على الأريكة، ويتنفس بصعوبة ، وقد غرز رأسه في الوسادة ، أما ساقاه فكانتـا تتحركـان بتشنج . وبين الفينة والأخرى يطلق ضحكة فرح ، ويزعق "غـو – و – و – ل" .

استولى اليأس على بيرين هانم أفندي : فهي لا تستطيع أن تلجأ إلى أي كان ، فتحدثه بما يجري ، لأن التقاليد العريقة لأعيـان اسـطمبول لا تـسمح بوضع المصائب العائلية في متناول من هب ودب ...

حين خرج سعيد من مكتبه بعد الغداء كان منظره طبيعياً جداً .

– أين جرائد اليوم يا عمتي ؟

جلبت له مدام أنجيلا البريد ، وسألته العمة باهتمام ، عما إذا كان قـد أكل .

– طبعاً – رد سعيد .

أخذ البريد ، وجلس في غرفة الاستقبال ، وراح يتـصفح الجرائـد ، مبتدئاً، كما أغلب المثقفين، بالصفحة الأخيرة ، المكرسة بكاملها للرياضة . وإذ عثر على اسم إيرول أركان بيه ، صاح بسرور ، كمن يلتقي ابن الوطن فـي بلاد الغربة . كان عنوان مقالة إيرول : "هل بمقدور عمود الغبار أن يـصبح بطل أوربا؟" .

يرى المعلق الرياضي أن عغ يستطيع الوصول إلـى البطولـة إذا ... المهم هذه "الإذات" ، التي لم يكن عددها بالقليل .

"كل يوم يزرع فينا الآمال الجديدة – كتب إيرول – إن "عمود الغبـار" مؤهل لأن يصبح بطل أوربا . صحيح أن لاعبينا تلقنوا درساً مراً ، إذ خسروا

صفر / أربعة لصالح الفريق الألماني ، المصنف كواحد من المرشحين الرئيسيين للحصول على اللقب الأوربي . وعلى الرغم من أن الحظ لم يحالف عغ عند سحب القرعة ، فلا يزال لدى فريقنا فرص جدية في النجاح في المباراة الأوربية . إن مباراة الأمس مع فريق نادي "بابس" (بابنيكسبورتس)، الذي تمكن من دخول المجموعة الثالثة ، والذي يستعد بدوره للبطولة مع الفرق الأخرى ، قد انتهت ، كما هو معروف ، بالتعادل . وهذا التعادل بالذات هو الذي يؤكد أن عغ لا يزال مرشحاً جدياً للحصول على لقب البطولة . فإذا ما خسر الألمان – تابع حساباته أركان بيه – الذين هزموا عغ بالكاد أربعة / صفر ، أمام الهنغاريين، وفاز فريقنا عغ بفارق كبير على فريق موناكو ، وفاز هذا بدوره على الإيطاليين ، وإذا ما فاز الألبان على الإيطاليين أيضاً . وفاز اليونانيون على الإنكليز والفرنسيين فحينذاك يتم توازن القوى ، اللازم لحصول "عمود الغبار" على حق لقاء الألمان من جديد . وإذا ما فاز عغنا على الألمان، في المباراة الثانية ، ومن ثم في الثالثة ، في ملعب محايد ، فحينذاك سوف يصل ، دون شك ، إلى ربع النهائي ، وإذا ما استطاع الفوز على الفرق الأخرى ، التي ستصل إلى ربع النهائي (كلنا يعرف أن الكرة دائرية ، وكل شيء وارد) ، فإن عغنا سيصل إلى نصف النهائي . ولكي نضمن اللعب في ملعبنا ، ما علينا إلا أن نفوز على أبطال اليوم الإنكليز ، وحينذاك ، وبعون الله، وبدعم المشجعين والسفرجل وعصير الفواكه ، والى حد ما بمساعدة أحمد الجدار ، سيفوز عغنا ، ويصل إلى نهائي البطولة . وإذا ما وصل لاعبونا إلى لقاء النهائي في لياقة بدنية – معنوية جيدة ، وإذا لم تحصل مفاجآت في الليلة السابقة للمباراة ، وإذا ما لعب الخصم في المباراة بشكل سيء ، ولعبنا نحن جيداً ، وإذا لعبنا والشمس ليست في مواجهتنا ، والريح من خلفنا ، وإذا كان الحكم غير محاب لخصومنا ، وإذا ما تلقف حارسنا الكرات ، وفشل حارس الخصم في الإمساك بها ، وإذا ما شاط لاعبونا الكرة بتسديدات صائبة ، وإذا ما حطت الكرة في شباك الخصم ، فحينذاك يمكن بالذات أن نقول بثقة إن ذلك اليوم ، الذي سيصبح فيه عغنا بطل أوربا ، ليس ببعيد ... " .

يا لها من مقالة ! كان سعيد يقرأ ، وهو في غاية الدهشة من سعة اطلاع الكاتب وقدرته على التكهن بالمستقبل وإعطاء تقويم شامل لنتائج الأحداث الممكنة . وفي الوقت نفسه ، يبقى لدى القارئ هاجس غير واضح

بأن كل شيء لم يقل ، وأن الكاتب أخفى عنه شيئاً . أو حتى ضلله – ولذا فإن كل قارئ يفهم المكتوب بالشكل الذي يريد .

قرأ سعيد المقالة ما يقرب من خمس مرات ، لكنه لم يستطع أن يفهم مرامي أركان بيه ..صحيح أن سعيداً لم يكن يفقه شيئاً في الرياضة ، لكن هيبة إيرول أركان بيه ازدادت في عينيه أكثر ، إذ اكتشف أن مقالته أصعب من أكثر المسائل الرياضية تعقيداً . فقد جاء فوز عغ مثقلاً "بالإذات" التحفظية، لدرجة أن اختراقها ، والوصول إلى النهائي الأوربي ، كان أصعب حتى من التنبؤ بالأرقام الستة الرابحة في "لعبة اللوتو" .

بعد الظهر توقف شاب أمام قصر آل ريجيصين ، وقرع الجرس .

– هل سعيد بيه في البيت ؟ لقد ضرب لي موعداً . أنا إيرول أركان .

دعته مدام أنجيلا للدخول ، ثم ذهبت تبلغ سعيداً ، الذي استقبل الضيف العزيز كما يجب ، باحترام صادق وعميق .

– اليوم قرأت مقالتك – قال سعيد : وحصلت منها على الكثير من الفائدة . إنني بصدق في غاية الدهشة إزاء سعة اطلاعك .

– اسمع يا صاحبي . إنها مجرد مزحة . خطر لي أن أغمز من قناة "أعمدتنا" ، ومن تتطحهم إلى تبوء المراكز في الكرة العالمية .

"آه إذن هكذا ... أما أنا فقد أخذت كل شيء على محمل الجد". ولما لم يكن يريد الاعتراف بتسرعه ، فقد رد بقوله :

– طبعاً ، طبعاً . يا للفكاهة والطرافة : لقد حصلت على متعة كبيرة. منذ زمن بعيد لم أضحك هكذا .

– أي بطل هو عغنا ؟ لسوف يسقط في القطار الأوربي بعد أول مباراة له على أرضه ... لأنه يا صاحبي ... – وبدأ أركان بيه إيضاحاته التفصيلية ، ومن ثم عاد إلى نفسه ، وهتف : – نعم لقد نسيت تماماً . فقد كان من المقرر أن يأتي معي ديوندار مهذار بيه، لكنه اتصل بي هاتفياً ، وأخبرني أنه سوف يتأخر قليلاً ، وسيأتي لاحقاً ...

أما السبب في ذلك فيعود إلى أن مهذار بيه اتصل عند الصباح بآل فيرفبيرفيرك ، وأخبر سيفيم أنه سيلتقي بسعيد – كانت فكرة جعل ريجيصين الثري عضواً فخرياً في عغ تقض مضاجع مهذار بيه . وقد اقترح على سيفيم أن ترافقه للقاء خطيبها .

– لحسن الحظ أنك اتصلت يا ديوندار بيه – زقزقت سيفيم – إنني بأمس الحاجة إليك . ثم إن أحمد عندي الآن . أنت وحدك من يستطيع القيام بذلك . أرجوك أن تعرج علينا لدقيقة قبل الذهاب إلى سعيد . إن علي أن أقول لك شيئاً من كل بد ، إن هذا ضروري جداً ...

هذا إذن سبب تأخر الأمين العام لـ عغ .

وقبيل اتصال مهذار بيه الهاتفي، حاولت سيفيم جاهدة إقناع أحمد أن يصالحها مع خطيبها . إنها بالطبع تعرف أنها تمادت في ذلك المساء ، لكن ما حدث... أما سعيد فقد اختفى تماماً . لا يتصل ولا يأتي . إن أحمد هو وحده الذي يستطيع أن يصالحهما ، إنما عليه أن يجعل سعيداً يدرك أنه هو المخطئ في كل شيء ، وأن خطيبته مستعدة لأن تصفح عنه إذا ما جاء إليها طالباً الصفح . أما حينما سيتزوجان فسيختلف الأمر ، ولن تولي سيفيم زعله أي اهتمام ، لكن لا بد في البداية أن يتزوجا ...

كان أحمد غاضباً من سيفيم ، ويشفق على سعيد فعلاً ، ولذا فلم يكن يرغب أبداً في أن يصبح وسيطاً بينهما . ولحسن حظه ظهر ديوندار مهذار بيه ، الذي ما إن عرف بكل هذه التعقيدات في مسألة الزواج، حتى شعر بالحزن الصادق : ففي حال فشل مشروع الزواج، لن يحصل عغ من سعيد على شروى نقير ...

– كل شيء قابل للتسوية بكل بساطة – قال ديوندار مهذار بيه ، بعد أن فكر ملياً – فغدا يقيم حسيب بيه حفل غداء أو عشاء ، وسيحضره الوالدان، وأنت يا أحمد وأنا ... وسندعو أركان ... إنه – بالمناسبة – عند سعيد الآن... أما خطيبك فسأجلبه بنفسي . وسوف نسوي كل شيء على المائدة ...

بينما كان مهذار بيه لدى آل فيرفبيرفيرك ، كان أركان بيه يروي لسعيد كيف أصبح معلقاً رياضياً .

- إن المعلق الرياضي – أقول لك يا صاحبي – هو إما رياضي فاشل، وإما بقبق ، لا مقدرة له على اللعب أبداً . وعما يتحدث الناس بمثل هذه الحماسة والحرارة ؟ إنهم يتحدثون عما لم يفعلوه أبداً ... وهكذا هي الحال عندنا يا صاحبي ... هلا نظرت إلى الكهول كيف ينمقون في وصف مغامراتهم الغرامية . حديث ذو شجون . والسبب ؟ لأنهم في هذا المجال أصبحوا غير قادرين ... وهكذا تراهم يثرثرون . والشيء نفسه في مهنتنا .

وفجأة خطر لسعيد في سره : إذن فهو لن يصبح سوى معلق رياضي ؟ كلا ! لسوف يصبح لاعب كرة .

- كان المرحوم والدي – تابع إيرول – يحب الكتب كثيراً . ولم يتزوج المسكين سوى مرة واحدة ، مما ترك في قلبه غصة ومرارة . وكان لا يكف عن تقريعي باستمرار لأنني لا أقرأ شيئاً "جاهل ، حمار ! لن يكون منك شيء!" .

كان المرحوم والدي ذا أفكار تقدمية ، يجيد النظر إلى الأمور من جذورها . وهكذا فإنني لم أنه دراستي الثانوية بالطبع . وبسبب الأساتذة ، ومعاملته الظالمة لي ، اضطررت لأن أبدأ حياتي المستقلة في وقت مبكر . لكنني كنت أفشل في كل مجال أعمل فيه . لكن لماذا أحدثك هذا يا صاحبي ، فأنت تعرف ذلك أفضل مني ، والآن لننظر إلى الأمر من الناحية الأخرى . إن جميع الكتاب الأمريكيين العظام ، الذين نعرفهم الآن ، قد عملوا – مثلي – في مليون مجال ، وحين فشلوا في كل شيء بدؤوا الكتابة لأنهم وجدوا أنفسهم في طريق مسدود . وأقول لك يا صاحبي إن هذا الأمر قد جذبني ، على الرغم من أن خطي رديء جداً ، ولغتي غير سليمة . وعموماً فإن معرفتي باللغة التركية سيئة . إذن لم استطع أن أصنع من نفسي كاتباً ، لكنني – بالمقابل – أصبحت معلقاً رياضياً . بدأت في جريدة كانت على وشك أن تتوقف . وفي ذلك العام جرت الألعاب الأولمبية ، وراحت كل جريدة ترسل إلى الأولمبياد عدة مراسلين خاصين ، أما جريدتي فلم تكن قادرة على إيفاد مراسل واحد حتى . وحينذاك لجأت إلى الحيلة : عثرت في الأرشيف على صورة لرجل وامرأة يلوحان بأيديهما مودعين من على سلم الطائرة . وقد استبدلت صورتي بوجه الرجل ، لتظهر في الصحيفة في اليوم التالي ، وقد كتب تحتها : "على

الرغم من المصاعب المالية فإن جريدتنا توفد مراسلها الخاص إلى الأولمبياد . إيرول أركان ، قبل الإقلاع من مطار يشيليكيوى" .

لكنني ارتكبت خطأ يا صاحبي . فعلى خلفية الصورة بدت بوضوح إحدى ناطحات السحاب في نيويورك . وكأن من شأن هذه الحيلة أن تمر بسلام – فلست وحدي الضعيف في الجغرافيا – لو لم يتصلوا – وكأن الأمر نكاية – من المركز الإعلامي الأمريكي ، ويسألوا متى وصلت مارلين مونرو إلى اسطمبول . هل فهمت – يا صاحبي – من هي التي كانت تقف معي على سلم الطائرة ؟ وبالكاد استطعت النجاة بريشي من الأمريكيين "كثيري الغلبة" . وبعد ذلك رحت – يا صاحبي – أنشر تحقيقاتي الميدانية عن الألعاب الأولمبية، ناقلاً – بكل أمانة – المواد من الجرائد الأخرى . ومع هذا فقد انتهى الأمر بجريدتي إلى الإغلاق ، لكنني كنت قد حصلت على بعض الشهرة كمعلق رياضي ، ولذا فقد قبلت في جريدة أخرى ، أفضل من الأولى .

بعد أن أنهى إيرول أركان بيه اعترافاته ، انتقل إلى ديوندار مهذار بيه، وأعطاه وصفاً بالغ الموضوعية .

أما ديوندار ... فأقول لك يا صاحبي ، إنه يستحيل أن تجد مثيلاً لهذا المدير العبقري للنادي . إنه سياسي بالفطرة . لو لم تكن كرة القدم في بلادنا في مثل هذه الزريبة، إذن لأصبح اسم صاحبنا مهذار بيه على كل شفة ولسان، ولو أنه كان يعيش في بريطانيا أو البرازيل أو إسبانيا، إذن لأصبح سير – بيير من زمان . إن إخلاصه لـ "الأعمدة" لا تفسير له . إنه متعصب حقيقي لناديه. ومن البدهي أنه يغرف المال لنفسه بصفته صاحب النادي . إنه بدوره نذل كبير . إنه يستطيع أن يبرهن لك على كل شيء . فحين يصدف أن يخسر "الأعمدة" يسوي الأمور بطريقته بحيث يصنف عغ بين الفائزين ، ويستطيع بكل سهولة أن يلغي نتيجة المباراة : تارة يدعي أن الهدف سجل من الآوت صايد ، إلى غير ذلك ... إن مهذار ذئب كروي عتيق ، ففي شبابه ، وحينذاك كان اللاعبون قلة ، كان ديوندار يلعب قلب دفاع "الأعمدة" ، وهو يحب الحديث عن تلك الأيام . وإجمالاً فإن اسم ديوندار كتب إلى الآن بحروف من ذهب في تاريخ الكرة التركية . إنك لا تعرف هذا يا صاحبي ، لكن لاعبينا كانوا في وقت من الأوقات يرتدون السراويل إلى ما تحت الركبة . وقد

استطاع مهذار بيه أن يحصل على الموافقة بتقصيرها بمقدار سبعة سنتيمترات ونصف . لقد مثل مباشرة في حضرة المدير العام لإدارة التربية البدنية ، وقال: "حين يندفع لاعب الكرة يا أفندي في الهجوم ، أو في الدفاع عن الكرة ، فإن سرواله الطويل يضايقه ، ويتعثر به كأنه تنورة ، وقد يبقى بدون سروال . فهل يجوز أن تتكشف عورته أمام الجمهور ؟ ... يا له من مناضل عظيم من أجل الأخلاقية في رياضتنا هذا المهذار بيه .

كان إيرول أركان بيه يمزح بالطبع ، وهو يروي هذا كله . حتى أنه راح يغمز سعيداً ، وكأنه يقول "هاك انظر كم أنا بارع" – لكن سعيداً كان يصغي لكل كلمة ، ويأخذها على محمل الجد ، ولا يشتم السخرية في حكايات إيرول المرتجلة والمرحة .

– اسمع يا صاحبي ، لقد توالى على قيادة عغ الكثيرون – جم غفير من الناس ، لكن ديوندار مهذار بيه وحده الذي صمد . ولو أنه أراد إذن لأصبح رئيساً أو نائباً للرئيس من زمان ، لكنه يحاول البقاء في الظل ، لكي يقوم بأعماله بكل راحة . إن بوسعه دائماً أن يصنع الرئيس من أحد قادة الحزب الحاكم . ففي كل مرة يفوز مرشحه بأكثرية الأصوات في الانتخابات . إن كل خطبة يلقيها ديوندار تبدأ بالعبارة التالية : "إن عغنا أفضل فريق كرة قدم ، ولماذا الأفضل ؟ لأن ... " وجرب أن توقفه بعد ذلك . وبعد خطبته ، يصبح الجميع كالخاتم في إصبعه . ويصوتون لمن يريد . يا له من ديماغوجي كبير هذا المهذار بيه . ولا يقتصر على مهارته في إلقاء الخطب ، بل إنه لا ينسى مصالحه . ليصبح الآخرون رؤساء ، أما المهم بالنسبة له فهو أن تبقى خزنة النادي رهن إشارته .

كلما زاد إيرول سعيداً حديثاً عن "الأعمدة" زاد إعجاب الآخر ، بهم . وعلى الرغم من أن سعيداً لم يشاهد في حياته مباراة واحدة بكرة القدم ، فإنه أصبح من أنصار "الأعمدة" ، وأصبح على استعداد لأن يقدم لهذا النادي أي خدمة . فمذ كان طالباً في الثانوية أحبه رفاقه على سخائه ، فهل يعقل أنه لن يتمكن من كسب رضى عغ بوساطة النقود . البداية هي الصعبة ...

– بصراحة – قال إيرول ، لكأنه قرأ أفكار سعيد – إذا ما أخذنا الأمر من الناحية المالية ، فلا أحد يعرف من هو المدين للآخر، عغ لديوندار ،

أم ديوندار لعغ ، لكن مهذار بيه يجيد باستمرار تسوية الأمور مع الصحافة . فإذا ما أراد إزاحة رئيس النادي أزاحه "أسهل من شربة ماء" . إذ ينشر في الصحيفة استفتاء على ماذا أنفق فلان مئة ألف ليرة ؟" – ولا تسل عن البلبلة والهرج والمرج . فالمحافل الرياضية والصحافة تطالب بتشكيل لجنة خاصة للتدقيق في نفقات النادي ، وللإجابة على السؤال التالي : لماذا يسافر مع اللاعبين الأحد عشر في مهمة خارجية واحد وخمسون مرافقاً من قيادة النادي – بكلمة واحدة – أين اختفت المئة ألف ؟ ويزداد الصخب ، بشكل غير معقول.. بينما النقود في مكانها لم تمس ، وعموماً لم يحدث أي شيء ... لكن بانتظار المحاكمة والدعوى يطرد الرئيس الفخري مجللاً بالعار ، وينصب ديوندار مكانه الشخص ، الذي يناسبه . وهو إنسان شريف من كل بد ...

كان سعيد يصغي لاعترافات المعلق الرياضي ، وهو في غاية الدهشة ، إذ كيف يسمح إيرول لنفسه بنتف ريش مهذار بيه ، وهما صديقان حميمان ؟ لكن سعيداً لم يكن يهتم ببواطن أمور المدير العام للنادي بقدر ما كان يهتم بمسألة أخرى .

– أركان بيه – قاطع سعيد المعلق – صدف أن مهذار بيه أشار إلى انك أنت من صنع شهرة أحمد . هلا أخبرتني من فضلك ، كيف تمكنت من القيام بذلك ؟

– إيه يا صاحبي – قال إيرول ، وقد غض الطرف – وهل هو وحده؟ ... فكم من الأحمدات صنعت ... لا يمكن أن تجد اليوم أحداً في تركيا لا يعرف أحمد الجدار ...

– نعم ، نعم ، حتى عمتي ومدام أنجيلا تعرفان أحمد الجدار ؛ على الرغم من أنه لم يسبق لهما أن اقتربتا من الملعب أبداً . – وكاد يقول "مثلي أنا"، لكنه تمالك نفسه في الوقت المناسب . ففي ذات مرة سألت عمتي من أين تعرف أحمد ، فقالت: "آه يا ولدي ، ومن لا يعرف أحمد ؟ سوف تعرفه حتى ولو كنت لا تريد ذلك ، فالجرائد لا تكف تكتب عنه . قد تفوتك القراءة مرة وثانية ، لكن لا مفر من ذلك ، ولسوف تقرأ رغماً عنك . وصور أحمد تنتشر على الصفحات الأولى . صوره وصور رئيس الوزراء" . – على هذا النحو جاء جواب عمتي .

– أن يمدح المرء نفسه شيء لعمري بعيد عن التواضع – تابع إيرول– لكن شهرة لاعب الكرة من صنع أيدينا ، فنحن من يشعل النجوم في قبة سماء الرياضة .

وانتعشت آمال سعيد : إذن فبوسع أركان بيه أن يجعل شهرته تطبق أرجاء البلاد ؟ بعض المعونة من إيرول ، وبعضها من مهذار بيه ، زد على ذلك رفيقاً ويصبح لاعب كرة . إنه يصدق رفيقاً دائماً ! الجميع يؤكدون : "أي لاعب كرة أنت !" ، وحده رفيق قال بكل ثقة : "طبعاً ، وما المانع؟" .

بدأ إيرول قصته عن أحمد ، وكيف أصبح جداراً .

– في أحد الأيام بدأ ديوندار مهذار بيه يطوف في أرجاء البلاد بحثاً عن لاعبين لفريقه . وفي ذلك الوقت كان أحمد الجدار يعرف باسم أحمد فقط، ويلعب في فريق ريفي من المرتبة الثالثة . وقد أعجب مدير عغ برباطة جأش أحمد وأسلوبه الخشن في اللعب وضربته القوية ... لكن طاقم فريق "الأعمدة" كان قد اكتمل ، ولم يبق له مكان ، ولكن مهذار بيه تصرف على نحو جعلهم يدعون أحمد للعب في فرق المرتبة الثانية ، وبعد عام أو عامين انتقل أحمد إلى المرتبة الأولى ، وقد أصبح الآن لاعباً ممتازاً ، وكان مهذار بيه لا يكف يكرر: ألم أقل لكم إن لهذا الشاب مستقبلاً واعداً!" وللإنصاف نقول إن ديوندار إذا ما وضع عينيه على أحد فإن هذا سيصبح لاعباً في عغ لا محالة ، لكن بعض الاستعصاء حصل مع أحمد : لم يرغب النادي ، الذي كان يلعب فيه آنذاك ، بالتخلي عنه . وقد عرض مهذار بيه مئة ألف ليرة مقابل الحصول عليه ، لكن النادي ظل متشبثاً بعناده ، وحينذاك جاءني مهذار بيه ، وقال : "إنك يا أركان المعلق الأبعد عن المحاباة والانحياز ، ومخلص في إعجابك بعغنا ، فأدّ لنا هذه الخدمة من باب الصداقة ... " . ورحت أتردد على كل المباريات ، التي يشارك فيها أحمد ، وبعد كل مباراة كنت أدبج المقالات ، التي أكتب فيها أن أحمد يلعب بشكل سيء جداً ، وأنت تعرف يا صاحبي أن ذلك بقصد تفكيك أحمد في أعين المشجعين ، وإخراجه عن طوره ... وحتى بعد هذا كله لم ينتقل أحمد إلى عغ . وحينذاك سلط مهذار سيفيم بيه سيفيم غريفون على أحمد ، فتمكنت منه ، وهي عزلاء . إذا ما تشبثت سيفيم ببراثنها، فلا يمكن أن تتخلى عن طريدتها أبداً . وهكذا فقد وجد أحمد نفسه بين

نارين – الصحف تنتف ريشه من جهة ، وسيفيم تمتصه كما العلقة من جهة أخرى ... وفي هذا الوقت بالذات التقى فريق أحمد بفريق "الأعمدة" . وبالكاد كان أحمد يجرجر قدميه على أرض الملعب . وفي نهاية المباراة سرت الشائعات أنه تلقى المال من عغ . وبالمناسبة فنحن من أطلق هذه الشائعات ، هنا لن أتهم الآخرين زوراً وبهتاناً . وبعد هذا لم يبقَ أمام فريق أحمد إلا أن يودعه إلى الأبد ... اشتراه عغ لقاء مئة وخمسين ألف ليرة . هذا ما جرى يا صاحبي . طيب وبعد أن شوهنا صورة أحمد الرياضية علينا الآن أن نبيضها، وأن نعيد أحمد إلى الحياة . فنشرت في الجريدة مقالاً بعنوان "كيف يجب أن يلعب أحمد؟" . وراحت الرسائل – يا صاحبي – تتدفق سيولاً ... البعض يكتب : على أحمد أن يلعب في الدفاع ، والبعض الآخر – إن أحمد لاعب خط دفاع "فورفارد" بالفطرة ، البعض ينصح بوضعه في الميمنة ، والبعض الآخر في الميسرة . واتسع نطاق النقاش ، وطال ... وزادت أهميته بالنسبة لمواطنينا ، مما دعا إلى نقله من الصفحة الأخيرة إلى الصفحات الأولى في الجرائد . ولا بد من الإشارة هنا – يا صاحبي – إلى أن حكومتنا كانت تمر بأزمة دورية ، بسبب الوضع الداخلي والخارجي الصعب . وفي كل يوم كان رئيس الوزراء يلقي الخطب ، متهماً الجميع ، دون استثناء ، بالانتماء للحزب الشيوعي ، أما البوليس فكان يزج بالمواطنين في السجون ... وباختصار فإنها أزمة حكومية ... أما بالنسبة لي فقد كنت في واد آخر ؛ إذ لم أتوقف عن التأكيد على سؤالي : "أين يجب أن يلعب أحمد؟" . واستمرت الرسائل تتدفق وتتدفق . حتى النساء أدلين بدلوهن : "ليلعب أحمد في الوسط" طالب بعضهن ، وكتب بعضهن الأُخَر غاضباً : "فليلعب بالدحل ، ألا تباً له" . وفجأة جاء رئيس الوزراء بشحمه ولحمه إلى هيئة تحرير الجريدة ، واستدعاني ، ثم قال بحضور صاحب الجريدة وزملائي المحررين : "تهاني القلبية لك ، فأنت صحفي عظيم، لقد قدمت خدمة لا تقدر بثمن للوطن والحكومة" – ثم عانقني وقبلني . وفيما بعد قال لرئيس التحرير – كما عرفت – بصراحة "وفق الله أركان ، فقد قدم لنا أحمده في الوقت المناسب" . صحيح أن هيئة التحرير بدأت تتلقى رسائل مليئة بالنقد العنيف ، من شتى العيارات : فالجوع يضرب أطنابه في البلاد ، والبطالة متفشية ، أما أنتم والحكومة فلا همّ لكم إلا هذا الأحمد . وبالطبع فقد كنا نرسل الرسائل من هذا النوع إلى الشرطة ، فهذا من

اختصاصها ، وبذلك فقد أدينا واجبنا المقدّس تجاه الوطن . وإجمالاً فلن أطيل عليك الحديث يا صاحبي ، فأقول إن هذا الصخب قد أثار سأم الجميع ، فزعقوا بصوت واحد : "فليلعب حيث يريد أن يلعب" . وحينذاك سألنا أحمد نفسه أين يريد أن يلعب ، فإذا به يريد أن يلعب في الدفاع . طيب شيء جميل، دعوه يلعب في الدفاع ، الأمر بالنسبة لنا سيان ! لكن كل شخص أصبح يعرف أحمد . هذا ما يستطيع أن يفعله الصحفي يا صاحبي ، وتلك كانت بداية شهرة أحمد .

كان على أحمد أن يلعب مباراته الأولى لصالح "الأعمدة" في ألمانيا الغربية – تابع إيرول – . إن المهم في أي جولة خارجية أن لا يمضي الشباب الليالي في الخمارات وفي أحضان النسوان . وللحفاظ على أحمد في لياقته الرياضية الممتازة ، ولكي يصبح عمود الفريق الفقري ، اقترح مهذار بيه اصطحاب سيفيم إلى ألمانيا الغربية . كان الحساب في غاية البساطة ، فالفتاة قادرة على كبح جماح أحمد بحيث لا يتمادى . وقد سافرت مع الفريق بصفة معلق . ولا زلت أذكر أن المباراة بدأت ، وأحمد بالكاد يقف على قدميه ، لكأنه لم ينم أسبوعاً كاملاً . فكان يجرجر نفسه على أرض الملعب . وهكذا سجل الألمان في الشوط الأول خمسة أهداف ناشفة في مرمانا . ولم نعد نفكر بالفوز ، بل في أن نتمكن من تقليص الفارق إلى حد ما . وعلى حين غرة بدا وكأن الحياة دبت في "عمودنا الفقري" ، فشاط الكرة ، وسجل هدفاً جميلاً ، لا بل إنه نادر بالنسبة للملاعب الأوربية .

– عاش أحمد الجدار – هتف سعيد فرحاً – مرحى له ، إذن فقد تمكن من تقليص الفارق...

– وأي تقليص يا صاحبي – فهو إنما سجل الهدف في مرمى فريقنا، وكل ذلك لأن أحد الألمان أصابه بالكرة ، فلم يستطع أن يميز ، وهو بين النوم واليقظة ، أين يقع مرمى كل فريق ، فسدد الكرة إلى المرمى الأقرب. ومع هذا فقد كان الهدف من المرتبة الأولى ، وفيما بعد كتبت الصحافة الغربية كلها عنه بوصفه "الهدف الميت" .

– ومع ذلك عافاك الله يا أحمد – صاح سعيد مغتبطاً .

– وما الجيد في هذا يا صاحبي ؟ فنحن لم نقلص النتيجة حتى النهاية، وخسرنا صفر إلى ستة . وبعد الشوط الأول قال مهذار بيه لأحمد : "أرجوك يا ولدي أن لا تضرب الكرة بعد الآن ، الأفضل أن تجري على الجوانب ، على الطرف ... " ، لكن ما ذنب أحمد ؟ إن الذنب في كل شيء هو ذنب سيفيم ...

وحين سأل سعيد بكل طيبة قلب عن ذنب سيفيم ، أدرك إيرول أنه تمادى في ثرثرته ، فسيفيم على كل حال خطيبة سعيد .

– لا تسيء الظن بها يا صاحبي – قال أركان بيه ، محاولاً ذرّ الرماد في عيني سعيد ، فسيفيم فتاة لا مثيل لها . كل ما في الأمر أنها أمضت الليل بطوله وهي تكرر على مسامعه : "فكر بالوطن يا أحمد ، تذكر يا أحمد أن اثنين وثلاثين مليون قلب في وطنك تخفق لك" . قد يحدث يا صاحبي أن يدربوا اللاعب حتى يطفح الكيل ، وهذا ما حدث لسيفيم : أرادت أن تلهم أحمد ليلعب جيداً ، فإذا بها تزيد الجرعة ... وعموماً يجب أن ننصف أحمد ، فقد أنقذ الشوط الثاني بكل ما في هذه الكلمة من معنى . لقد علمه الألمان قليلاً، فاستيقظ ، وراح يطاردهم . ظل يجري خمساً وأربعين دقيقة ، وهم يهربون منه ، ولذا فقد انتهى الشوط الثاني دون تسجيل أهداف .

بعد المباراة تذمر مهذار بيه طويلاً : "آه يا أخي أركان ، لقد دفعنا ثمن سقط المتاع هذا ، فهو لا يساوي شروى نقير" . فحاولت أن أخفف عنه ، بقولي إن أحمد أنقذ الشوط الثاني . لكن ديوندار يقول لي : "إسمع يا أركان إن أحداً من الصحفيين الأتراك لم يشاهد هذه المباراة فاكتب أن أحمد لعب بشكل جيد ، ووقف كما الجدار في الدفاع . وبعد هذه المباراة أطلقت على أحمد اسم "الجدار" . وهكذا فقد كتبت : على الرغم من خسارة عغ صفر إلى ستة ، فإن الفريق لم يفقد رباطة جأشه حتى نهاية المباراة ، ودافع أحمد عن مرمانا كما الجدار ... " .

والواقع ، يا صاحبي ، أن أحمد بدأ يلعب بعد هذه المباراة بشكل ليس بالسيء حتى . ليس فيه سوى عيب واحد ووحيد : اللياقة الرياضية غير الثابتة. إنه يميل إلى الإسراف . ولولا هذا إذن لاستطاع أن يصبح لاعباً من المرتبة الأولى : فهو سريع الجري ، خشن في لعبه وحاد . فحين يتبارى عغ

مع محد يصبح ملعب الكرة أشبه بساح الوغى ، وساعتها يطلق أحمد الجدار العنان لنفسه ، فلا ينجو أحد من شره ، لا اللاعبون ولا الحكام ، فتأتي – بالطبع – العقوبات الانضباطية : يعاد تصنيف أحمد ، ويهرع مهذار بيه إلي : "من شأن الله أنقذ أحمد !" . فأكتب على الفور : "كم مرة عرض الفريق الإيطالي من باليرمون ، والمنتخب الإسباني أيضاً ، على أحمد الجدار أن ينتقل إليهما لقاء مبلغ كبير . وفي لقاء مع صحيفتنا أعلن أحمد أنه ينوي السفر إلى إيطاليا هذا العام . سيكون انتقال "العمود الفقري" للمنتخب الوطني خسارة لا تعوض ... وكما اتضح ، فإن قادة نادي عغ مستعدون لأية تضحيات من أجل الحيلولة دون رحيل أحمد الجدار عن تركيا ... " . وبعد هذه المقالة يسمح لأحمد باللعب فوراً ...

وفي هذه اللحظة بالذات وصل ديوندار مهذار بيه .

– أعذراني يا صديقي على تأخري – بدأ كلامه – أمور عاجلة أخرتني في النادي . أنتم تعرفون أننا سنلعب في هذا الموسم ، وعما قريب ، في رومانيا ، ولذا فإن التدريبات جارية على قدم وساق .

قدمت مدام أنجيلا الشاي . وكانت جد مغتبطة أن مثل هؤلاء المشاهير زاروا منزل أسيادها .

– ولماذا لم يشلف أحمد الجدال ؟ سألت أنجيلا .

– لم يدعه أحد ، وإلا لكان قد جاء من كل بد .

وسر سعيد : ما دام الحديث قد تطرق إلى أحمد ، فإن بالإمكان أن يسأل عن سيفيم بالمناسبة .

– للأسف أنكم لم تأتوا برفقة أحمد بيه ، إذن لازداد سرورنا .

– بالمناسبة لقد نسيت – انتفض ديوندار مهذار بيه – فغداً يقيم حسيب بيه حفل غداء ، وقد رجاني أن أوجه إليك دعوته ، إنه بانتظار تشريفك من كل بد .

– أنا ؟ – كاد سعيد يختنق .

– بالطبع أنت . وسيكون أحمد هناك ... وسيذهب معنا أركان بيه ، سوف يكون الغداء في الكازينو .

وهاج بسعيد الشوق لمعرفة ما إذا كانت سيفيم ستأتي ، ولكي لا يفضح نفسه بدأ من بعيد :

– وهل ستشرفنا عقيلة حسيب بيه المبجلة بحضورها ؟

– طبعاً وسيفيم هانم . آمل أن تكون يا سعيد بيه غير مشغول مساء غد وإذا كان يوم غد لا يناسبك ، فإن حسيب بيه مستعد لتأجيل الحفل إلى يوم آخر .

– هل أنا مشغول ؟ لست مشغولاً بالطبع ! ماذا تقول يا عزيزي ، وأية مشاغل يمكن أن تكون لدي مساء غد ؟

وبكل لباقة نقل مهذار بيه الحديث إلى "عمود الغبار" فقال :

– في تركيا مئات الآلاف من المواطنين مشجعي عغنا ، أقدم نادي في البلاد . وقد كان الكثير من المشاهير أعضاء شرف فيه ... ولكي يصبح المرء عضواً في النادي ليس بالضرورة أن يكون ملماً بالرياضة ، بل يكفي أن يحب عغ ، وأن يكون بكل قلبه معه – إذا ما تحدثنا مجازياً . وعلى الرغم من أن عمود الغبار "ناد محترف" ، فإن روح الهواة تسوده ، هذه الروح ، التي ندين لها بازدهارنا . صحيح أن النادي استدان قليلاً في الآونة الأخيرة ، بسبب شراء عدة لاعبين ، ويعاني بعض المتاعب ، ذات الطابع المالي . لكنني آمل أن هذه التعقيدات سوف تزول بفضل أنصار عغ ، الذين يقدرونه حق قدره ...

كان سعيد يصغي ، وقلبه يكاد يتوقف عن الخفقان ، وهنا نطق ديوندار مهذار بيه بما كان ينتظره سعيد بالذات :

– إذا كان لديك رغبة يا سعيد بيه فإن بوسعك في أي وقت تريد أن تصبح عضو شرف في عغنا ...

– أوه : هل يعقل أنني أستحق شرفاً كهذا ؟ رد سعيد بصوت مرتجف.

ماذا يعني التحليل النفسي

إن سعيداً في غاية السعادة . ففي الصباح سيذهب إلى رفيـق ، ومـن هناك سيتوجه إلى حفل الغداء مع آل فيرفييرفيرك ، ولسوف يرى سيفيم مـن جديد . لن يدعها تعصب بعد الآن أبداً ، أبداً ...

استقبلت زوجة الطبيب بالترحاب رفيق زوجها في الثانوية . وقد دهش سعيد ، وفرح ، إذ رأى شقة صاحبه بكل مظاهر الغنى والثراء ، فهو يـذكر جيداً مدى فقر رفيق في شبابه . ولم يكن سعيد يعرف أن رفيقاً أصبح طبيبـاً نفسانياً مشهوراً ، ويدّرس في الجامعة ، وهو عضو في العديد من الجمعيـات العلمية الدولية . وفي أمريكا اشتهر كخبير في ميدان الطب النفساني .

أثناء الفطور راح رفيق يراقب سعيداً خلسة ، ولم يخف شيء على نظر الطبيب الماهر : فأمامه يجلس إنسان غير سليم نفسياً ، وهو بأمس الحاجة إلى المساعدة السريعة ...

بعد تناول القهوة انتقل الرجلان إلى مكتب الطبيب ، وراح سعيد ينظر إلى صديقه بأمل . فجميع من كان يعبر لهم عن نيته في أن يصبح لاعب كرة كانوا يضحكون منه : "أي لاعب كرة يمكن أن تكون أيها الدودة الحقيـرة؟!" "كيف يمكن أن ترى الكرة يا أبا النظارة؟!" من هذا الذي يبدأ بمطاردة الكـرة في سن الشيخوخة؟" – وباختصار فقد كان سيل الاستهزاء لا ينقطع .

وحده رفيق أخذ الكلام على محمل الجد . وكلما ازداد المعارف ضحكاً من سعيد، ازداد تعلقه بهذا الحلم ورغبته في التغلب علـى عجـزه وخوفـه، وتعطشه لأن يبرهن أنه قادر على أن يكون مثل الجميع ...

ولهذا – على الأرجح – كان سعيد ينتظر دعم رفيق ، نصحه ومساعدته ، فهو الصديق ، الذي وقف أبداً إلى جانبه في سنوات الثانوية .

- إذن فأنت تعتقد أنني قادر فعلاً أن ألعب بكرة القدم ؟

- بالطبع ...

- أولست تسخر مني يا رفيق ؟

- وهل سبق لي أن سخرت منك ؟

- لا . ولكنني هزيل ، ضعيف ، حتى أنني لست بقادر على اللحاق بالكرة .

- أقول لك كطبيب : لسوف تلحق بها ، وتشوطها ...

- كلا لن أستطيع . فأنا لا أرى شيئاً حتى في النهار المشمس ...

- كفاية ، لن نتجادل . أقول باختصار : إذا ما أردت ، أصبحت لاعب كرة ممتازاً . المهم هو الإرادة . وبالطبع فإن كل شيء لن يتحقق بين عشية وضحاها ... فأنت الآن تفتقر إلى الاستعداد البدني ... لسوف أبدأ بعلاجك ... وسوف يقوى عودك ، ويتحسن نظرك . كل شيء سيكون ، المهم أن تثق بنفسك ، بمقدرتك وبإمكانياتك ...

كان رفيق يتكلم ، وهو يحاول جاهداً فهم حالة صديقه النفسية ، وما هي المراكز ، التي شلها المرض ... فهو لم يكن يستطيع ، ولا يريد ، أن يسأله كما يسأل المجنون فعلاً ... هل يلجأ إلى التنويم المغناطيسي ؟ لكن العلاج بالتنويم المغناطيسي يتطلب أن يعرف المريض بمرضه ... فليعتقد سعيد أنه يعالج من الضعف الجسدي ومن سوء الرؤية .

وبدآا يتحدثان عن الطب النفسي : حدثه رفيق عن التنويم . وأخذ سعيد يصغي إليه باهتمام ، غير مصدق أن الإنسان يمكن أن يستسلم للنوم بإيحاء .

- شيء طريف ... لكنك لن تستطيع تنويمي ، فحتى حبوب المنوم لا تؤثر في ... فما بالك بالكلام والنظر ؟ ... كل هذا كلام فارغ للبسطاء، وأنت تعرف أنني لست من عداد هؤلاء ...

- إن الناس ، ذوي الإرادة القوية ، هم وحدهم العصيون على التنويم.

– لست أدري أي إرادة عندي ، لكن أحداً لا يستطيع تنويمي .

بينما راح رفيق يفكر بالطريقة المثلى لعلاج سعيد بدأ هذا يتثاءب ، وبدأ الوسن يداعب عينيه بسبب صوت الطبيب الودي ، والضوء الخفيف ، وكثرة الأزهار ، وبسبب أثاث المكتب ، الذي هو أقرب إلى غرفة أطفال منه إلى مكتب طبيب . كان سعيد قد أمضى الليل كله يجري عبر ملعب الكرة ، ويسجل الأهداف ويشوط . أما هنا فقد نسي كل شيء ، وحلت الطمأنينة . ألقى برأسه على مسند الأريكة ، وثقل جفناه ...

في هذا الوقت جاء أحد الزبائن إلى رفيق ، فاعتذر الطبيب من صديقه ، وانتقل إلى الغرفة المجاورة ، لكي يقوم هناك بجلسة تنويم .

– الآن سوف تنام – بدأ الطبيب – تنام ... تنام ... سوف أبدأ العد . أما أنت فتكرر بينك وبين نفسك جملة واحدة : "كل شيء جيد ، كل شيء يجري بشكل جيد ... "واحد ... اثنان ... ثلاثة ...

وفجأة تردد شخير . نظر رفيق إلى الزبون بدهشة ، ونظر هذا بدوره إلى الطبيب . كان الشخير يأتي من الغرفة المجاورة . حيث راح سعيد في سبات عميق ، وقد اضطر الطبيب إلى إلغاء الجلسة ، وصرف المريض .

عاد رفيق إلى المكتب ، وألقى نظرة على سعيد ، المستسلم للنوم ، وبعد أن جلس في الكنبة المقابلة ، راح يطرح عليه الأسئلة ، وسعيد يرد بكل طيبة خاطر ، حتى ليخيل لمن يراهما أن هذين الصديقين القديمين يتحدثان بشكل طبيعي .

كانت ذكريات الطفولة هي ما راح سعيد يتحدث عنه . لم يكن يحب تذكر الطفولة ، فما بالك أن يتحدث عنها لأي كان . وحين كانت صور سنوات الطفولة تطفو فجأة على سطح ذاكرته ، كان يطرد هذه الظلال الفظيعة للماضي بعيداً .

كان قصر عائلة شفران زاده العريقة ، الذي كان من نصيب سعيد ريجيصين ، يعج بالناس في الماضي . وفي كل غرفة تقريباً – وعددها هنا ليس بالقليل – كان الأزواج يقضون وطرهم، دون أن يكلفوا أنفسهم عناء التستر عن أعين الفضوليين . كان الفسق والفجور وعهر سادوم وعمورا يعشعش في كل ركن من أركان هذا البيت ، وهو في غاية الخجل مما يجري ، ويتلصص في الوقت نفسه من خلال ثقب الباب . وكان أكثر ما يؤلمه فجور والدته . كان سعيد يعرف بالنسبة لسنه الكثير جداً ، وقد جعلته تربيته في مثل هذا الجو ينمو كتوماً ، خجولاً وشخصاً مريضاً على العموم .

وقد حدث رفيق عن مغامراته في باريس – بالطبع كان يعرف مقالب مادلين ، لكنه تظاهر بالغباء – فقد كانت به رغبة عارمة لأن يلامس جسد المرأة، ولو مرة في حياته ... والشيء نفسه تقريباً يجري الآن مع سيفيم . إنه بالطبع يدرك أن كل هذا كلام فارغ ، بخصوص أبوته المزعومة ، لكنه يصبر، ويحاول أن لا يسمع الهزء به والسخرية منه ، ويصور نفسه عبيطاً ، فهو يتوق جداً لأن يصبح أباً ، ولو مرة واحدة في الحياة ...

كان سعيد يعترف ، أما رفيق فكان يطرح الأسئلة ، ويصغي بكل جوارحه ، ويسجل بعض الملاحظات في دفتره . مر وقت كاف ، وسعيد لم يستيقظ ، حتى أن رفيقاً عاين مريضاً آخر ، وطالع في الكتاب ، وتحدث بالهاتف .

لم يستيقظ سعيد إلا عند العصر . وبعد أن تثاءب بلذة ، وتمطى ، راح يتلفت يمنة ويسرة ، عاجزاً عن معرفة أين هو .

– هل نمت ؟ سأل سعيد ، إذ رأى رفيقاً .

– نعم قال الطبيب ، ثم نظر إلى الساعة – لقد نمت ساعتين ونصف.

قفز سعيد من مكانه .

– هل يعقل أنني تأخرت ؟

– إلى أين ؟

– لقد دعاني حسيب بيه إلى حفل غداء .

- بسيطة لا يزال لديك وقت كاف .

- والفحص ؟ ألن تفحصني ؟

- الواقع أنه لا داعي لذلك عموماً . تعال ببساطة ، وسوف نـدردش قليلاً ، ونتذكر أيام الثانوية .

- والعلاج ؟

- لا تقلق بهذا الشأن . سوف يعالجك طبيب آخر . سأصطحبك إلى زميل لي ، وهو من سيهتم بك .

شكر سعيد صديقه ، وسأله ، وهو خارج :

- إذن فأنت تعتقد أن بوسعي أن ألعب بالكرة ؟

- بالطبع إذا كنت ترغب في ذلك . على كلٍ سوف نرى ماذا سيقول زميلي ، بعد أن يفحصك .

وضحك سعيد بمكر .

- ومع هذا فقد غفوت بنفسي ، إن فنك لم يجد نفعاً . عبثاً أضـعت الوقت في أمريكاك . إلى اللقاء !

- مع السلامة .

بعد انصرافه ظل رفيق يفكر به طويلاً . يا له من كائن غريب هـذا السعيد . لا تستطيع أن تفهم أهو يتحدث بجد ، أم أنه يمزح ! يا له من هذيان أحمق بشأن كرة القدم . تارة يريد أن يصبح لاعب كرة ، وأخـرى يراضـي نفسه والآخرين بأنه غير قادر ، أما قصة طفولته فمرعبة كما الكابوس الفظيع. كم من الأقذار يمكن أن تتراكم في النفس البشرية ... لكن لعل هذا النوم مجرد تظاهر ، مجرد ذريعة لكي يخرج كل ما لم يعد قـادراً علـى كتمانـه أمـام الغريب؟ طبيعي أن سعيداً ليس معافى تماماً ...

في هذا الوقت استقل سعيد سيارة أجرة، وانطلق إلي البيـت . كـان الوقت ما يزال مبكراً على حفل الغداء . وبعد أن أخذ حماماً ، شعر بنشاط لا عهد له به ، كأنه ولد من جديد .

منذ عهد بعيد لم يكن مزاجه بمثل هذه الروعة .

وبكل تهذيب قبل عمته ومدام أنجيلا ، ثم خرج من البيـــت ، وهــو يصفر بمرح .

لم تكن بيرين هانم أفندي ، وهي التي تربت على العادات القديمـــة ، تطيق مثل هذه المشاعر الرقيقة ، وقد اعتبرت قبلة ابن أخيها دليلاً آخر علـــى جنونه .

غداء على شرف المصالحة

منذ البارحة ناقش آل فيرفيرفيرك والأطراف الأخرى ، ذات المصلحة، ناقشوا طويلا مسألة المكان الأمثل لحفل الغداء، وقد اقترحت ميهجوري هانم أن يكون الغداء في البيت ، كلا ليس بخلاً وتقتيراً ، بل لأنها ترى : "طالما أنه يريد أن يصبح صهرنا ، وهو ، كما ترون ، يكاد يموت شوقاً إلى سيفيم ، فإنه سيجد متعة أكبر في الجلوس في البيت عندنا" . أما أحمد فكان يريد أن يشرب كما يحب ، ولذا فقد اقترح أن يذهبوا إلى الكازينو ، حيث تعزف الموسيقى الأصيلة ، وتقدم الأغاني التركية . وأما سيفيم ، التي كانت تعرف – بالطبع – ذوق خطيبها ، فراحت تؤكد أنه لا يحب إلا الجاز ، ولذا يجب الذهاب إلى مطعم أوربي . ولما كان حسيب بيه لا رأي له في هذا الموضوع فإنه لم يشارك في النقاش .

– دعوا الأمر لي – أخذ ديوندار مهذار بيه زمام الحديث ، كما هي عادته – فالهدف من حفل الغداء هذا ليس ملء البطن ، بل مصالحة الخطيبين، ولذا يجب أن يتدفق النبيذ والعرق أنهاراً ، هذا أولاً ، وثانياً يجب نفخ سعيد ، كما يجب لكي تحل عقدة لسانه . ثم إن علينا ، أخيراً ، أن نكتشف نواياه الحقيقية ... صدقوني يا سادة أنه ليس ألذ من شرب العرق على أنغام الربابة...

وهكذا فقد جاء القرار لصالح الكازينو .

عند الصباح أرسل سعيد لخطيبته سلة أزهار ، وعند المساء جاء بنفسه، مثقلاً بالهدايا لكل أفراد العائلة .

– إنه على كل حال ليس بالشاب البخيل – قالت ميهجوري هـــانم ، قوية الملاحظة .

كان منظر الخطيب يعبر عن أقصى درجات الارتباك والندم العميق. حتى أنه حين دنا من يد الفتاة لم يرفع رأسه خوفاً من النظر إلى وجه حبيبته ، أما سيفيم على العكس ، تظاهرت أنها نسيت من زمان تلــك الحادثـــة غيــر السارة، وراحت تضحك بصوت عال ،

– كفاك صهيلاً – تمتم أحمد من بين أسنانه – وإلا ستبدأين البكاء ، فأنا أعرفك .

ذهبوا إلى الكازينو في سيارة ديوندار مهذار بيه . جلس أحمــد فـــي المقدمة ، أما الباقون فقد جلسوا في المقعد الخلفي . جلس سعيد وسيفيم بـــين الزوجين فيرفبيرفيرك ، اللذين لم يكن بالإمكان وصفهما بالنحيلين ، ولذا فقــد اضطر الخطيبان أن يلتصقا ببعضهما . وراح سعيد ، الذي أسكرته الفرحة ، يصلي إلى الله : "فلتبق هذه السيارة منطلقة إلى آخر العمر ، دون توقف ... ".

كان ديوندار مهذار بيه قد اتصل مسبقاً بصاحب الكازينو ، وطلــب منه حجز طاولة لهم . ولما كان شخصاً مشهوراً فقد أجلسوهم على مرأى من الجميع ، أمام "البيست" تماماً – مثل هذا الشرف لم يكن يحصل عليـــه حتـــى الشخصيات السياسية البارزة .

أخيراً بدأ الغداء . وجلس الجميع إلى مائدة عامرة بكل ما لذ وطاب ، وراحوا يرفعون الأقداح نخب سعادة العريس والعروس ... إنها المرة الأولى، التي يذهب فيها سعيد إلى الكازينو . كانت توقعات مهذار بيه في مكانها ، راح سعيد يشرب كل ما كان يصب له ، ولذا فقد سكر بسرعة .

شرع سعيد – وقد التفت ناحية أحمد – يتحدث دون توقف . وفجـــأة ازدادت سيفيم التصاقاً بسعيد ، إما تظاهراً ، وإما تحت تأثير المشروب ، أمـــا هو فقد تابع حديثه ، دون أن يولي خطيبته أي اهتمام . وحينذاك بدأت أمهـــا ترشدها :

– إنك تدليلينه كثيراً يا بنيتي . لا يجوز ائتمان الرجال . حتى ذلك الخالي من الجمال يمكن أن يتصور نفسه ، الله وحده يعلم من . وخاصة حينما يرى أن المرأة تلتصق به بنفسها ...

– آخ يا أمي – قاطعتها سيفيم – إنه لا يرى حتى أنفه .

– هؤلاء الذين لا يرون أنوفهم – تابعت ميهجوري هانم المحنكة ، يجب أن يخشى جانبهم بشكل خاص ... فهم يغررون بالفتاة المسكينة بكل سهولة . أقول لك بصراحة إن خطيبك لا يوحي بالثقة ... وبشكل عام سنعيش ونرى ، نأمل أن ينتهي كل شيء بالزفاف .

أخيراً التفت سعيد إلى عروسه ، وأخذ يدها بكل حنان :

– أريد أن أعترف لك يا سيفيم هانم ... أريد أن أقول لك شيئاً في غاية الأهمية ...

– قل ولا تستح – راحت سيفيم تشجعه .

ومن أجل الجرأة شرب سعيد جرعة أخرى من الخمرة ، ثم أطلق فجأة :

– سوف أصبح لاعب كرة ... كي أكون جديراً بحبك . لقد قطعت عهداً على نفسي أن أتعلم لعبة كرة القدم .

وقهقهت سيفيم .

– هل سبق لك أن ركلت الكرة ، ولو مرة واحدة في حياتك ؟

– نعم ... ففي ذات مرة ... في الثانوية ... شكل الشباب فريقين من الذين لا يتقنون اللعب ، وضموني إلى أحدهما . حاولت الفرار ، لكنهم أمسكوا بي .

– وهل لعبت ؟

– يا سلام ! وسجلت خمسة أهداف .

استولت الدهشة على سيفيم .

- يا لك من مضحك ... ولماذا تخليت عن اللعب ؟

- لماذا ؟ لأنهم أوسعوني ضرباً ، حتى قبل نهاية المباراة ...

- من ؟ الفريق الآخر ؟

- كلا .

- الصبيان المشجعون ؟

- كلا .

- الحكام ؟

- كلا ! بل أعضاء فريقنا .

- ولماذا ضربك أصحابك ؟ سألت سيفيم ضاحكة .

- كيف لماذا ؟ بسبب الأهداف الخمسة .

- حسداً ؟

- كلا يا سيفيم هانم ، بل لأنني سجلت الأهداف الخمسة كلها في مرمانا . كانت الشمس ترسل شواظها ، فلم أكن أرى الكرة ، ثم إن الجري في الملعب أطاش صوابي . ولو لم يمنعوني إذن لسجلت في المرمى الآخر أيضاً، لكنهم لم يتوقفوا عن مطاردتي ، حيثما ذهبت بالكرة يلحقوا بي . فكنت أسدد في المرمى ، الذي أتمكن من الوصول إليه ... وكما لو أنه نكاية فإن مرمانا هو الذي كان يطلع لي في كل هذه المرات الخمس .

- إذن فقد سجلت في مرماكم ؟ - راحت سيفيم تقهقه .

- لم أكن أقصد ذلك . فحينما يجري الجميع ، وهم يصرخون ، ليس هناك وقت لسؤال حارس المرمى لمن هذا المرمى ...

كان سعيد في غاية الحيوية ، إما بسبب الخمرة ، أو ربما لأنه شبع نوماً عند الطبيب ، حتى أنه راح - دون أن ينتبه - ينادي سيفيم بـ "حبيبتي"، وبصيغة المفرد .

– حبيبتي ، لسوف أصبح لاعب كرة من كل بد ، لكي أكون جديراً بحبك .

كثير من الرجال نادوا سيفيم باسم حبيبتي ، وكانت تعتبر ذلك أمراً طبيعياً ، لكن كلمات خطيبها جعلتها تخرج عن طورها .

– لي عندك رجاء – قال سعيد فجأة .

– ما هو ؟ – وأرهفت سيفيم سمعها .

– تنشر الصحف إعلاناً عن أن فلاناً من الناس يعطي في المكان الفلاني دروساً في الرقص الحديث أو الكلاسيكي ...

– وهل تنوي تعلم الرقص ؟

– كلا أريد أن أتعلم ، لأصبح لاعب كرة قدم ... إنني أحتاج إلى مدرس كرة قدم . إذا كان مثل هؤلاء موجودين فإنك تعرفينهم على الأرجح يا حبيبتي ...

توقفت سيفيم عن الضحك ، وشعرت فجأة بالرغبة في أن تنظر في عيني هذا الإنسان – هل هو أحمق فعلاً ، أم أنه يتلاعب بها ، ويسخر منها ، ومن العالم كله ؟ وهل يعقل أن أمها على حق ، وأن بمقدور هذا الإنسان أن يخدعها ... يخدعها هي ، سيفيم غريفون "مسبعة الكارات" ... هل يعقل أنه يريد أن يتلاعب بها ؟ كلا ، لن يكون ذلك أبداً ... هذا إذا لم يكن هو الشيطان بعينه ! ودب الخوف في نفس سيفيم غريفون ...

– سعيد . انزع نظارتك ! أوعزت له ...

– لكنني لن أراك يا سيفيم هانم ... لا أستطيع ...

– انزعها ، انزعها هيا ! وارتجف صوتها .

– طيب ... أرجو المعذرة . فحين أكون بدون نظارة ، أشعر وكأنني عار وسط الميدان ... منذ أن وعيت على الدنيا ، وأنا ألبس النظارة ، وأظن أني ولدت في نظارة .

نزع سعيد النظارة ، فرأت سيفيم حدقتين ضئيلتين ، وبدا وكأن عيني أعمى تنظران إليها . إن مثل هذا العبيط لا يمكن أن يخدع إلا نفسه .

_ إلبس النظارة وبسرعة ... قالت سيفيم ، وأدارت وجهها .

لم يفهم أحد ماذا جرى بين العريس وعروسه ، غير أن ديوندار مهذار بيه أحس بالتغيير ، الذي طرأ على جو السهرة ، فملأ الأقداح ، وصاح بصوت عال :

– نخب السعادة .

كان سعيد بالكاد يحرك لسانه ، فقد شرب اليوم أكثر مما شرب في حفل خطوبته .

– إنني عموماً هكذا – قال سعيد ، وهو بالكاد ينطق الكلمات – إنني عموماً لا أريد شيئاً ... لكن إذا ما أردت فلسوف أبلغ مرامي من كل بد ... ولسوف أصبح لاعب كرة ... لقد أردت أن أصبح رياضياً ، فأصبحت ...

– ها قد عدت إلى حسابك ... ما بالك متعلق به تعلق الدجاجة بالبيضة ؟ قاطعته سيفيم .

– الرياضيات ... الحساب ... دمدم سعيد – الحساب هو علم العلوم كلها ... لا أسمح بحضوري أن ...

– اسكت بالله عليك ، فقد تورّم رأسي ...

– طيب ، طيب ... يا حبيبتي ! – أرجوك أن تعثري على معلّم كرة قدم – عاد سعيد يتوسل إليها – سوف أدرس ... سترين ...

– لكن لا يوجد معلمو كرة قدم .

بيد أن سعيداً لم يرعو :

– كلا ، فأنت تعرفين يا سيفيم هانم . تعرفين ... لقد أخبرني أركان بيه أن أحمدنا يلقب بـ" بروفيسور كرة القدم" . فاطلبي منه أن يعلمني ، ولسوف يوافق . سوف أدفع بسخاء ...

والتفتت سيفيم ناحية أحمد :

- بالله عليك ، خلصني منه ، لقد دوخني هذا الموديل ...

انتقلت سيفيم ، وجلست بجوار أحمد ، أما ديوندار مهذار بيه وإيرول فقد أجلسا سعيداً بينهما ، وراحا يتسابقان في إطلاعه على خطط عغ .

- إن أمامنا اللقاء الهام مع الرومانيين - قال مهذار بيه . بعد شهرين سنسافر إلى بوخارست ، وسترافقنا سيفيم هانم . إنها ستسافر معنا كي تحافظ على الروح المعنوية للفريق التركي الأفضل . ربما تسافر أنت معنا أيضاً ؟

فجأة أثار كلام مهذار بيه قلق سعيد ، الذي دبت الخمرة في رأسه . لقد صدق من قال إن أفضل مكان للمشروبات الروحية هو الزجاجة .

- ماذا يعني هذا ؟ - قال العريس باستياء - سيفيم خطيبتي ، وستسافر مع عغ إلى بوخارست ؟

سارع أركان بيه الفطن فملأ الأقداح ، ورفعها :

- بسعادة العريس والعروس .

لكن سعيداً لم يعد يريد أن يشرب ...

صعد إلى "البيست" مغنٍ ، في قميص أحمر ، وبدأ أغنية لم يسبق لسعيد أن سمعها :

أنت في قلبي وحيدة

لا أعرف طعم الراحة والنوم

لا أستطيع الوصول إلى الحبيبة

إذن فهي لا تحبني

كوني شمسي في الليل

وداوي الجرح في صدري

دعيني أصل إليك

وخففي لوعتي ...

كانت الأغنية تلامس شغاف قلب سعيد ، فهي إنما تصف حبه . وعلى الرغم من أن كلمات أخرى بدأت تتردد على "البيست" من زمان ، فقد استمر سعيد يكرر :

- أنت في قلبي وحيدة ، لا أعرف طعم الراحة والنوم ...

وتراءت سيفيم الحبيبة أمام عينيه ... وبدا أن العريس قد انتعش .

- "كوني شمسي في الليل - همست شفتا سعيد - وداوي الجرح في صدري ... " . لسوف ترون ... - قال سعيد فجأة بصوت عال - لقد قال لي الطبيب ... سوف أصبح لاعب كرة ... نجماً ... لاعب كرة مشهوراً ... ملكاً...

ثمّ عاد يغني :

- "لا أستطيع الوصول إلى لحبيبة . إذن فهي لا تحبني ...".

أثار سلوك سعيد الغريب دهشة سيفيم ، حتى أنها فكرت

- "هل يعقل أن الله لم يجد الوقت الكافي ليخلقه بشكل جذّاب قليلاً؟.."

لم تغادر الشلة الكازينو إلا بعد منتصف الليل بكثير . وقد اقترح ديوندار مهذار بيه التوجه إلى البوسفور .

- لن ننحشر في سيارة واحدة ، كما السردين المعلّب ... فليستقل العريسان سيارة ، وينطلقا في إثرنا ...

وهذا ما جرى . فقد جلس سعيد إلى جانب سيفيم ، وهو لا يزال يهمهم بكلمات الأغنية : "أنت في قلبي وحيدة ، لا أعرف طعم الراحة والنوم..." والدموع تجري على خديه .

- لماذا لا تشتري سيارة ؟ - سألت سيفيم فجأة .

- سيارة ؟ لا أعرف ... ومن سيقودها ؟ فأنا لا أستطيع .

- أنا .

- فعلاً ، لماذا لا أشتري ؟ لماذا لم تطلبي ذلك من قبل يا حبيبتي ؟

نظرت سيفيم إليه نظرة جدية .

- هل تعدني بشرائها يا سعيد ؟

- طبعاً ما دمت ترغبين ...

أخذت سيفيم تمسد على رأسه ، كأنه طفل ...

وعاد سعيد يبكي . ولكن ما السبب ؟ "لا أستطيع الوصول إلى حبيبتي إذن فهي لا تحبني ... " .

وقبلته سيفيم .

- متى ؟

ولم يفهم سعيد .

- ماذا متى ؟

- متى ستشتريها ؟

- اليوم ... "دعيني أصل إليك ، وخففي لوعتي ... " .

أثناء العودة من البوسفور ، قالت سيفيم لأمها إن سعيداً سيشتري لها سيارة ، وأعلنت بكل تصميم :

- لقاء هدية كهذه يجب أن ندعه يبيت عندنا .

أخذ الوالدان يحتجان معاً ، وهما لا يكفان يذكران بالأخلاق والفضيلة والحشمة ، لكن سيفيم ظلت على إصرارها :

- طيب وما المانع ؟ لكأن أصحابي لم يبيتوا لدينا ؟

- أصحابك شيء ، وخطيبك شيء آخر ...

حتى أحمد وقف إلى جانبها . وبالطبع فقد كان ما أرادت سيفيم ... تعاون أحمد مع إيرول فجرّا سعيداً عبر السلم ، ثم أرقداه على الأريكة ...

وطلب الزوجان فيرفييرفيرك من أحمد البقاء ، لكن أحمد كان في هذه المـــرّة ثابتاً لا يلين .

استيقظ سعيد باكراً ، والجميع لا يزالون يغطون في النـــوم . جلـــس على الأريكة ، وهو غير قادر على معرفة مكان وجوده ؛ فهو لم يكن قـــادراً على أن يرى شيئاً بدون نظارات . وبعد أن تلمّس كل شيء من حوله ، عثـــر على النظارات أخيراً على الأرض ، وإذ أصبح بصيراً نهض ، وارتدى ثيابه، ثم فتح الباب بكل هدوء ، كي لا يوقظ أحداً ، وخرج إلى الشارع .

حينما مثل سعيد بعد مضي بعض الوقت أمام عمته كـــان لا يـــزال بالكاد يقف على قدميه . أما بيرين هانم فقد استولت عليها الدهـــشة ، إذ رأت ابن أخيها سكراناً ، وأطلقت صيحة هائلة ، وكادت تفقد وعيها .

ثمرات العلاج الأولى

منذ الآن أصبحت سيفيم وأحمد وسعيد غالباً ما يظهرون معاً – حتى أن الآخرين أطلقوا عليهم اسم "الثلاثي المرح" ، وكانت الصحافة تنشر أخبارهم في قسم شؤون المجتمع . ولا بد من الإشارة إلى أن سيفيم كانت تكرس القسم الأكبر من وقتها لأحمد ، دون أن تنسى سعيداً ، إذا كان لا بد من الذهاب إلى حيث يجب دفع النقود .

ظهر في الآونة الأخيرة في بيت آل فيرفييرفيرك خلاف في الرأي بين الأم والابنة ، لا بل نوع من المناقرة ، إذ راحت سيفيم تلوم ميهجوري هانم ، زاعمة أنها تماطل في تحديد يوم الزفاف عمداً . وكان سعيد يبذل قصارى جهده من أجل التعجيل في تحديد هذا اليوم ، ظناً منه ، على ما يبدو ، أن سيفيم سوف تكون ملك يمينه بعد ذلك . (أما أحمد فلم يكن يحسب له حساب ، فهو أقرب الأقرباء) . أما سيفيم فكانت على عجل لسبب آخر تماماً : فما إن ينتقلا إلى منزلهما الجديد ، حتى تصبح أخيراً امرأة حرة ، والأهم من كل شيء أنها ستتخلص – بإذن الله – من رقابة الأهل ، الذين لا يتركونها تخطو خطوة واحدة . إن أياً كان سيفقد توازنه النفسي بسبب مثل هذه الوصاية . وراحت سيفيم تضرب الأرض بقدميها ، وهي تصيح على والدتها :

– أريد أن يتم الزفاف فوراً . ما بالك لا تكفين عن التلاعب بـ(موديلي) في البيت كانت سيفيم تلقب سعيداً بلقب (موديل) طلبت منه شراء بيت فاشتراه ، لم يعجبك الشارع ، فاشترى بيتاً في شارع آخر ، أعلنت أن البيت صغير ، فاشترى بيتاً كبيراً ، وحين قلت إن البيت كبير ، اشترى آخر أصغر... واشترى الأثاث ، وفرش كل الغرف . والآن ، وحين أصبح كل شيء جاهزاً ، عدت إلى أسطوانتك : تارة أثاث غرفة السفرة فاتح جداً ، وأخرى – غطاء المشمع في المطبخ – على العكس – داكن جداً ... فهل سينتهي هذا في وقت من الأوقات، أم لا ؟

وترد الأم لابنتها الصاع صاعين .

- ماذا جرى لك ، هل فقدت عقلك تماماً ؟ هل يعقل أنك وقعت في غرام هذا العبيط ؟ ستلحقين على الزواج ، لن تنفجري .

- لقد انفجرت . إنكم قادرون على دفن أيّ كان ! لست أرغب في الحياة على هذا النحو ، أريد الزواج ... لا يسمحون لأحد بالقدوم إلى عندي ، ولا يسمحون لي بالخروج من البيت . تصوروا أنني لا أستطيع الذهاب إلى الملعب لمشاهدة أصحابي ، إذ لا بد لذلك من الزواج أولاً ... طيب هيا زوجوني ...

- لا بد أنك يا ابنتي جننت - صرخت أمها - هل تريدين تلطيخ اسم عائلة فيرفييرفيرك المحترمة ؟ هل أستطيع أنا ، ميهجوري هانم ، على هذا النحو ، وانا على قيد الحياة ، ترك بنيتي الوحيدة تذهب إلى جهة مجهولة ؟... لا تقلقي سوف يشتري في خاتمة المطاف البيت ، الذي أريده أنا ، ويفرشه بالأثاث ، الذي يعجبني أنا ... أما أنت يا سعادتي فقد صبرت الكثير ، وبوسعك أن تصبري القليل ...

وفي اللحظة ، التي زعقت فيها سيفيم : "لا أريد ... " رن الجرس . لقد جاء أحمد .

واستمر النقاش .

- إذا كان هكذا فليتوقف موديلي عن القدوم إليّ . لست أرغب في رؤيته . إذا كان القدوم إليّ محظوراً على الجميع ، فلا أريد أن يطأ عتبة هذا البيت بعد الآن . ما إن أرى سحنته حتى يبدأ خفقان قلبي ...

فتحت الوصيفة باب غرفة الضيوف ، وما إن رأت سيفيم أحمد ، حتى هرعت نحوه تستنجد به .

- أحمد ، حبيبي هلا قلت لها ...

وقاطعها أحمد :

- إنك تزعقين بصوت يصل إلى الشارع .

طفرت الدموع من عيني سيفيم ، وراحت تبرر موقفها :

- إنني أطلب أن يتم الزفاف في أقرب وقت ، أما أمي ففي كل يوم تخترع شيئاً جديداً . فقد قام موديلي بإلصاق ورق الجدران في البيت كله ، لكن أمي لم تعجبها نقشة الورق ، لكأنها عاشت كل حياتها في بيت بورق جدران . فماذا فعل موديلي ؟ مزق القديم ، وألصق ورقاً جديداً . طيب قل يا أحمد ألست على حق ؟ ... لقد وعد موديلي بشراء سيارة عند الزفاف ، فماذا ننتظر إذن ؟

- لو أنك قلت من البداية إنك تريدين الحصول على السيارة بسرعة. ظلت ميهجوري هانم متشبثة برأيها ، المبني على قناعتها الخاصة : فليفهم آل ريجيصين أنه يستحيل خداع آل فيرفبيرفيرك ، ولا يمكن شراؤهم بثمن بخس.

في ذروة المعركة العائلية ظهر العريس ، ومعه علبة من الكستناء المغطسة بالسكر . واكتمل نصاب "الثلاثي المرح" ، ولما كانت ثائرة سيفيم لم تهدأ بعد ، فقد جاء استقبالها لخطيبها أبرد من العادة .

قدمت القهوة ، وقال سعيد ، بعد أن استفسر بأدب عن صحة الجميع، إن تأثيث البيت الجديد قد اكتمل ، ودعا ميهجوري هانم إلى مشاهدة العش الجديد . فاكتفت هذه بهزّ رأسها ، دون اكتراث .

- حسناً . سوف أحاول إلقاء نظرة في وقت ما .

وشحب وجه سيفيم غضباً ، وخوفاً من مناقرة جديدة ، غادرت الأم غرفة الاستقبال على عجل .

استقر أحمد في مقعده بشكل أنسب ، وراح يروي أخبار النادي :

- إن مدربنا الجديد طومبسون مجنون فعلاً . فلا نسمع منه إلا : "فكروا بالتنفس ... فكروا بالتنفس ... " ظل يسوقنا حتى الظهر عبر الملعب ، كأننا كلاب مروضة ، تارة نقفز ، وأخرى نثب ، و ثالثة نجري لمسافة مئة، متر و بعد هذا كله رتب مباراة بيننا ... أوليس سافلاً ! من يستطيع تحمل هذا ؟ قسماً بالله إن ساقي بالكاد تحملانني.

- ليهب الله ساقيك القوة يا عزيزي .

– شكراً يا عزيزتي .

و إذ اعتبر سعيد أن صمته الطويل غير لائق ، سارع إلى الاشتراك في الحديث ، وبكل براءة طرح سؤالاً ترتبت عليه عواقب لم تخطر له ببال ، وإلا لما نبس ببنت شفة ، على الأرجح .

– وما هي مهنتك الأساسية يا أحمد بيه ؟

ولا تسل عن استياء دفاع عغ المشهور ، حتى إنه خيّل لسعيد أن ساق أحمد اليسرى قد اختلجت .

– ماذا ؟ مهنة ؟ وأساسية أيضاً ؟ أم انك لا تعرف أنني ألعب في الطاقم الأصلي ؟ إنني لاعب كرة . نجم ! مفهوم ؟ !

لم يخطر ببال الرياضي الساذج ، الذي لا يعرف معنى العمل ، لم يخطر بباله أبداً أنّ بالإمكان أن يكسب الإنسان رزقه من خلال الجري وراء الكرة في الملعب .

– عفواً ... لم أكن أعرف ... إذن ... هل تلعب كل الوقت ؟ ... ولا شيء آخر ؟ ...

أخرج مثل هذا الجهل أحمد عن طوره .

– وهل هذا قليل برأيك ؟ الله ، الله ! اسمع يا أخي . هل أنت آتٍ من القمر ؟ لقد أوضحت لك ذات مرّة من أكون ، وماذا يكتبون عني في الصحف. يا سلام ... يا لهذا الصاحب الذي جاءنا ! لقد أخرجني عن طوري ...

– وهل كرة القدم برأيك ليست مهنة ؟ اسأل في الشارع أول من تصادفه من هو أحمد الجدار – قالت سيفيم باستياء .

– إنني ... إنني ، ليس هذا ما قصدته ... تمتم سعيد الخائف .

– اسأل عنه ألف شخص – تابعت سيفيم – وسيحدثك الجميع ، حديث رجل واحد ، عن حياته بكل تفاصيلها . وبعد ذلك اسأل عن أحد الوزراء ، وحين ذاك ستفهم كل شيء .

– ما رأيك بهذا يا أخ ؟ استفسر أحمد ، الذي سرّه هذا التأييد البالغ الحماسة .

كانت ميهجوري هانم هي التي أن أنقذت سعيداً من الورطة ، فقد دعت الجميع إلى الغداء . لكن سعيداً اعتذر أنه لا يستطيع مشاركتهم الغداء للأسف ، وانطلق إلى عيادة رفيق .

بعد فحص طبي شامل ، استغرق أسبوعاً كاملاً ، استنتج الطبيب رفيق وصديقه البروفيسور أنّ الأمور ليست على ما يرام لدى المريض بالنسبة لغدد الإفراز الداخلي ، وبالنسبة للبنكرياس . ومن هنا كل مصائب سعيد : النمو غير الصحيح ، الضعف الجسماني ، سوء الرؤيا ، لون الجلد السقيم ، غياب الشعر عن الوجه . بعد وضع التشخيص تفضل البروفيسور ، ووافق على علاج سعيد ...

تعود أمراض ولي عهد آل (ريجيصين) إلى نظام الأكل الخاطئ وإلى الطعام الرتيب بالدرجة الأولى . فلم يسبق لسعيد أن تناول اللحم والبيض . وبعد ولادته مباشرة حرم من حليب أمه ، أما مربيته فلم تكن تستطيع إرضاعه لأنها كانت عاقراً ، وقد دخلت بيت شفران زاده تحت اسم مرضعة ، بهدف التأكد من صحة الشائعات ، التي راجت في اسطمبول حول هذه الأسرة النبيلة. وكانت النتيجة أن سعيداً لم يعرف طعم حليب أمه . وباختصار فلولا العمة بيرين هانم لكان سعيد قد أعطاكم عمره من زمان . وهكذا ، فبدلاً من تربية القطط ، على عادة العوانس الثريات ، كرست العمة حياتها لابن أخيها ، وأرضعته حليب البقر العادي ، وسهرت عليه ، وأنقذته من الأمراض ، التي لا نهاية لها .

حدث كل شيء ذات مرّة في الصيف ، حين أصيب الطفل سعيد بالديسانتريا . وبالكاد أنقذوه ، لكن الأمراض توالت ، فمرّ بكل أمراض الأطفال ، التي يمكن أن نجدها في الموسوعات الطبية . وحتى الآن لم يكتشف العلم الوطني هذه الظاهرة الطبية الشاذة – كيف استطاع البقاء على قيد الحياة والنمو حتى مئة وأربعة وثمانين سنتيمتراً ؟

كان قصر آل ريجيبصين ذوي الحسب والنسب خاناً حقيقيـاً ، وبيتـاً يعبره من هبّ ودبّ ، سادوم وعمورة . ولم يكن بالإمكان معرفة من يعـيش فيه ، ومن جاء ضيفاً ، ومن هو قريب الآخر ، ومـا هـي درجـة القرابـة بالتحديد. ترعرع سعيد ولداً مدللاً وعنيداً ، وأصبح إطعامه التسلية المفـضلة لدى الكبار ، المنحدرين من شجرة شفران – زاده – ريجيبصين . كان الجميع في البيت يلف ويدور : الدبلوماسيون المتقاعدون يقفزون على قـدم واحـدة ، الكهول يصيحون صياح الديكة ، النساء يؤدين رقصة هز البطن . والجميـع يصفقون وينادونه : "كل يا عصفورنا ، كل يا سعيد باشا" حتى أنه ليخيل إليك أن كل هذه الألعاب والرقصات لم تكن تهدف إلى جعل سعيد يأكل ، بل بهدف التسلية والمتعة لهم أنفسهم .

منذ نعومة أظفاره وسعيد يعيش في خوف دائم ، كان يخاف الجميع ، عدا العمة بيرين هانم . فمذ كان عمره نصف عام أخافته مربيته بشكل رهيب، فحين اقتربت من سريره ، ورأت التصعيرة على وجهه ، صاحت على حـين غرّة بصوت مذبوح : آ – آ ! الحمد لله لقد ابتسم سعيدنا ! تعالوا هنا ، فسعيد باشا يبتسم !" . وجرى جميع من في البيت" وأحاطوا بالسرير إحاطة الـسوار بالمعصم ، وراحوا يصخبون بشكل لا يطاق ، فكـان أن أصـيب الـصغير بالمرض في اليوم نفسه . بعد هذا أصبح يصرخ بأعلى صوته، حال اقتـراب أيّ كان منه ، باستثناء عمته .

ساعدت تفاصيل سنوات طفولة سعيد ، التي روتها العمة بيـرين – هانم ، البروفيسور ورفيقاً في تحديد طبيعة المرض ، ووضع العلاج الناجع . وكان رأي البروفيسور أن على سعيد ، بعد المرحلة الأولى من العـلاج ، أن يسافر إلى أمريكا ، حيث يوجد معهد العلاج بالأساليب الحديثة . كـان مـن المستحيل إقناع سعيد بالسفر إلى أمريكا بدون سيفيم ، وهذا ما كان الـدكتور رفيق يدركه ، ولذا فقد راح ، أثناء جلسات التنويم ، يوحي للعريس المـريض أنه سيصبح لاعب كرة مشهوراً ، وينبغي أن يعالج ، ولهذا السبب يجـب أن يسافر إلى أمريكا بدون عروسه ، وإلا فلن يجديه هذا العلاج نفعاً ...

في كل مرّة يدخل فيها سعيد عيادة رفيق يشعر بالثقل فوراً في جفنيه، وتلتصق عيناه ، وبالكاد يصل إلى الأريكة ، دون أن ينسى أن يقول بتحدٍ : "لا

أصدق أن بالإمكان أن يغفو الإنسان نتيجة الإيحاء العادي" – وللحال يروح في سبات عميق .

إن الأرقام تؤثر بشكل سحري على سعيد – فالمرضى ينومون بوساطة الحساب ، حتى أنه أغفي ذات مرّة حين سأل رفيق زوجته ما هو رقم هاتف أحد معارفه .

أخذ رفيق ، الصديق الصدوق ، يتحدث مع سعيد النائم عن الماضي، وعن الحاضر والمستقبل . وبعد كل جلسة يغادره سعيد نشيطاً مرحاً ، لكأنه ألقى عن كاهله بعبء ثقيل .

وفي ذات مرّة ، وقبيل زيارة رفيق ، جلس سعيد إلى مائدة الغداء ، بانتظار أن تقدم له مدام أنجيلا الطعام . لم تكن عمته في البيت . مرّت خمس دقائق ، وعشر ، ومن ثم نصف ساعة دون أن يظهر لمدام أنجيلا أثر . وخوفاً من التأخر على رفيق ، ذهب سعيد إلى المطبخ ، فوجد مدام أنجيلا ، وقد علقت النظارات على أنفها ، وهي غارقة في قراءة الجريدة .

– ماذا حدث يا مدام أنجيلا ؟ فأنا انتظر ، الله وحده يعرف كم من الوقت !

– إنني قادمة يا سيدي الباشا ... الطعام يكاد ينضج ... سأكمل القلاءة (القراءة) ... يكتبون عن أحمد بيه ، الذي كان يأتي لزيالتنا (لزيارتنا)... شيء ظليف (ظريف) جداً يا سيد الباشا ... لا يستطيعون أن يقللوا هل يأخذونه معهم إلى لومانيا (رومانيا) أم لا ... فقد حلم (حرم) من المشالكة (المشاركة) في مبالاتين (مبارتين) ...

بعد أن انتهت من قراءة المقالة عن أحمد ، قدمت الطعام ، وحين وصلت العمة ، كان سعيد يطالع الصفحة الأولى من الجريدة .

– "تغيير في الحكومة" – قرأ سعيد المانشيت .

– ماذا تقول يا بني ؟ – سألت بيرين هانم .

– أقول إن هناك تغييراً في الحكومة . سوف يصبح وزير المعارف وزيراً للعدل ، أما وزير العدل فيصبح وزيراً للمعارف .

– ومن هما الآن وزيرا المعارف والعدل ؟ – سألت العمة .

وهنا تذكر سعيد كلمات سيفيم أن أي شخص في الشارع يحدثك عن حياة أحمد ، لكنه عاجز عن أن يذكر لك اسم أي وزير ...

نعم إن سيفيم على حق فعلاً . فلا مدام أنجيلا ، ولا عمتي تعرفان أسماء الوزراء في الحكومة ، لكنهما بالمقابل تعرفان جيداً من هو أحمد الجدار، وبماذا تشتهر يسراه .

راحت مدام أنجيلا تروي لبيرين هانم بكل حماسة ما كتبته صحف الصباح عن أحمد . واختلفت المرأتان حول عدالة العقوبات الانضباطية ، التي اتخذت بحق دفاع عغ .

– الله ، الله ، يا عمتي وهل أنت مهتمة بأحمد أيضاً ؟ في مثل سنك؟ – قال ابن أخيها باستغراب .

– ماذا تقصد في مثل سني ؟ إنني أهتم بكل شيء يا ولدي ! لقد انصرفت إلي رياضياتك ، ولم تعد ترى الدنيا بسببها . فكيف يمكن أن يكون الإنسان تركياً ، ولا يعرف أحمد الجدار ؟ وهل تعرف من هو عثمان الفلفل ؟

– هل سبق لك أن كنت في الملعب ولو مرّة واحدة ؟ – سأل ابن الأخ .

– كنت أو لا ، ما الفرق ! لا يمكن أن أجهل ما يعرف الجميع ...

– ولماذا ؟

– لأنك كل يوم تجد صورة هذا الأحمد في أي صحيفة، أو مقالة عنه... ولسوف تعرف ، أردت أم لا ...

بعد الغداء غادر سعيد البيت . استقل تاكسياً ، قاصداً عيادة رفيق . بدأ المطر، وعلى المواقف رأى الناس يتبللون ، بانتظار الباصات . وشعر سعيد بالحرج ، إنه يركب السيارة لوحده .

– ربما تأخذ أحداً ؟ – قال للسائق – فلن أعترض ...

أوقف السائق السيارة فامتلأت للتو بالناس . فإلى جانب سعيد جلست امرأة مع صبي ، ورجل كهل ، وإلى جانب السائق جلست فتاة وامرأة . وراح الركاب يصبون اللعنات على البلدية ، العاجزة عن توفير وسائط النقل للمدينة، والتي ترغم الناس على انتظار الباصات الطويل ، وفي طقس سيء مثل هـذا اليوم ...

وقال الرجل مخاطباً السائق :

– قل لي يا صاحبي من هو رئيس بلديتنا الآن ؟

– وهل هو جاري ، أو صاحبي كي أعرفه ؟

– وهل الذنب ذنب البلدية ؟ – تدخلت المرأة ، الجالسة في المقدمة – بماذا تفكر الحكومة ؟ لماذا لا تشق الطرق ؟ من هو الـوزير ، الـذي يقـوم بذلك؟

– وزير الداخلية ، أو وزير الأشغال العامة عندنا ؟ – سألت المـرأة باستياء . وخيّم الصمت المطبق على السيارة .

– ومن يعرف هؤلاء الوزراء الآن – عاد الرجل الجالس قرب سعيد إلى الكلام – وزراء ... ليس فيهم من الوزراء إلا الاسم ...

– إنك على حق يا أفندي ، جرب أن تتذكر أسماءهم ، وهم يتغيرون كل يوم .

أدار السائق مفتاح المذياع . كان المذيع يتحدث عن المباريات القادمة للفرق التركية ، وللحال انتقل الحديث إلى كرة القدم .

فقالت المرأة ، الجالسة في المقدمـة ، إن لـديها ولـدين يتنـاقران باستمرار لأن كلاً منهما يشجع فريقاً .

– وأنت أي فريق تشجع يا أفندي ؟ – سال الرجل سعيداً الصامت .

– فريق عغ – ردّ سعيد بفخر .

– عين العقل يا أخ – قال السائق مؤيداً ، وراح يمتدح أحمد الجدار، مفخرة عغ ، والمنتخب الوطني أيضاً – لكن أحد الأغبياء قرر إبعاده عن اللعب ، ولن يأخذوه الآن إلى رومانيا .

– إنه لاعب جيد – وافقت المرأة ، التي تشجع محد ، لكنه في غاية الخشونة .

– إنه يا هانم أفندي ليس خشناً ، بل قاسٍ – اعترض الرجل – والخشونة والقسوة ليستا شيئاً واحداً .

– نجم كرتنا – قال السائق – بروفيسور ...

– سوف يريهم في رومانيا – قال الصبي واثقاً .

– كيف ؟ وأنت تعرف أحمد – سأل سعيد ذاهلاً .

– ها ! ومن لا يعرفه ، فهو وسيفيم ...

ابتسم الجميع ، عدا العريس ، إعجاباً بسعة معارف الصبي الرياضية، أما الرجل فسأل :

– هو ومن ؟

– إنها في "دالتون" مع أحمد ، في حفل الخطوبة ...

اسكت ! قاطعته أمه – لا تخرف بما لا تعرف ...

– لقد قرأت في الجريدة – قال الصبي بصوت حزين .

– لا داعي لقراءة الحماقات المختلفة .

احمر سعيد وتقنفذ ، كأنه يخاف أن يعرفوه . بعد ذلك راح يبحث في جيوبه بارتباك ، وأعطى النقود للسائق :

– أوقف السيارة ، فسأخرج هنا .

خرج سعيد ، وبعد أن انتظر قليلاً، استقل سيارة أخرى . وفي السيارة استمر – دون إرادة – يفكر بسيفيم وأحمد .

" نعم ، هذا صحيح ! إن أحداً لا يعرف أسماء الوزراء ، لكن الجميع يعرفون أحمد الجدار ! يعرفون كل حياته ... " .

حين دخل سعيد عيادة رفيق ، أحس بالثقل يداعب جفنيه ، والتصقت عيناه .

– كلا لا أصدق أن بالإمكان الإغفاء بالإيحاء – قال سعيد – على عادته – وراح في سبات عميق .

دروس في كرة القدم التركية

– لا أستطيع أخذ النقود دون مقابل ...

– لا تتحامق يا حمودتي ! لا يجوز تفويت فرصة كهـذه . سـوف تعطيه دروساً مأجورة .

– إن رأسه بدون مخ ، فهمنا ، لكن ماذا عنك أنت ؟ ألا تعرفين أنه لا يمكن تعلم السباحة دون دخول الماء ؟ فكيف له أن يصبح لاعب كـرة إذا كانت ساقه لم تضرب الكرة ؟

– مهمتك أن تقبض النقود . لقد أخبروه أنهم يلقبونـك ببروفيـسور الكرة ، وهكذا فهو يريد أن يأخذ دروساً يا بروفيسور بيه . إنه لا يكف يأتيني، ويتوسل إلي لكي أتحدّث معك . قل لي ، كم سنة بمقدورك أن تركض عبـر الملعب ؟ حان الوقت للتفكير بالمستقبل . لن يضيرك أن تعثر على فتاة غنية ، وإلا فاتك القطار ...

– نعم إن السنوات تمر ، ولا يطول العمر بالإنسان حتى يفارق ...

– أما موديلي فرجل غني . وإذا حصلت منه على القليل فلن يفتقر... إن لديهم مصادر كثيرة : تارة يبيعون دكاناً ، وأخرى منزلاً ...

– حين أترك الكرة سأصبح مدرباً ...

– ومع ذلك فلا مفرّ لك من الكرة . وما يمنعك من أن تفتح مخزنـاً رياضياً ؟ وحين ذاك ستكون بحاجة إلى النقود ، فبـدونها لا يمكـن أن تبـدأ المشروع .

وبالفعل فلماذا لا يفتح مخزناً ؟ فاسمه أفضل من أي دعاية ، ولسوف تسير تجارته بشكل رائع على الأرجح ... حتى عهد قريب كان رشيقاً وخفيفاً،

يمور حركة في الملعب ، ولم يكن بوسع أحد اللحاق به ، أو مجاراتـــه . أمّــا الآن فقد ثقل ، وترهّل . وبدأ يشيخ ، وأصبح لعبه أكثر خشونة ، وهنا يكمـــن سبب لعبه القاسي في أثناء المباريات . فحين أدرك أنه لم يعــد قــادراً علــى اللحاق بالكرة ، راح يركل أقدام اللاعبين . وكانت ركلاته متقنة ، فهو مـــاهر في هذا الفن ، ولم ينتبه الحكّام لأفعاله هذه فوراً ...

أدركت سيفيم أن أحمد بدأ يصغي لنصائحها ، فأصبحت أكثر إلحاحاً:

– ويا لها من دروس ! سوف تأتي مرّة واحدة في الأسبوع في ساعة فراغ ، وتجعل موديلي يجري في الحديقة ...

ما إن أقنعت أحمد ، حتى اندفعت تتصل بخطيبها . كانت بيرين هانم هي التي رفعت السماعة ، وقالت إن سعيداً في الجامعة ، لديه محاضرة .

– حين يأتي بلغيه أنني اتصلت .

– حسناً يا ابنتي – ردت بيرين هانم بجفاء ، ووضعت الـــسماعة . إنها لا تزال غير مرتاحة إلى هذه الفتاة غير المهذبة ، ولم تكن ترغـــب فـــي الثرثرة معها .

علّقت سيفيم السماعة ، وقالت بحيرة :

– لقد جنّ موديلي تماماً ... تصوّر أنه ذهب إلـــى محاضـــرة فـــي الجامعة !

بدا لها ، وهي التي لم تسمع محاضرة واحـــدة فـــي حياتهـــا، هـــذا التصرف سخيفاً .

– لكن الشباب سيوف يسخرون مني يا سيفيم – قال أحمد .

– هل تخشى أن يعرفوا بأمر دروسك مع سعيد ؟ سوف أقول له أن يحرص على بقاء كل شيء طي الكتمان . إن موديلي من هذه الناحية قبر .

بينما كانت سيفيم وأحمد يتشاوران كيف يذران الرمـــاد فـــي عينـــي سعيد، كان هذا جالساً في محاضرة الدكتور رفيق ، يـــصغي إلـــى العـــرض العلمي المفصّل عن مرضه الغريب . لكن القسم الأول من هذه المحاضرة جاء

مكرساً للحديث فقط عن سمات المرض ، ولذا فقد استمع سعيد بكل اهتمام إلى صديقه ، دون أن يخامره الريب في شيء .

– إن مدارس الطب النفسي المختلفة تعيد الأمراض النفسية إلى مجموعات ، تظهر نتيجة مختلف أشكال الصدمات ، التي تحصل في الطفولة المبكرة ، والتي يبثها الوعي لاحقاً . وفي الوقت نفسه يمكن أن تظهر تحت تأثير آلية المنعكسات الشرطية ... إن بعض الناس ، ذوي الإرادة الضعيفة ، لا يريدون التداوي لأنهم على قناعة أن المرض أفضل من الصحة ... فالمرض بالنسبة لهم يشكل ملاذاً يحميهم من أعباء الحياة ، وهكذا فهم يحتمون من الحياة بالمرض ، والخوف من الحياة أقوى من إرادتهم .

وعلى الأرجح أن سعيداً ما كان ليفهم أن الحديث يدور عنه لولا أن رفيقاً أخذ يتحدث عن طرق العلاج ، التي كان قد أطلّع عليها .

– مع هذا النوع من المرض يجب استخدام مختلف أشكال العلاج : ممارسة الرياضة ، الطب النفساني ، والأدوية ...

بعد المحاضرة أحاط الطلاب برفيق ، معربين له عن إعجابهم . وبدوره هنأ سعيد صديقه ، دون أن يجعله يشعر أنه أدرك أنه كان موضوع هذه المحاضرة .

خرجا سوية ، وهما يثرثران بشكل طبيعي . لكن ما إن ودّع سعيد رفيقاً ، قاصداً البيت ، حتى عادت أفكاره بشكل لا إرادي إلى المرض : بعد شهر من العلاج تحسنت صحته كثيراً ، كما طرأ تحسن ملحوظ على نظره – فلم يعد بحاجة إلى تقريب الكتاب أو الجريدة ليلامسا أنفه ، ولم يعد الضوء الساطع يضايقه ، كما لم يعد يخطئ الوسادة ، إذا ما تمرّن عليها في الصباح. الشيء الوحيد ، الذي لم يستطع فهمه هو ذلك السفر إلى أمريكا – لماذا يصر الطبيبان كلاهما ، وبصوت واحد ، على رحلته إلى ما وراء المحيط ؟ ما حاجته إلى ذلك ؟ إنه لا يزال على استعداد لأن يتناول يومياً كل الأدوية ، ويصبر على كل الإبر ، المهم أن لا يفارق سيفيم ...

ودون أن تقول العمة لسعيد شيئاً عن سيفيم ، قدمت له بنفسها طعام الغداء ، ووضعت على المائدة قنينة نبيذ . الآن لم يعد سعيد ضد فكرة تناول

قدح – قدحين . وحينما شكت بيرين هانم لرفيق من أن ابن أخيها بدأ يشرب ، اغتبط هذا ، حتى أنه قال إنه من المستحسن أيضاً أن يبدأ سعيد لعب الورق والرقص والتغزل بالنساء . كل شيء رائع : فالعلاج بدأ يعطي أكله ، وبدأت عودة سعيد إلى الحياة .

رن جرس الهاتف .

– سعيد حبيبي – سمع صوت سيفيم – لديّ خبر . لقد تمكنت أخيراً من إقناعه . نعم ، نعم ، إنه موافق ، بعد جهد جهيد ...

بدأ رأس سعيد يدور لدى سماع "يا حبيبي" . صحيح أن سعيداً لم يفهم من هذا الذي تمكنت من إقناعه ، وعلى ماذا هو موافق ، لكن الحياء منعه من سؤالها .

– في البداية راح يتذرع – تابعت سيفيم – بأن لا وقت لديه ، لكنني ألححت عليه كثيراً ، فوافق في خاتمة المطاف ... ألو ، ألو ، هل تسمعني ؟

ألوو ! ألست سعيداً بذلك ؟

– سعيد ، سعيد جداً .

– لماذا لا أسمع كلمات الشكر ؟ كم بذلت من أجلك ... بوسعك أن تبدأ حتى منذ الغد . ها هو أحمد يقف إلى جانبي ، تحدث معه بنفسك ...

الآن فقط أدرك سعيد عما يدور الحديث .

– حالاً ، في هذه الدقيقة ... إنني قادم – استعجل سعيد .

وفي طريقه عرج لشراء الأزهار ، ونسي ، بسبب العجلة ، أن يأخذ الباقي ، فلحق به البائع إلى الشارع . وعلى عتبة البيت عانق سعيد الوصيفة بفرح ، فأربكها بذلك ، وارتبك هو ، وبعد ذلك راح يعتذر بقوله إنه ظنها سيفيم .

– إن سيفيم هانم وأحمد بيه هناك – أشارت الوصيفة ناحية غرفة الاستقبال . لكن سعيداً لم يجدهما لا في غرفة الاستقبال ولا في الغرفة الأخرى، التي ألقى عليها نظرة مترددة . فراح يجوب أرجاء الغرف ، وهو

على أحر من الجمر ، وفجأة رأى في كل مكان ، على الطاولات ، والجدران وفوق المدفأة ، الصور ، التي لم يلاحظها في الماضي . إذن فقد كان للعلاج تأثير ناجح فعلاً على نظره ... وفي كل هذه الصور يطالعك شخصان في الزي الرياضي ، وفي كل صورة يحتضن الرجل المرأة من خصرها . وبعد أن تمعّن سعيد ملياً ، تعرف في الصورة الأولى على سيفيم، وقرأ تحتها : "إلى حبيبي في ذكرى أسبوع التزحلق في أولوداغ . إنك الانطباع الأروع في حياتي ، ورقمي القياسي الأهم " .

" يا سلام عليك يا سيفيم ! فهي متزحلقة أيضاً ! – قال سعيد في سرّه. وقد تبيّن أن سيفيم ترافق الرياضيين من كل نوع من أنواع الرياضة في هذه الصورة . سيفيم في لباس الجمباز ، وعبارة : "ذكرى ذلك اليوم الذي بدأت ألعاب الجمباز معك" . سيفيم في لباس السباحة على مقدمة يخت وعبارة: "ذكرى أروع يوم قضيناه" .

"الله ، الله ، يا سلام على سيفيم كم هي متعددة المواهب الرياضية ... التزحلق على الثلج والجمباز وسباق اليخوت ... لن أكون سعيداً إن لم أصبح لاعب كرة ... " .

وهنا اكتشف جداراً كاملاً ، متقلاً بصور الرياضيين ، وانكب على قراءة التعليقات ، كما يفعل الزائر المتحمس في المتحف ، الذي يدرس كل الكتابات ، التي توضح اللوحات .

صرًّ الباب . ودخلت غرفة الاستقبال امرأة ، فاندفع سعيد ناحيتها بفرح ، وقد عانقها بالطبع ، إذ تواً نادته سيفيم: "حبيبي" . لكن الداخلة راحت تتملص من عناقه ، وهي تصرخ : "النجدة" . وقد تبين أن من عانقها ليست سيفيم ، بل إحدى قريبات آل فيرفييرفيرك البعيدات ، هاوية الزواج ، فقد لحقت حتى الآن أن تترمل أربع مرات .

– عفواً ، لقد اعتقدت أنك ماما هانم – همهم الخطيب المسكين ، الذي اختلطت عليه الأمور بالنسبة لنساء هذا البيت .

هرعت سيفيم ، إذ سمعت الصراخ .

– ماذا اعتقدت ؟ – سألت بزعيق .

– أنا ... هذا ... أقصد أنت ... أمك ...

شحب وجب سيفيم من شدة الغضب . إلى متى يستمر يخطئ ؟ في الماضي كان يعانق أمي ، أما الآن فقد انتقل إلى قريباتي ...

استمر سعيد والضحية يعتذر كل منهما من الآخر طويلاً ، وبدأت القريبة تأسف لأنها أطلقت صيحات الاستغاثة بمثل هذه السرعة . بينما كانت سيفيم تغلي كالمرجل من شدة الغضب ، وقد بدأ الشك يراودها حول حقيقة كون موديلها غبياً وعبيطاً ، أم أنه محتال كبير ، يتظاهر بالبساطة والسذاجة ، بينما يندفع لعناق كل امرأة تصادفه ...

وسأل سعيد ، الذي لم يعرف كيف يبرر موقفه في نظر خطيبته :

– كيف صحتك اليوم ؟ وأين أحمدنا ؟

لم تتمالك الخطيبة نفسها ، وراحت ترتجف بسبب نوبة ضحك عصبي . وبعد أن عادت إلى هدوئها ، استقرت في الكرسي الهزاز ، وقالت في غير اكتراث :

– تأخرت : تواً انصرف أحمد .

استقر سعيد على الوسادة عند قدميها ، فاهتز الكرسي ، ومرت بشكل خاطف أمام أنف سعيد ساقا سيفيم المكتنزتان ، تسترهما تنورة قصيرة بالكاد . وارتبك سعيد ، فأطرق برأسه ، لكن ارتباكه لم يزد سيفيم إلا تسلية ومرحاً .

– لقد وافق على تعليمك – قالت لسعيد – بعد أن أقنعته . سوف يكون عليك أن تدفع ، على الرغم من أنه – وأنت تعرف – لن يفعل ذلك بهدف النقود ... إن الدروس خصوصية ... لكن إياك يا سعيد أن تخبر أحداً بكلمة ... وإذا ما عرف أحد ...

– لن يعرف مني أحد شيئاً يا سيفيم هانم ، لا عمتي ، ولا مدام أنجيلا ... إنني أعد بذلك .

أخذ أحمد يتردد عليه أيام الاثنين والخميس بعد الغداء . ولما كان الطقس لا يزال بارداً في الحديقة ، فقد فتحت مدام أنجيلا للرياضيين الصالة

الخالية في الطابق الثالث . في البداية لم تولِ العمة ولا مدام أنجيلا هذه الزيارات أي اهتمام ، وبعد ذلك استولت عليهما الرغبة في معرفة سبب اختلاء الرجلين في الصالة المغلقة . وعلى الرغم من أن مدام أنجيلا كانت تحمل إلى الصالة الشاي أو القهوة فإنها لم تستطع أن تعرف ماذا يفعلان هناك. وبدت العمة ، وهي التي ظلت طيلة حياتها تعتبر استراق النظر والسمع بعيداً عن التهذيب وحراماً ، بدت وكأنها نسيت ذلك فجأة – فالأمر يتعلق بابن أخيها العزيز .

وهاكم ما سمعته ذات مرة .

– في كرة القدم توجد قواعد للعب يجب أن لا تنساها أبداً – قال أحمد – أولاً ، يعني – تذكر : حين ترى الخصم يجري عبر الملعب ، والكرة معه ، مناطحة حقيقية ... ماذا ستفعل ؟ إنك تدرك – يعني – أنك لست بقادر على انتزاع الكرة ... ماذا ستفعل ؟

– لا أعرف ... أسأل الله أن يتعثر الخصم ، ويقع .

– يا لك من غبي ! أصغ إليّ بانتباه ، واحفر ذلك في ذاكرتك : حين يصبح بجوارك تضربه – يعني – على عصعصه ، وفي الوقت نفسه ترتمي على الأرض ، وتروح تتدحرج وتصرخ ، كأنهم يذبحونك ... فهمت ؟ وإذا ما كان المطر يهطل ، فارتم في الوحل – لا خيار ، فهذه هي كرة القدم ... بدون وحل غير ممكن . أنت في الوحل ، لكن الوقت يمر ، ولا يستطيع أحد – يعني – أن يعرف من الذي ضرب الآخر ، لا الحكم ولا الجمهور ... أنتما وحدكما من يعرف ذلك ... إن مشجعينا حساسون ، وهم أبداً يرثون لمن يرقد على الأرض ، ويتعاطفون معه ...

– ولماذا ؟

– لأن مشجعينا – يا أخ – ذاقوا الأمرّين في حياتهم ... وتراهم – يعني – يبدؤون الصفير ، مطالبين بإبعاد خصمك من الملعب ... أما أنت المسكين – فلا تزال راقداً – يعني – وتتلوى ... والآن ما رأيك ؟ مهلاً ، نسيت أن أقول لك : حينما يسقط خصمك فإن صفير المشجعين سوف يزداد شدّة ... وفي هذا الوقت يهرعون ناحيتك ، ومعهم الحمالة . أما أنت – يعني

– فبالكاد تقف على قدميك ، وتمسك حقويك بكلتا يديك ، ثم تعود فتقع على الأرض من جديد ، وتعود فتنهض ، وأنت تعرج ، ثم تبدأ اللعب . وقد تسأل عن السبب ؟ لكي يرى الجميع – يا أخ – أنك مستعد لأن تضحي بيديك – بقدميك من أجل فريقك ، أي أنك لا تضن عليه بشيء ، وحينذاك يذرف المشجعون دموع الرثاء والغبطة ... ويصفقون لك بالطبع بقوة ... هل فهمت؟

– أعتقد أنني فهمت .

– إن هذا الملعوب يمر عندنا دائماً . لكن حينما تلعب مع الألمان ، فانس هذا الأسلوب نهائياً . فالألمان يا أخ شعب آخر تماماً ، لا يشبه شعبنا أبداً. جماعتنا يشفقون على الراقد على الأرض ، أما أولئك فعلى العكس ، إنهم لا يشفقون على الضعفاء ، ولسوف يصفرون بك إذا ما رقدت . جماعتنا يرثون للضحية ، أما أولئك فعلى العكس : إذا كنت ضعيفاً فقد نلت جزاءك . التركي – يعني – يشفق على الخاسر ، أما الألماني فلا يشفق في مثل هذه الحالة حتى على ولده الحميم ، الألماني دائماً إلى جانب القوي . فهمت ؟ المنتصر على حق دائماً – ذلك هو رأيه . يقولون عندنا إن القوي هو الرابح دائماً، والسبب ؟ السبب يا أخ أن التركي عانى الكثير في حياته ، ولذا فهو يشفق – يعني – على الضعيف ...

أراد سعيد ، وهو الذي عاش عدة سنوات في فرنسا ، أن يعرف شيئاً عن المشجعين الفرنسيين ، فسأل :

– والفرنسيون ؟

– الفرنسي – لأنه بدوره يختلف عن مشجعنا ، فلا تستطيع أن تخدعه هنا : إنه يرى جيداً من الذي ضرب الآخر ، ومن الذي يتظاهر ... إذا ما تمكنت من خداع الحكم ، فإنهم سيصفقون لك ، لكن إذا ما كشفك الحكم فالأفضل لك – يعني – أن تغادر ارض الملعب ، وإلا لا سمح الله ، فقد يبصقون في وجهك .

– والإنكليز ؟

– إياك أن تفكر في ذلك في بريطانيا ! لأنك لن تستطيع خداع الإنكليز ، فهم قادرون على القيام بألاعيب أبرع ... إنهم يعرفون كل شيء

مسبقاً ... ولا تنسَ أن الحكم الإنكليزي لن يسايرك ، وسيطردك من الملعب قبل أن تنطق بكلمة ... تلك هي – يعني – أبجدية كرة القدم ، يا سعيد بيه ... لقد أدركت هذه الحكم بتجربتي الخاصة ، إنها تجربة عشرين عاماً ، وضعتها في متناول يدك في عشرين دقيقة ، وهكذا – يعني – أنني قدمت لك كل تجربتي على صينية . الضرب على العصعص يا أخ ليس بالأمر السهل . تذكر كل ما علمتك اليوم . وعموماً أنت بالدراسة ضليع ، فهي ليست مثل الجري في الملعب .

في الدرس التالي قرأ سعيد القاعدة الأولى، التي كتبها :

"إذا كان لاعب فريق الخصم يجري بالكرة ، ولا يمكن انتزاعها منه، فيجب توجيه ضربة إلى هذا اللاعب على عصعصه ، بعد هذا يجب على الضارب أن يقع ، لكي لا يكتشف الحكم ولا الجمهور من الضارب ومن المضروب . يستثنى من هذه القاعدة الألمان" .

– مرحى يا صاحبي لقد صغتها علمياً . لكن تذكر أننا نحافظ على قواعدنا في السر . كرر كتابتها مئة مرة ، فتحفظها عن ظهر قلب ... فأنا لا أريد الحصول على المال دون مقابل . والآن هاك القاعدة الثانية : الخصم يسجل الهدف تلو الهدف في مرماك ، الخصم أضناك ، وأنت – يعني – لا تستطيع أن تتنفس ، وبدأت قواك تخور – خلاص ... ماذا تفعل ؟

– سأحاول أن أرتاح ...

– إنك يا أخ لست في مقهى لكي ترتاح ، بل تلعب الكرة . ترتاح أثناء فترة الاستراحة ، في المشالح . إذن ماذا تفعل ؟

– لا أعرف .

– إذن تذكر : تجري باتجاه أحد لاعبي الفريق الغريب ، وتقع بالقرب منه .

– لكن هذا وارد في القاعدة الأولى أيضاً .

– هناك تضرب أولاً على العصعص ، أما هنا فتقع ببساطة إلى أن يلتفت إليك أحد . فهمت ؟ إذن فأنت ترقد على العشب وترتاح . في ذات مرة

استلقيت ، ولم أثب إلى رشدي إلا حينما أصابتني الكرة في رأسي . هنا يجب أن تعرف بنفسك كم من الوقت يجب أن تبقى راقداً . ربما – يعني – قد يحدث أنك لن تلعب خلال الشوطين ، ومدتهما ساعة ونصف ، إلا ما يقرب من أربعين دقيقة . حيث تشعر أن قواك بدأت تخونك ، ارقد ، يعني ، ولا تستح ، وخذ قسطاً من الراحة . لكن إياك أن تخبر أحداً بهذه القاعدة ، وإلا فإن ملعب الكرة سيكون أشبه (بالبلاج) . فهمت ؟

– فهمت .

– أكتب ذلك للدرس القادم مئة مرة ، واحفظه غيباً .

بعد كل درس كان أحمد يجد في جيبه مغلفاً فيه مبلغ من المال : كان سعيد يدفع له ما لم يكن أي مدرب يحلم به .

وبعد الدرس كان أحمد يتوجه إلى سيفيم مباشرة .

– لقد أعطيت (موديلك) درساً آخر ... شيء مضحك حقاً . إنني أحدثه بأشياء تافهة ... وهو لا يكتفي بتسجيلها ، بل ويحفظ عن ظهر قلب كل هذه السخافات ...

لكن أحمد لم يلبث أن بدأ يشعر بالسأم ، وخيل إليه أن سعيداً يسخر منه . وبعد الدرس العشرين كاد يعوي من شدة الملل .

– لا أستطيع أكثر من هذا حتى ولو قتلوني ... لقد أمليت على (موديلك) عشر قواعد ، ولا أستطيع أن أبتكر شيئاً آخر . ولا حاجة لي بنقوده.

– أحمد حبيبي ، أصبر قليلاً . أنه يدفع لك المال ! من أجل الضحك...

– لست أدري من الذي يضحك على الآخر ! أظن أن موديلك هو الذي يضحك علي ... كفى ، فقد خارت قواي .

– دعه الآن يدرس تاريخ كرة القدم عندنا .

أعجب أحمد بالفكرة ، واستمرت الدروس .

- والآن علينا يا أخ أن نبدأ بدراسة تاريخ كرة قدمنا الوطنية المجيدة...

وانزوى سعيد في المكتبة ، يدرس مجلدات الجرائد ، ويطالع المجلات . وهو يزداد دهشة لكثرة ما رأى من مقالات عن أحمد ...

وفي ذات مرة ، وبعد أن أنهى الرجلان الدراسة ، دخلت العمة بيرين هانم الصالة ، فاكتشفت أن هناك رسوماً بالحوار على الأرضية . وعلى جناح السرعة استدعيت مدام أنجيلا ، التي أدركت للحال ، بعينها الخبيرة ، أنها أمام مصور ملعب كرة القدم .

لم تتأخر العمة في نقل هذا الخبر إلى رفيق . وقد سر الطبيب بالأخبار الأخيرة ، وقال إن سعيداً في الطريق الصحيح نحو الشفاء التام .

إن سعيداً نفسه لم يكن بمثل هذا السرور من قبل . فقد أصبحت أيامه الآن مشغولة كلها . يومي الاثنين والخميس يأتيه البروفيسور أحمد ، وفي بقية الأيام يقوم بزيارة الطبيب رفيق وصديقه البروفيسور ، بالدور .

وباختصار فقد أصبح غارقاً في العمل حتى أذنيه .

مصائب المدرب طومبسون

أخيراً حل ذلك اليوم ، الذي أعلن فيه أحمد الجدار بكل عزم وحزم ، أنه مل هذا البيت المجنون ، وأنه لن يدرس مع سعيد بعد الآن .

– حتى ولو دفع لي مليوناً ، لأرسلته إلى الشيطان .

– لكن يا عزيزي ...

– لا داعي للإلحاح – قاطعها أحمد – الشيء الوحيد الذي أستطيع القيام به هو زف موديلك إلى مدربنا الإنكليزي طومبسون . سيما وأن هذا الكافر مستاء منا لأننا لا نحضر التدريب ... فليدرب سعيداً ... لن يبقى الإنكليزي عندنا طويلاً ، فعمّا قريب ينتهي عقده ...

– أتوسل إليك يا عزيزي . فطومبسون سيدفن موديلي حياً ، وسيجبره على أن يلعب الكرة الحقيقية . وسوف يلاحقه ، ويجعله يقفز ويجري، وأنت تعرف أنه بالكاد يقف على قدميه ... وقد يموت قبل الزفاف ، وسوف أشفق عليه يشهد الله ...

– لا داعي للمماطلة بشأن الزفاف ، قولي لأمك أن تتوقف عن مضايقاتها ... إنتظري حتى ينجز إلصاق الورق وتأثيث البيت ... أما طومبسون فسيعرف ما الذي سيحتاجه موديلك ...

كان أحمد عند كلمته : فقد حدث الإنكليزي بقصة سعيد . لكن هذا حرن ، وعلى الرغم من طمعه فإنه لم يوافق على تعليم الهاوي الغني . إن طومبسون لم يكن يعترف إلا بالاحتراف . وحينذاك لعب أحمد بعواطف الإنكليزي ، فصور وضع سعيد الحرج ، الذي لا يمكن أن يعود إلى الحياة –

كما يؤكد الأطباء – إلا عن طريق الرياضة ، واحتراف كرة القـدم بالدرجـة الأولى.

واستسلم طومبسون .

أوضح بروفيسور علوم الكرة الأمور لسعيد بكل بساطة : الآن انتهى القسم النظري من الإعداد ، وقد حان الوقت للانتقال إلى القسم العملي . ولـذا فقد اتفق مع طومبسون ، مدرب عغ ، الذي وافق على تدريبه . إن كـل مـا يرجوه أحمد من سعيد أن لا يطلع الإنكليزي ، بأي حال من الأحوال ، علـى أسرار كرة القدم التركية .

ما إن التقى طومبسون وسعيد حتى أعجب كل منهما بالآخر ، فقـد كانا من حيث المظهر متشابهين ، تشابه الأب والابن ، وإن كـان الإنكليـزي يترك انطباعاً أنه أكثر حيوية من سعيد ، هذا أولاً ، وثانياً فقد كانا ، كلاهما ، غريبي الأطوار ، لكنهما لا يؤذيان ذبابة .

كان هاجس الإنكليزي الوحيد خلق لاعبي الكرة العظـام . وخـلال حياته اكتشف في سماء الكرة أكثر من نجم . وكانت نجوم طومبـسون تـزين فرق كرة القدم في البلدان المختلفة . وكلما كانت المادة ، التي تقع بـين يديـه خاماً ، وكلما كان اللاعب مبتدئاً وغراً ، ازدادت حماسـة طومبـسون فـي تدريبه، وازدادت غبطته بتحويل اللاعب الفاشل إلى لاعب من الدرجة الأولى، قادر على تزيين أي منتخب .

وجاء طومبسون إلى تركيا حيث وصلت شهرة خدماته لكـرة القـدم العالمية حدود هذه البلاد ، وأراد عغ أن يكون له مدرب ذو اسم عالمي . لكن المدرب والفريق لم يجدا لغة مشتركة ، فلا الإنكليـزي كـان راضـياً عـن اللاعبين، ولا اللاعبون كانوا راضين عن الإنكليزي ، وربما يعود ذلك إلـى أنهم لم يكتشفوا طومبسون إلا في وقت متأخر جداً ، أو إلى أن المادة لم تكـن خامة تماماً . راح الفريق يلعب أسوأ فأسوأ ، وكما يحدث دائماً فإن اللوم كان يوجه إلى المدرب . كان طومبسون يخاف أن يصبح بدون عمل ، لكن تعرفه على سعيد ، الذي وجد فيه الإنسان القريب إلى نفسه ، زاده ثقة بالمـستقبل ، ولذا فقد بدأ التدريبات بحماسة الشباب . وحين شـرع سـعيد يتحـدث معـه

بالفرنسية أولاً ، ومن ثم بالإنكليزية ، وهذا ما أسعد طومبسون كثيراً ، أصبح المدرب يكن للشاب إعجاباً لا حدود له .

من جديد توهج هاجس الإبداع لدى الإنكليزي بالقوة القديمة نفسها . ولما كان على اقتناع راسخ أن بالإمكان صنع لاعب الكرة من أي مادة . وكلما كانت الخامة مطواعة أكثر، سهل صنع الأشكال منها ، فإنه نذر نفسه للتلميذ ، الذي أعجبه . ولما كان الإنكليزي دقيقاً وصارماً في نظام التدريب فقد شك في البداية بقدرة سعيد على تحمل هذه الأعباء . لكن سعيداً راح يؤكد أنه مستعد للقيام بأي شيء ، المهم أن يصبح لاعب كرة بأسرع وقت .

وقد تعرف طومبسون بالدكتور رفيق والبرفيسور ، وقام الثلاثة بوضع برنامج عملي مدروس لتدريب سعيد ، الذي كان في غاية السرور – أخيراً تحقق حلمه المنشود .

وراح ، تحت إشراف المدرب ، ينط فوق الحبل ، ويلعب الجمباز ، ويرفع الأثقال ويجري .

في البداية كانت التدريبات ترهق سعيداً ، حتى أنه يصبح غير قادر على تحريك يده ولا قدمه . وفي بعض الأحيان كانت تراوده فكرة جبانة في التخلي عن مشروعه ، لكنه ما إن يتذكر سيفيم ، حتى يتلاشى خور العزيمة ليحل محله العزم الجامح : تحمل شتى التجارب بأي ثمن كان .

ولا يجب أن ننسى أن الطبيب رفيقاً استمر يوحي لسعيد ، أثناء جلسات التنويم ، أنه سيصبح لاعب كرة مشهوراً من كل بد . وعموماً فإن الطبيب نفسه لم يكن واثقاً جداً من ذلك ، كل ما يهمه هو شفاء سعيد ، وما ضير أن يساهم في هذا العلاج الحب وحب كرة القدم ، أليس فن الطب النفساني يكمن في هذا ؟

كان يوم تدريب عادياً . وكان طومبسون وتلميذه ، وقد أصبحا صديقين ، يتدربان في الحديقة الملاصقة لقصر آل ريجيصين . وهي حديقة مهملة ، غنية بالحشائش الطويلة والشجيرات ، وخاصة بمحاذاة السياج ، حيث مضى عهد بعيد لم تطأها قدم إنسان . في البداية أخذ سعيد يجري على الرابية الصغيرة ، قرب البيت ، ويوماً بعد يوم راح يطول المسافة ، إلى أن أصبحت

الرابية غير كافية ، وحين قال مستر طومبسون إن عليه أن يجـــري بمحـــاذاة السياج ، انطلق سعيد برشاقة ، وراح يزيد سرعته ، ولم يكد يجري حـــوالي خمسة عشر متراً حتى اختفى فجأة ، لكأن الأرض انشقت وابتلعته .

راح مستر طومبسون ينتظر بصبر ، وهو يتمشى عبر الرابية ، ومن ثم بدأ صبره ينفد – فخلال ما مر من وقت يمكن قطع الحديقة كلهـــا مـــشياً . نادى المدرب سعيداً ، وأخيراً انطلق في إثره . لكـــن النباتـــات والحـــشائش الطويلة وقفت في طريقه . وبعد أن نادى سعيداً مرة أخـــرى ، عـــاد باتجـــاه البيت، حيث صادف مدام أنجيلا .

– ألم تري سعيد بيه ؟ – سألها الإنكليزي .

– أليس معك ؟ منذ لحظة لأيته يجلي عبل الحديقة .

ظهرت بيرين هانم في النافذة .

– ماذا جرى ؟

– يقول طومبسون أفندي إن سعيدنا قد اختفى .

راح المدرب يوضح ، خالطاً الكلمات التركية بالإنكليزية ، أن سعيداً بدأ يجري بمحاذاة سياج الحديقة ، ثم اختفى . وقد أثار هذا الخبـــر مخـــاوف العمة جدياً .

بدأت عملية البحث . في البداية فتشوا كل غرف القصر ، بعد ذلـــك صعدوا إلى السقيفة ، ثم نزلوا إلى القبو ، وأخيراً خرجوا إلى الحديقة ، وبدأوا ينادون " سا – عي – يد !" . لكن أحداً لم يرد .

– لبما (ربما) نط عبل (عبر) السول (السور) ؟

– ماذا تقولين يا مدام أنجيلا فهل يستطيع أي كان القفز فوق سورنا!

وراحت بيرين هانم تضرب أخماساً بأسداس ، ثم أجهشت بالبكـــاء ، كأن جثة ابن أخيها ترقد أمامها فعلاً .

أما مستر طومبسون فقد راح يجوب أرجاء الحديقة ، وهـــو يتمـــتم بالشتائم ، ولا يكف ينادي سعيداً . أي شيطان جعله يدفعه إلى الجري هنـــاك

حيث لا يسير أحد منذ عهد بعيد ! "أين اختفى هذا الشاب ؟ لم تبتلعه الأرض وعلى مرأى مني؟" . لم يستطع الإنكليزي أن يصدق بموت سعيد – فهو قد اعتاد محاكمة الأمور بشكل واعٍ – يا له من مدرب منحوس فالعقد مع عغ أوشك على الانتهاء ، والزبون الغني اختفى ، وبشكل عام فهو لم يكن يحب التوقف في منتصف الطريق ، قبل أن ينجز ما بدأ .

استمرت مدام أنجيلا تبحث عن سعيد في أرجاء البيت . وفي هذا الوقت أخذت العمة تخمش وجهها ، وتنوح :

– إن هذه العانس النحس قد دفعت بابننا إلى الجنون . لقد أضناه العذاب ، فاندفع لا يلوي على شيء . آه منك يا عانس النحس ، فلتنزل بها عاقبة الله . أوخ من هذا الأحمد ! أوخ من هذا الكافر ! الله ، الله ، فهل يعقل أن ابن العائلة العريقة يركض ، ويقفز النهار بطوله ؟ ... آخ . آخ ! اتجهت بيرين هانم إلى الهاتف ، لكي تنبئ جميع آل ريجيصين بالمصيبة ، التي حلت بهم . وبالطبع فقد كان أول من اتصلت به العجوز عبد الشكور بيه ، الذي فهم أن سعيداً اختفى ، لكنه لم يفهم أي سعيد .

– من الذي ضاع ؟ راح يصيح في السماعة .

– سعيد ... سعيدنا ضاع ...

لم يكن العجوز يتذكر شيئاً من أحداث السنوات الأخيرة ، لكنه بالمقابل كان يتذكر جيداً كل ما حدث أيام شبابه .

– سعيد باشا ضاع ؟ الصدر الأعظم سعيد باشا ضاع ؟ يا إلهي ماذا سيحل بنا الآن ؟

– عن أي صدر أعظم تتحدث ؟ سعيدنا ، سعيدنا اختفى ...

أخذت السماعة أيفير ، حفيدة عبد الشكور بيه ، ذات العشرين عاماً.

– لا أستطيع أن أشرح شيئاً لجدك ... أحدثه عن سعيدنا ، أما هو فيجاوبني عن الصدر الأعظم سعيد باشا .

– هذا لأن جدي يكتب مذكراته ، وقد وصل إلى الصدر الأعظم بالذات ...

– عبد الشكور يكتب مذكراته ؟ سألت بيرين هانم بدهشة .

– نعم ، للمجلة . لا أعرف إن كان سينجح في ذلك ، فهو في الأيام الأخيرة بدأ "يخلط عباس بدباس" . كتب وكتب ، وفجأة راح يقول : "أنا أسست الجمهورية" . لكنك يا جدي – أقول له – كنت آنذاك في لندن" . فيرد عليّ قائلاً : "في البداية أسست الجمهورية ، وبعد ذلك هربت إلى لندن من الخوف". اتصلت بصاحب المجلة ، وقلت له كيت وكيت ، فقال ضاحكاً : "شيء رائع ، فكلما ازداد الخلط في التاريخ، أصبحت قراءته أمتع" .

– لقد اتصلت يا بنيتي لأن سعيدنا ...

– ابن عمنا سعيد ...

– نعم . لقد ضاع سعيد ... اختفى فجأة.

– وهل يضيع الكبار ؟

– لكنه ضاع ، إذن فهذا يحدث . أردت أن أستشير جدك ، لكنني أرى أن ذلك دون فائدة .

اتصلت بيرين هانم بجميع الأقارب . وفي الحقيقة فإن ضياع سعيد جاء بالنسبة لهم حدثاً سعيداً ، وهم الذين يعانون من الكسل والملل . ولذا فقد أبدوا اهتماماً كبيراً جداً ، وراحوا يتوافدون على عجل على قصر شفران زاده. ومن خلال استنطاق الأقارب المتقاطع لبيرين هانم ومدام أنجيلا ومستر طومبسون لم يستطيعوا أن يفهموا سبب جري سعيد في الحديقة .

– هل كان أحد يطارده ؟ – سأل أحدهم .

– لا حاجة للراشدين للجري – أكد آخر .

– إن سعيدنا يتدرب تحت إشراف طومبسون أفندي كي يتقن لعبة كرة القدم – قالت بيرين هانم .

– آ ، آ ، مفهوم ، تدريب البدن ...

– محسوبكم مارس ألعاب الجمباز على الطريقة السويدية ، أيام الشباب طبعاً .

– لكن ألعاب الجمباز لم تكن موجودة أيام شبابك .

– حسناً وماذا حدث لسعيد ، وهو يتدرب في الحديقة تحت إشراف طومبسون أفندي ؟

جلست بيرين هانم ، التي تحب الحديث بالتفصيل وبتؤدة ، وراحت تروي لهم منذ البداية ، ولا تكف عن إضافة التفاصيل الجديدة ، التي لم ينزل بها الله من سلطان ، لأنها من بنات أفكارها .

– إذن فقد خطفوا سعيدنا يا هانم أفندي ! – استنتج قسمة أفندي .

– لكن من يستطيع القيام بمثل هذا ؟

– لست أدري من ، فهم كثيرون .

– لكن سعيدنا ليس فتاة لكي يخطفوه .

– إن سعيدنا أجمل من أية فتاة .

– إنهم يخطفون الآن للحصول على فدية .

– كلا إنها قوى شريرة – أعلنت العمة شكران هانم ، المتعلقة بالمشروبات الروحية – كان سعيدنا يتحدث دائماً مع نفسه ، الآن فهمت : كان يتحدث معهم ، والآن دعوه إليهم ...

واقترح أحدهم ، وهو أكثرهم فطنة ، إعلام الشرطة باختفاء سعيد . ودار الجدل حامي الوطيس . فلم تكن عائلة ريجيصين تحب التعامل مع الشرطة ، فلن يلبث أن يظهر الصحفيون في إثرها ، ولسوف يلوكون على صفحات جرائدهم اسم العائلة العريقة .

ومع ذلك فقد اتصلوا بالشرطة ، لكن سيفيم وصلت القصر قبل هذا ، ومن على العتبة راحت تنتف شعرها ، وتضرب على صدرها ، وهي تنتحب بصوت يصم الآذان . كان نواح الخطيبة بعيداً عن التكلف لدرجة أن آل ريجيصين ، الذين لم يكنوا لها الحب أبداً ، راحوا يتسابقون ، لمواساتها .

– لماذا ذهبت دون أن تأخذني معك – كانت سيفيم تصيح .

وراح آل ريجيبصين ينتحبون مع الخطيبة ، وقد أذهلهم حبها الطاهر.
"يا له من حب! مثل ليلى والمجنون ! روميو وجولييت . سيفيم وسعيد ... " .
– بهذا راح يتهامس الكهول وهم يتفحصون بفضول سيفيم شبه العارية فقد نسيت المسكينة من شدة العجلة أن ترتدي فستانها .

واضطرت مدام أنجيلا أن تستر الخطيبة المفجوعة بشرشف ، مما ترك حسرة كبيرة في نفوس جناح الذكور من آل ريجيبصين . وترددت في نحيب سيفيم نغمات نواح الأرامل – وقد لحقت أن تهمس لزبيدة هانم أن سعيداً تركها، قبل أن يغادر هذا العالم ، وهي حامل : وقد جاء هذا النبأ فزاد من مشاعر الإشفاق عليها والرثاء لها .

– آخ يا للمسكينة ، فقد أصبحت ، وهي في ميعة الصبا ، أرملاً ومعها طفل ...

عند العصر جاءت الشرطة إلى قصر آل ريجيبصين : واحد في لباس مدني ، وثلاثة في الزي الرسمي . وراح مستر طومبسون يصف بلغة تركية ، ركيكة وبأدق التفاصيل كل ما جرى قبل اختفاء سعيد .

– أنا أقف هنا . سعيد بيه يركض هناك ... وفجأة رأيت أنه اختفى...

وقف المدرب في الموقع ، وانطلق في الاتجاه الذي انطلق فيه سعيد صباحاً . رأى الجميع ظهره في الدغل ، وفجأة اختفى على مرأى من الجميع.

– أوخ – صاح الحشد بخوف ، واندفع إلى الأمام ، ثم تسمر كُلٌ في مكانه .

– مستر طومبسون ! – صاح أحدهم ، لكن لم يأتِ أي رد .

أخرج الشرطي مسدسه من قرابه ، واندفع في أعقاب الإنكليزي المختفي . اقترب من الدغل ، تلفت ، ثم تحرك عبره . خطوة ، أخرى ، وعلى حين غرة لم يعد للشرطي وجود .

ومن جديد تأوه الحشد ، واندفع نحو الدغل . كان هناك ممر ضيق يقود إلى بئر مهجورة قديمة ، تشبه مصيدة الوحوش ، وفيها سقط الثلاثة – سعيد ، مستر طومبسون والشرطي والمسدس في يده .

حتى العمة بيرين هانم نسيت أمر هذه البئر ، أما سعيد فلم يسبق أن سمع بوجودها . كانت البئر قد جفت منذ عهد بعيد ، وغطى الطحلب قعرها ، أما الدغل والنباتات ، فقد حجبتها عن أعين الناس .

سقط سعيد من على علو ستة أمتار ، فاصطدم رأسه بصخرة ، وفقد وعيه ، ولذا فلم يسمع حين راحوا ينادونه . وحين سقط طومبسون في البئر عاد سعيد إلى وعيه ، لكأنه استيقظ من نومه ، حتى أنه صاح ، على عادته "غو – و – ول" . – لكن المدرب رفسه ببوطه على رأسه ، ففقد المسكين وعيه من جديد . وحينما انضم إلى الشلة ثالث ، تلقى سعيد ضربة بقبضة المسدس على صدغه .

ومن أجل انتشال الساقطين استدعي فوج الإطفاء على عجل ، لكنه لم يصل إلا بعد منتصف الليل . وعلى ضوء البروجيكتورات تم إنزال سلم إلى البئر . في البداية تسلقها مستر طومبسون والشرطي . وبعد ذلك أخرج الإطفائيون سعيداً وهو غائب عن الوعي .

وللحال اتصلت العمة بالدكتور رفيق ، ورجته أن يأتي ، ويفحص ابن أخيها ، الذي لا يريد أن يثوب إلى رشده .

حين عاد سعيد إلى وعيه ، راح ينظر بدهشة إلى المحيطين به، دون أن يدرك ماذا جرى له ، وأين هو . لكنه ما إن رأى رفيقاً حتى قال له ، على عادته :

– عبثاً تحاول تنويمي ...

فحص الطبيب المنكوب ، فوجده سليماً معافى ، حتى أنه قال للعمة بيرين هانم إن الصدمة ، التي تعرض سعيد لها ، يمكن أن تكون ذات تأثير عجيب على جهازه العصبي المركزي . وبالفعل فما إن عاد سعيد إلى وعيه حتى اكتشف فجأة أنه أصبح يرى بشكل أفضل ، وبالتالي يفهم بشكل أفضل

كل ما يجري من حوله . وراحت التبدلات تتوالى على سـعيد الواحـد تلـو الآخر.

فإذا كان في الماضي لا يريد مجرد سماع الحديث عن السفر إلـى أمريكا فإنه الآن موافق على ذلك بكل سرور . وحينما طلبت سيفيم وأمها منه أن يحدد موعد الزفاف في اليوم الذي يريد ، اكتفى بوعدهما بطريقة دبلوماسية أنه سيفكر في الأمر . وكانت الخطيبة هي الأكثر استعجالاً له ، موضـحة أن هذه العجلة تعود إلى حملها . "لا ذنب للطفل في شيء" – أكدت سيفيم . ولـم يكن سعيد يعرف أنها أجرت عملية تجميلية أخرى ، لكنه لم يعد راغباً أبداً في أن يصبح أباً لطفل غريب . فليس في رأسه سوى فكرة واحـدة وحيـدة – أن يصبح لاعب كرة . في الماضي كان هذا الحلم يبدو غير قابل للتحقيق ، وتوقاً إلى المستحيل ، أما الآن ، وبعد أن صدقه رفيق والبروفيسور وطومبسـون ، وبعد أن غرسوا في نفسه الثقة بالذات ، فإن بالإمكان تأجيل الزفاف .

وبدأ طومبسون يصطحبه إلى تدريبات عغ ، حتى أنه كان يضمه في بعض الأحيان إلى طاقم الفريق الثاني . وبالطبع فإن قوامه النحيل كان يتـرك انطباعاً غريباً نوعاً ما لدى لاعبي الكرة ، ولما كانوا يعرفون علاقة ديونـدار مهذار بيه باللاعب الجديد ، فهو لا يزال يأمل بالحصول منه على مبلغ ضخم للنادي ، فقد راحوا يعاملونه معاملة الند للند ...

لم يعد سعيد يتردد على آل ريجبيصين إلا نادراً جداً ، فلم يبقَ لديـه وقت للحب : التدريبات ، الأطباء ، والجلسات كانت تشغل جـل وقتـه . ولا تسل عن فرح العمة وهي ترى ابن أخيها يأكل بشهية عظيمة ، ويزداد وزنـاً واكتنازاً .

كانت سيفيم تتصل به كل يوم تقريباً . لكنها في كل مرة كانت تتلقى الرد نفسه :

– سعيد بيه في التدريب ...
– سعيد بيه عند المدرب ... سعيد يلعب اليوم .
– ذهب مع طومبسون أفندي إلى النادي .
– عنده اليوم تدريب هام .

الإسبانية أيسيل – السفر إلى أمريكا

كان سعيد في حيرة من أمره : فآل فيرفييرفيرك وأحمد الجدار يستعجلونه في أمر الزواج ، والدكتور رفيق والبروفيسور يصران على السفر العاجل إلى أمريكا . واستمرت سيفيم تحاول إقناع خطيبها أنها لا تزال حاملاً، على الرغم من أن زهاء عام مر على تعارفهما . لقد آن الأوان – بالطبع – لأن يستجمع شجاعته ، ويتحدث في الأمر جدياً . ولكنه ، وهو الذي تربى على تقاليد الأسرة العريقة ، لم يكن يستطيع أن يقول : "إنني أعرف أن الطفل ليس من صلبي "أو" حتى في المدرسة يعرفون أن الأولاد لا ينجبون من القبلات" .

لكن سعيداً لم يضطر إلى قول أي شيء من هذا . فقد فهمته سيفيم "عالطاير" ، وراحت تتصرف تصرف الفتاة المخدوعة : بدأت تنتحب ، ثم أغمي عليها ، وحين وقفت على قدميها ، أخذت تنتف شعرها . وحينذاك وقف سعيد المرتبك أمامها ، وقال :

لا أستطيع – يا حبيبتي – الزواج بك إلا حين أحتل في قلبك المكانة الراسخة ، حين أستولي عليك ...

وفجأة هدأت سيفيم ، التي كانت تتخبط في هستريا ، ونظرت إليه بتمعن . أما سعيد ، الذي لم يكن قد ثاب إلى رشده بعد هذا الاعتراف ، الذي أدلى به ، فقد استولت عليه الدهشة : هل يعقل أنه تغير إلى هذا الحد ، فلأسبوع مضى ما كان ليجرؤ على مثل هذه الخطوة المحفوفة بالخطر .

مسدت سيفيم رأسه ، ثم سألت بهدوء : – هل ستسافر إلى أمريكا ؟

كيف عرفت أنه ينوي السفر ؟ فلا أحد يعرف ذلك سوى رفيق والبروفيسور ، فاحمر وجهه ، مثل تلميذ مذنب .

– من قال لك ؟

– إذن فهذا صحيح ؟

وبطرف (تنورتها) مسحت دموعها و ... هنا أخذ كل شيء يسبح في عيني سعيد ، وبدأ رأسه يدور ... – إن الأطباء يصرون على هذا – قال متأنياً .

– ولماذا يجب أن أعرف ذلك من الآخرين ؟ لقد أحزنتني كثيراً يا سعيد ، لو أنك نطقت بكلمة ... إذن فأنت مسافر وحدك ، بدوني ؟ – كم كان صوتها مؤثراً !

ولم يحر سعيد جواب .

– لن تسافر إلى أمريكا ! – قالت سيفيم بتصميم – لن تسافر لوحدك.. عما قريب سيلعب عغ في بوخارست مع الرومانيين . – الآن بدا التوسل واضحاً في صوتها – وحتى ذلك الحين سنكون قد تزوجنا، فنسافر معاً. ومن هناك إلى سويسرا فإيطاليا . سيكون ذلك شهر عسلنا . هل أنت موافق ؟ – ثم طبعت قبلة على خده ، فقضت على البقية الباقية من شجاعته .

تقنفذ سعيد ، وأطرق برأسه . واعتبرت سيفيم صمته موافقة ، فوثبت فرحة ، وأدارت مفتاح الموسيقى ، وراحت تدور في الغرفة .

نظر سعيد إليها ، وتساءل ، لأول مرة على الأرجح ، أي إنسان هذا الذي يقف أمامه . فكيف لها في غضون دقائق معدودة أن تتحدث معه بحنان وقسوة ، وأن تضحك ، وتبكي ؟ هل يعقل أنهم يدرسون هذا كله في المدرسة؟ وعلى الرغم من أن سعيداً اقتنع بنفاقها فقد كان يدرك أنه لن يستطيع الصمود أمام نظرة منها أو قبلة ، ويعرف أنه لن يتوانى عن أن يلقي بنفسه في الهاوية، إذا ما أمرته بذلك ...

جاء سعيد إلى صديقه رفيق ، وحدثه بالتفصيل عما جرى بينه وبين خطيبته ، وعن المشاعر المتناقضة، التي يكنها لها .

– يجب أن تقرر بنفسك ما إذا كان يجب أن تسافر أم لا – لم يسبق للدكتور أن تحدث مع سعيد بصيغة قاطعة – لكن حاول أن تفهم شيئاً واحداً :

لو أن سيفيم مسحت دموعها بطرف تنورتها بحضور أحمد ، أو أي رجل آخر، إذن صدقني لعرفوا كيف يجب أن يتصرفوا معها ... أما أنت ؟ أنت مستعد لأن تلقي بنفسك في الهاوية من أجلها ...

عبس سعيد ، وراح يطرف برموشه ، كأن الدموع تخنقه .

- إنني لهذا السبب أنصحك بالسفر - تابع رفيق - فلدي هناك أصدقاء، أطباء رائعون ... وعموماً أنت أدرى ...

وحينذاك قال سعيد بثبات :

- سأسافر !! - ودهش هو نفسه من تصميمه .

أخذ رفيق يسأل سعيداً عما إذا كان لا يزال يتدرب على يد طومبسون. أجل لا يزال الإنكليزي يلاحقه حتى يتصبب عرقاً ، ويسمح له أحياناً بدخول الملعب . لكن اللاعبين يهزأون منه ، لأنه يلعب في النظارات. أما كرة القدم فإن إعجابه بها يزداد ويزداد .

بعد عدة أيام هرول سعيد إلى رفيق، وهو في غاية الانفعال ، وزعق من العتبة .

- إنني أرى ! أ - ر - ى ! ...

راح رفيق ينظر إلى صديقه المضطرب ، وهو يبتسم .

وروى سعيد له كيف أن اللاعبين تجمهروا أثناء التدريب لدى المرمى، وكيف أضاع نظاراته . في اللحظة الأولى أغمض عينيه بقوة خوفاً ، وحين فتحهما ، اقتنع أنه يرى كأحسن ما تكون الرؤية .

- إنها معجزة ! معجزة ! كرر سعيد - لقد حدثت لي معجزة .

- المعجزة الأهم حدثت قبل الآن - رد رفيق بهدوء - حين وقعت في البئر ...

- لن ألبس النظارات بعد الآن ؟ ...

- أعتقد أنك ستلبسها - لكنها نظارات شمسية ...

أصبح سعيد يتدرب كالمجنون ، وتوقف عن زيارة سيفيم نهائياً . أما هي فقد استمرت تحاصره باتصالاتها الهاتفية ، لكن في كل مرة تتلقى الرد نفسه : سعيد بيه في التدريب ... وفي صباح أحد الأيام جاءت إلى قصر ريجيصين بنفسها ، لكن مدام أنجيلا ، التي فتحت الباب ، قالت لها إن سيدها الشاب في الملعب .

كان موعد اللقاء مع محد يقترب ، بينما "الأعمدة الكبار" ، كبار لاعبي عغ ، إما لم يكونوا يظهرون في التدريبات ، وإما يلعبون بشكل ضعيف، وهم يجرجرون أنفسهم نصف نيام . ولم يترك طومبسون المسكين أحداً إلا وطرق بابه شاكياً ، لكن أحداً لم يكن يريد الإصغاء إليه – فالجميع يؤكدون بصوت واحد : "ما دام أحمد الجدار في الفريق فنحن لا نخاف أحداً".

– أي فريق يمكن أن يفوز في المباراة بدون تدريب جيد – ظل المدرب المحنك على إصراره .

– كل شيء سيكون على ما يرام – كانوا يردون عليه ، ويأتون بالأمثلة من سجل انتصارات عغ الخوالي .

– لكل شعب طبيعته – راحوا يقولون له – ولست بقادر ، أنت الأجنبي ، على فهمنا نحن الأتراك . عندنا مثل يقول : ما دمت لم تصل إلى النهر فلا حاجة لأن تشمر رداءك ، فاهم ؟

لكن طومبسون اللجوج لم يرعو :

– لكن كيف سيلعبون ؟ لست أفهم .

– وماذا تريد أن تفهم – راحوا يطمئنونه – ستكون المباراة وستسجل الأهداف ، الله كريم .

– ولماذا تدفعون لي المال إذن ؟

– أوي يا إلهي – لم يتمالك مهذار بيه نفسه – إنك تدفع إلى الجنون فعلاً ... أم أنك لا تفهم التركية أبداً ؟

– فاهم ، لكن بشكل رديء .

لم يكونوا يدفعون لطومبسون الشهير من أجل تدريب الفريق أبداً ، بل لكي يترك تأثيراً نفسياً على فريق الخصوم – لقد جلبنا لأنفسنا مدرباً من الخارج فأين أنتم منا .

بعد مثل هذه الأحاديث ، ترك الفريق وشأنه ، وكرس جل وقته وجهده لسعيد وحده ، وعليه علق كل آماله . وكم هو مسرور الآن لأن سعيداً أصبح قادراً على اللعب بدون نظارات ، وأن عضلاته بدأت تبرز ، لكن أكثر ما كان يعجب المدرب في تلميذه انضباطه ، وتقيده التام بالنظام الرياضي . كان يراعي سعيداً مراعاة النحات لما تبدعه يداه من تحف .

حل اليوم الموعود . وقد عرض إيرول أركان بيه على سعيد ، الذي لم يكن يفارقه إلا لماماً ، أن يذهبا إلى الملعب سوية . كان إيرول يود أن يعرف سعيداً على امرأة شابة تدعى أيسيل ، الملقبة بـ " الإسبانية " ، بسبب شعرها الفاحم ، ولون بشرتها الأسمر ، وعينيها السوداوين ، مثل الزيتون . كانت أيسيل واحدة من أنصار فريق محد المتحمسين .

والواقع أن إيرول أركان بيه أصبح من أنصار هذا الفريق ، بعد أن ساءت علاقاته الودية مع ديوندار مهذار بيه . بيد أن ذلك لم يمنعه من أن يظل المعلق الأكثر موضوعية ونزاهة .

كانت سيفيم وأيسيل ، مثل شركتين متنافستين ، خصمين قديمين ، لكن سيفيم تفوقت على غريمتها في مغامراتها ، وبزتها الأخيرة بأنها كانت متزوجة ، وبالتالي فهي حرّة ومستقلة . كان زوج أيسيل طاعناً في السن ، وقد تزوجها لسنوات خلت ، ولا تسل عن سعادته حين تناديه زوجته الشابة بحضور الآخرين بـ "زويجي" .

من المعروف أن كل باحث يطمح في بحثه العلمي إلى تحقيق كشف جديد للبشرية . لكن البعض يعتقد أن مثل هذا الطموح في مجال الأدب ، مثلاً، يعود قبل كل شيء إلى رغبة الباحث في تمجيد ذاته . كانت أيسيل تتمتع بطبع الباحث : فكانت تكتشف المواهب الجديدة في كرة القدم ، وقد اكتشفت نجوماً كروية كثيرة – ولن نتساءل طويلاً عن هدفها من ذلك ، وقد كانت في كل

الأحوال على طرفي نقيض مع سيفيم ، التي لم تكن تتقن إلا السير في إثر النجوم .

تمكنت أيسيل من التنبؤ لبعض اللاعبين المبتدئين بأنهم سيصبحون كرويين رائعين ، وجاءت تنبؤاتها في محلها . وكان الجميع يعرف أنه، إذا ما أجلست أيسيل أحد الشباب إلى جانبها في السيارة فلن يمر عامان حتى يبزغ في سماء كرة القدم نجم جديد . ولم يكن بإمكان أي رجل أعمال، كروي أن يبزها في تقويم اللاعب الشاب تقويماً صائباً . ولذا فقد كان كل من تشمله أيسيل بحمايتها يصبح محط الأنظار . وكما يبحث المنتج السينمائي عن النجوم، كذلك كانت أيسيل تفتش عن النجوم الكروية بين المراهقين ، الذين يطاردون الكرات القماشية في الحارات والأزقة. وهي من اكتشف أوزيرا الخشبة وعثمان الفلفل . ولم يكن أحد يبزها في معرفة ثمن كل لاعب ، وهذا ما كان في غاية الأهمية لدى انتقال اللاعبين من ناد إلى آخر . يكفي أن تقول إن اللاعب الفلاني لا يساوي قرشاً مكسوراً حتى يطويه النسيان.

كانت أيسيل تراقب سعيداً من زمان ، أي في الوقت الذي بدأت فيه سيفيم تنصب له شباكها ، لكنها ظلت تقف جانباً لفترة طويلة . فهي تعرف أن سيفيم تنوي الزواج منه ، وحين طلبت من أركان أن يعرفها على هذا الشاب كان كل ما تريده هو الإساءة إلى غريمتها . فأيسيل لم تكن مقتنعة بعد بأن سعيداً يمكن أن يصبح لاعباً من الدرجة الأولى ، ولكنها لمحت بحذر إلى أنه يوحي بمستقبل واعد . إن أهم ما كانت تصبو إليه هو تنفيذ المهمة التي ألقتها على كاهلها قيادة نادي محد – انتزاع المدرب الإنكليزي من الفريق الخصم بأي ثمن .

أخذ إيرول يحدث سعيداً عن أيسيل ، مذ كانا في السيارة ، في طريقهما إلى الملعب .

– آه يا صاحبي أي امرأة هي ! يا لها من امرأة . ويا لموهبتها في التنبؤ ! يكفي أن تلقي نظرة واحدة على الطفل الرضيع لكي تقول كم من الأهداف سيسجل خلال حياته الكروية . إن جميع اللاعبين المشهورين يا صاحبي قد مروا بين يديها . حتى المدرب الأوسع حنكة لا يقارن بها . إذا شاء الله ووجدناها اليوم في الملعب فلسوف أعرفكما على بعض من كل بد .

لم تكن أيسيل هذه المرة جالسة بين جمهور أنصار محد ، بل في الشرفة المخصصة لضيوف الشرف . وما إن رأت أركان بيه حتى لوحت له من بعيد ، فاتجه أركان ناحيتها ومعه سعيد .

– اسمحا لي أن أعرفكما على بعض : سعيد ريجيبصين ... أيسيل هانم ...

أشارت أيسيل إلى سعيد أن يجلس في المكان الشاغر بجوارها ، وقالت:

– لقد رأيتك عدة مرات أثناء التدريب . إنك تضرب الكرة بطريقة جيدة ، ولست باللاعب السيء .

واحمر سعيد خجلاً .

ولم تكن المباراة قد بدأت بعد ، ومع هذا فقد كان الملعب يهدر كما وكر الزنابير المثار . وبسبب الطقس السيء لم يصل الحكم المدعو من الخارج . وبالكاد استطاعوا إقناع أحد الأتراك ، وهو بدوره حكم دولي ، أن ينوب عنه . إنها المرة الأولى ، التي يحضر فيها سعيد مباراة بمثل هذه الأهمية . وبدت المدينة وكأنها مجهورة ، فالجميع في الملعب .

في الدقيقة الأولى وضع أحمد قدميه في طريق عثمان ، الذي حرث مسافة عشرة أمتار من أرض الملعب .

– لا تول هذا أي اهتمام يا صاحبي ، – قال إيرول أركان بيه ، المعلق الأكثر موضوعية – فكل شيء معروف سلفاً ...

– كيف هذا ؟ – لم يفهم سعيد .

– هكذا يا صاحبي . إن معلوماتنا ، التي جاءت من مصادر موثوقة تؤكد أن "الأعمدة" سيخسرون اليوم بسبب أحمد ... يجب أن يخسروا ... هذا ما يريده ذلك الدجال مهذار بيه – وتابع ، إذ رأى أن سعيداً لم يفهم شيئاً – إنها النقود يا صاحبي ، النقود هي كل شيء . إنني على يقين أنهم رشوا أحمدنا ... وانحنى فوق رأس سعيد ، ثم همس في أذنه : زد على ذلك يا صاحبي ، وهذا سر بيننا بالطبع ، أن مهاجمي محد أخذوا حقنة منشطة قوية .

ويقال إن الكمية تؤثر في حصان ، وإنها تجعل العجوز ابن التسعين يشوط الكرة ، فلا يستطيع أي زاموير ولا حتى ياشين نفسه أن ينقذ المرمى ... هل فهمت ؟

انحنت أيسيل نحو سعيد .

– يبدو أن المباراة ستكون حامية – ثم أضافت بلهجة ذات مغزى :

إنك من أنصار "الأعمدة" بالطبع ؟

– فليكن الفوز لمن يلعب أفضل – رد سعيد رداً دبلوماسياً ، وهو يعرف أن جارته الحسناء من أنصار "المحتاجين" .

انتهى الشوط الأول بالتعادل . وكان من الواضح أن المعركة الحامية قادمة ، وأن ملعب الكرة سيتحول إلى ساح معركة. في الاستراحة اتجه أركان إلى شرفة الإعلام .

– سمعت أنك تزمع السفر إلى أمريكا ، فهل هذا صحيح ؟ – بدأت أيسيل .

ورد سعيد ، الذي أدهشته سعة إطلاعها :

– نعم إنني أنوي السفر ، لكنني لا أعرف متى ...

– وهل ثمة أحد في اسطمبول يحول دون سفرك ؟

ولم يحر سعيد جواباً .

– لو أنني مكانك إذن لسافرت – قالت المرأة الشابة – لقد رأيتك في الملعب ، وأستطيع القول إن لديك كل صفات الكروي ... فسافر .

راحت أيسيل تثرثر دون كلفة ، وتطلق النكات الطريفة ، وشعر سعيد بالارتياح والطمأنينة إلى جانبها .

مع بداية الشوط الثاني وصلت حماسة المشجعين ذروتها . وإذ أحس الحكم بالكارثة الزاحفة ، أوعز بترك الباب الاحتياطي مفتوحاً لاستخدامه في حال اندفاع الجمهور إلى أرض الملعب .

لم يكد اللعب يستأنف حتى بدأ المطر يهطل ، ووجد اللاعبون أنفسهم في الوحل من رأسهم حتى أخمص قدميهم . ولم يعد أحد يولي الكرة أي اهتمام، بل أصبح الجميع مشغولين بأنفسهم . ولم يعودوا يضربون الكرة إلا حينما يجدونها بين أقدامهم ، وفي الدقيقة الخامسة عشرة طارت الكرة خارج حدود الملعب ، لكن اللاعبين لم يلاحظوا ذلك ، وتابعوا الصراع . وفجأة ... كأن السماء سقطت على الأرض ... شقت سماء الملعب صيحة عشرة آلاف حنجرة : "كول – و – ول" . وصفر الحكم .

اندفع "الأعمدة" إلى الحكم يؤكدون أن لا وجود لأي "كول" ، وشباك المرمى خاوية . وبعد مماحكات طويلة . وتهديدات متبادلة اعتبر الهدف لاغياً، ولم يحتسب . وبعد خمس دقائق عاد الحابل يختلط بالنابل بوتيرة أعلى . صحيح أن المطر توقف ، لكن ملعب الكرة تحول إلى مستنقع ، وأصبح اللاعبون أشبه بمنظفي المداخن . وعلى الرغم من هذا كله فقد استمر الفريقان يذودان عن حياض مرمييهما بكل تفان .

وراحت أيسيل تعلق بمرح على الأحداث الجارية على أرض الملعب. فأحمد – برأيها – مشغول بالدرجة الأولى بضرب جميع "المحتاجين" ، الذين يصادفهم في طريقه ، أما من لا يصادفه فإنه يبصق عليه ، أو يكتفي بتهديده بقبضته . وعلى الرغم من أنه لا يفعل أي شيء آخر في الملعب فإنهم يعتبرونه، وسيظلون يعتبرونه ، أفضل لاعب في فريق "الأعمدة" . كان سعيد يصغي إلى ريورتاجها ويضحك .

– هي – واه– صاحت أيسيل فجأة – أنهم يضربون أحدهم .

– من هو ؟

– لا أستطيع أن أميزه . إنه على الأرجح واحد من فريقنا وقع بين يدي "الأعمدة".

هرع رجال الشرطة إلى أرض الملعب ، و حمل الشاب على نقالة وقد تبين أن "الأعمدة "طرحوا لاعب دفاعهم أرضا ، إما خطأ ، وإما في سورة الجنون الأعمى . وتوالت الضحايا تغادر ارض الملعب ، بعد أن سقطت في ساح المعركة الحامية ،و لم يبق من كلا الفريقين سوى سبعة عشر لاعباً.

لاحظ سعيد انفعال أيسيل ، فهي، وإن كانت تلقب بالأسبانية ،إلا أنها أقل انفعالا من سيفيم . فحين أصبح السيف مسلطا فوق مرمى "المحتاجين " ، لم (تنطوط) في مكانها ، و لم تصرخ ، ولم يتغير وجهها ، بل شدت ذراعه بقوة – وقد أعجبه هذا ، لأنه لم يكن يطيق عرض المشاعر على الملأ.

– على الأرجح أن المباراة ستنتهي بالتعادل السلبي – قال سعيد ، وفوجئ بيده تضغط على يد أيسيل، بوجل .

– كلا – قالت هذه ، وردت على جرأته بمثلها – لسوف يفوز جماعتنا .

– لكن يستحيل اختراق دفاع "الأعمدة".

– لا دخل للدفاع يا روحي – اعترضت أيسيل – أنظر إلى "أعمدتك"، وماذا يفعلون – فهم يتركون مرماهم دون حماية . لكن المصيبة أن الكرة لا تريد دخول الشباك ... كلا إنني أشعر أن لا فائدة ترجى اليوم من جماعتنا.

– كيف سيفوزون إذن ؟

– بمساعدة "الأعمدة"

ولم تكد تنتهي حتى انفجر الملعب من جديد بصرخة دوت كهزيم الرعد: " كو – و – ول".

– ألم اقل لك؟ لقد سجل أحمد هدفا في مرمى فريقه بالذات .

و على الرغم من بقاء خمس دقائق حتى نهاية المباراة ، فقد صفر الحكم معلنا النهاية ، ليتجنب المخاطرة بحياته ، ثم اندفع بكل ما أوتي من قوة إلى المخرج الاحتياطي . لكن المشجعين ليسوا بهذه السذاجة ، ولا يمكن خداعهم ببساطة . فقد اندفعوا يقطعون عليه الطريق ، كما الانهيار الثلجي، مما اضطر الحكم إلى تغيير وجهته . و بعد أن دار حول الملعب دورتين ، وفي إثره جمهور يربو على الألف ، انسل عبر باب مفتوح ليجد نفسه في الشارع .

– أوف؟ "نجوت " – دمدم الحكم ،لكن سعادته جاءت مبكرة : فقد أوشك المشجعون الهائجون أن يلحقوا به . وعموماً فإن الهرب – كما هو معروف – أسهل دوما من اللحاق بالفريسة . وللأسف أنه لم يكن ثمة في ذلك اليوم من

يسجل هذا الرقم القياسي العالمي في جري المسافات الطويلة ... ولم يلبث المارة أن انضموا إلى المشجعين في المطاردة . منذ عهد بعيد لم تعرف المدينة مثل هذا الجري الجماعي... ودون توقف راح الحكم يمني نفسه :"إيه لو أصل إلى تمثال الحرية فأنجو.

خرج إلى ساحة التقسيم وبعد أن دار حول النصب، وجد نفسه في ذيل مطارديه "أمسكوا الحقير "- صاح الحكم بصوت غطى على الجميع . و بذلك فقد نجا بجلده ، واصل الحشد جريه ، لكنه ، إذ وجد نفسه بدون قائد ، راح يخفف من سرعته . ثم لم يلبث أن تفرق .

بعد المباراة دعت أيسيل سعيداً إلى بيتها لتناول فنجان قهوة . كانت الدعوة واعدة جداً لدرجة أن سعيداً لم يجرؤ على رفضها .

صرفت أيسيل الخادمة ، وبدلت ثيابها على عجل ، وانكبت على شؤون البيت ، لابسة (البينوار) . وقد جهزت المائدة بنفسها ، وجلبت النبيذ والعرق ... فمن يشرب الشاي ؟ كان سعيد يشعر بالطمأنينة البالغة قرب هذه المرأة ، ويخيل إليه أنه يعرفها منذ الأزمنة الغابرة . ولم يكن يشعر بمثل هذه الراحة إلا مع رفيق . إنها المرة الأولى التي لا تهزأ به امرأة ، بل راحت تعامله وكأنه ندٌّ لها. حتى عمته ومدام أنجيلا كانتا تعاملانه وكأنه طفل.

أمضى سعيد ليلة رائعة ، أول ليلة سعيدة في حياته ... وحين استيقظ بعد الظهر بكثير، نادى :

- أيسيل ! أرجوك يا عزيزتي أن تجلبي لي كأساً من الماء .

قال ذلك ، وبدأ الخوف يتسرب إلى نفسه ، فهو لم يكن ليجرؤ على مخاطبة مدام أنجيلا نفسها بمثل هذه العفوية . "ما هذا الذي فعلته بي في ليلة واحدة ! ... " .

جلست أيسيل ، وقد علت وجهها ابتسامة ، على حافة السرير ، ومدت لسعيد بكأس الماء .

- أخبريني - سألها بوجل - أي إنسان أنا برأيك ؟

شدت أيسيل رأس سعيد إلى صدرها ، وراحت تمسح عليه بحنان، كأنه رأس طفل .

– برأيي ؟ إنك من أولئك الأغبياء ، الذين ، ما إن يقبلوا المرأة ، حتى يعتبروا أن من واجبهم أن يتزوجوها . أليس كذلك ؟

عقدت الدهشة لسان سعيد : فقد تبين أن هذه المرأة الساحرة فطنة إلى أبعد الحدود ...

بعد الفطور فكر سعيد فجأة أن تغيراً مدهشاً قد جرى في داخله . فهل يعقل أنه لم يبق من أثر لحيائه ؟ ...

بأي مظهر مغرور واستقلالي انطلق يسير عبر الشارع ! وكما حدث له أكثر من مرة فقد شعر برغبة عارمة أن يحدث رفيقاً بكل شيء فوراً . وهكذا فقد استقل التاكسي ، وانطلق قاصداً صديقه مباشرة ، وصاح وهو على العتبة :

– لقد حدثت ! حدثت المعجزة ! ...

لم يسأل رفيق شيئاً ، فقد أدرك كل شيء ، ولم يكن أقل من سعيد فرحاً .

لم تكتب صحف الصباح إلا عن مباراة الأمس . وقد وجهت الكثير من العبارات اللاذعة والمنصفة إلى فريق عغ . كلا ، لم يكن يحق لعغ أن يخسر ولو بالفارق الأدنى" – جاء في إحدى المقالات ، وهنا أيضاً وردت تلميحات إلى أن مهاجمي محد قد تناولوا المنشطات ، وأن دفاع عغ قد حصل على رشوة . "كان الأعمدة" يرقصون (التويست) لدى مرماهم ، كأنهم يدعون "المحتاجين" إلى تسجيل الأهداف في مرمى عغ ، لكن خصومهم ردوا عليهم ، ولم يخطئوا : "ما دمتم تتوقون إلى ذلك فسجلوها أنتم" . وعلى العموم ما الداعي لهدر الأموال على المنشطات طالما أنها لا تقدم ولا تؤخر ؟ ...

وشيئاً فشيئاً أخذت الضجة من حول هذه المباراة تزداد شدة واتساعاً. ولم يلبث الوزراء أن انضموا إلى النقاش الدائر . حتى أن أحد أصحاب النفوذ أعلن صراحة : "إن لاعب الكرة ، الذي يجري الدم التركي في عروقه لا يباع

بالمال ولا يشترى" . لكن تدخل علية القوم جاء ليصب الزيت على النار . وقد بز الجميع في خلط أوراق الجدل صحفي يساري ، كان ، بقناعة الجميع ، يعمل لحساب الجيران الشماليين . ففي مقالته ، التي تحمل عنوان "العقل السليم في الجسم السليم" هنأ أحمد على أنه في نهاية الأمر سجل هدفاً في مرماه . ومن الواضح أن مثل هذه التصريحات تهدف إلى تشويه سمعة الكرة التركية في أعين الرأي العام الدولي .

وعموماً فإن من المهم ليس فقط معرفة أسباب فشل بطل البلاد ، بل والعثور على المذنب . وفي هذه المرة لم يعد التذرع بالريح غير المواتية أو بالشمس المواجهة ، يقنع أحداً . ولذا فقد وضع الذنب كله على الإنكليزي طومبسون ، مما أثلج قلوب لاعبي عغ .

وجد طومبسون المسكين نفسه أمام أحد أمرين : إما أن يجهز حقائبه، ويغادر تركيا ، وهذا ما لم يرغب به أبداً ، وإما أن يصبح مدرب محد .

وفي الوقت نفسه بدأت الألسن في المجتمع ، الذي لا يخفى عليه شيء ، تلوك العلاقات الغرامية بين أيسيل وسعيد . ولم تلبث هذه الأحاديث أن وصلت مسامع سيفيم . ولما كانت كما نعرفها ، امرأة حازمة ، فإنها لم تكن تحب أن تتخلى عما يخصها بالقانون . صحيح أنها للوهلة الأولى لم تولِ كل هذه الأحاديث وثرثرات الجرائد أي اهتمام ، فقد سبق أن كتب عنها أكثر من هذا بكثير ، لكنها ما إن رأت سعيداً في سيارة أيسيل بأم عينها ، حتى شعرت أنها تكاد تنفجر من شدة الغيظ : إنهم يختطفون خطيبها منها في وضح النهار . هذا الموديل كم تظاهر بالعمى والبلاهة . وفجأة أصبح بصيراً ... كيف أخفقت على هذا النحو ؟ ...

أوصدت سيفيم باب غرفتها على نفسها ، وظلت النهار كله تملأ الحارة بزعيقها ، مما اضطر آل فيرفيبرفيرك إلى استدعاء أحمد على عجل .

- هيا افتحي ! - قال أحمد بصرامة .

ولما كانت سيفيم تعرف أنها إذا لم تفتح له ، فإنه سيخلع الباب بكل سهولة بيسراه ، فقد اضطرت إلى الاستسلام . وبعد هذا انكب الأربعة على مناقشة الوضع القائم .

– طبعاً يا ميهجوري أنت المذنبة في كل شيء – قال حسيب بيه – ليس عبثاً أن يقال "اطرق الحديد وهو حام" . ألست على حق يا أحمد ؟ أما أنت فقد استمريت في عنادك : تارة المرحاض لا يعجبك ، وأخرى لم ترتاحي لمزهرية الكريستال ... وهكذا فقد أضعنا كل شيء ...

ومن خلال الدموع راحت سيفيم تنوح :

– حتى عمته تقول إنه فقد عقله تماماً بسبب التدريبات والأقراص وتناول الأدوية والفيتامينات المختلفة . إنك أنت المخطئ يا أحمد ، فقد عرفته على الإنكليزي .

ولما يم يكن أحمد قد اعتاد على اعتبار نفسه مذنباً ، فقد قال :

– هل تغارين عليه من الغجرية أيسيل ؟

– وبأي مناسبة سأغار عليه من هذه السعدانة ؟ لو أن هذا حدث بعد الزفاف ، إذن لما نطقت بكلمة واحدة . يا له من حربوق ! يا سلام على سوء النظر . كيف أصبح بصيراً بين عشية وضحاها ؟ هذا ما لم أفهمه أبداً ...

– ثمة في التجارة قاعدة ذهبية – عاد حسيب بيه إلى الكلام – الحاجة التي تباع لا تبدل ولا ترد. ولما كنتما مخطوبين فإن هذا الموديل ملزم بأن يتزوجك .

– لست حاجة ! زعقت سيفيم .

– حاجة ، حاجة – طمأنها أحمد ، وراح يربت على المكان ، الذي يربت عليه عادة .

– دعوا الأمر لي ، وسوف أرتب كل شيء – قال حسيب بيه بحماسة .

– إنك لا تكف تؤكد سأرتب ، سأحل، "ماذا ستفعل" ؟

– سوف أشكوه إلى القضاء ، وأجبره على الدفع ...

– لا تحشروا أنوفكم في ما لا يعنيكم ! طلبت سيفيم بلهجة قاطعة – سأتدبر الأمر بنفسي .

أمضت سيفيم بعض الوقت في مراقبة غراميات خطيبها مع أيـسيل بهدوء . ولما كانت واثقة من نفسها فلم يخطر لها ببال أن سعيداً يمكن أن يبرد من ناحيتها . وفي أحد الأيام توجهت سيفيم إلى منزله ، لكي تضع النقاط على الحروف .

استقبلتها العمة بيرين – هانم ، التي لم تكن تشك في شيء بـالطبع ، بالترحاب ، ورافقتها إلى غرفة الاستقبال .

– كيف حالك يا ابنتي ؟ – سألت العمة .

– أشكرك يا هانم أفندي . وأنت ؟ آمل انك بعافية .

– الحمد لله يا ابنتي ، كل شيء عندنا على ما يرام ... كيـف حـال والدتك المحترمة ؟

– شكراً يا هانم أفندي إنها تبعث إليك بتحيتها واحترامها ...

– أشكرك يا ابنتي . بلغيها احترامي أيضاً . ووالدك المحترم ؟

خطر لسيفيم أنها سوف تجن من هذه الأسئلة ، لكنها لاذت بالصبر .

– إنه بصحة جيدة ، شكراً يا هانم أفندي ، إنه يهديك سلامه الخاص واحترامه الخاص .

– أشكرك يا ابنتي . وكيف أحمد بيه ؟ – تابعت العمة ، وهي تعتقد – بحق – أنه فرد من أفراد هذه العائلة .

كادت سيفيم تختنق من الغضب ، لكنها لم تلحق أن ترد ، فقد دخلت مدام أنجيلا ، حاملة القهوة على الصينية . وكما يليق بمدبرة عائلة ريجيصين العريقة فقد سألت بكل تأدب :

– كيف حالك يا ولدي ؟

– ميرسي ، تمام – ردت سيفيم من بين أسنانها .

– وكيف حال والدتك الحالمة ؟

– ميرسي – تمام .

رن جرس الهاتف ، فأسرعت مدام أنجيلا نحو الجهاز ، وهي تتمتم:

– لا بد أنها تلك الملأة (المرأة) ، تليد (تريد) سعيداً ...

قطبت بيرين هانم باستياء ، أما سيفيم فقد تحولت كلها إلى آذان صاغية ، كي لا تفوتها كلمة واحدة . وبعد أن غطت مدام أنجيلا السماعة براحة يدها ، التفتت ناحيتها ، وقالت ، وهي عابسة :

– طبعاً إنها هي ، إنها في البال .

أطرقت بيرين هانم برأسها بارتباك ، واحمرت خجلاً .

– كم ملة اتصلت اليوم – صاحت مدام أنجيلا في السماعة – كأنك لا تفهمين التلكية(التركية) ... كيف يمكن أن أتحدث معك ؟ – وعادت تغطي السماعة براحة يدها – يا لهؤلاء النسوان ، كأنهن جُننّ . يلدن التحدث مع سعيدنا وخلاص . لسوف يمزقن المسكين هباءً منثولاً ...

والواقع أن أحداً لم يطلب سعيداً . كل ما في الأمر أن مدام أنجيلا أرادت أن تثير حنق سيفيم جزاء ما سببت لسعيدها المحبوب من عذاب .

أدركت بيرين هانم أن الفرصة المواتية قد سنحت للحديث الرزين .

– بودي يا ابنتي أن أتحدث معك بصراحة ، راجية أن لا تزعلي من كلام امرأة عجوز . ما كان عليك أن تؤجلي الزفاف ... فسعيد تغير الآن كثيراً .

وهزت مدام أنجيلا رأسها بغبطة :

– أجل ، أجل لقد تغيل سعيد باشا كثيلاً ...

– في الماضي كان أشبه بالملاك – تابعت بيرين هانم – حتى أنه كان يحمر خجلاً لدى سماع صوت نسائي ... أما الآن فيبدو وكأنه إنسان آخر تماماً .

– إنه الإنكليزي الذي غيل سعيدنا – لم تتوقف مدام أنجيلا – لقد كان حملاً وديعاً فأصبح ثولاً(ثوراً) مسعولاً(مسعوراً) ...

- دعينا نتعاون على إنقاذ سعيد . إنه يحبك يا ابنتي ، وهو لن يتجاسر على عصيانك ... يجب أن نفعل شيئا... في الماضي كان يحدثني بكل شيء ، أما الآن فمستحيل أن أحصل منه على كلمة إلا بشق النفس ...آخ يا ابنتي ، أنت وحدك من يستطيع إنقاذه . هيا تزوجيه بسرعة ، واحميه من كرة القدم هذه .

كانت سيفيم تصغي لبيرين هانم وفكرها في واد آخر . الآن فقط ، وبعد أن وقفت أيسيل بينها وبين سعيد ، أدركت فجأة أنها لا تستطيع التخلي عنه - إنها نفسها بحاجة إليه .

وقالت ، وقد نسيت عزة نفسها كامرأة :

- لقد جئت آملة أن أجده في البيت ... أين هو ؟

وتلفتت المرأتان بارتباك : فقد فاجأهما السؤال .

- وهل أنتما لا تلتقيان ؟

- لقد عرج علينا أول البارحة - أسرعت سيفيم بالجواب .

بعد هذا خيم صمت طويل .

- إذن فأنت لا تعرفين يا ابنتي ... بدأت بيرين هانم .

- وماذا لا أعرف ؟

- لقد سافر إلى أمريكا ...

- أ - أَنَّتْ سيفيم - لقد أخبرني أنه ينوي السفر ، لكن ... بهذا الشكل المباغت ... والواقع أنني لم أكن في اسطمبول ... وهل سافر وحده ؟

- وحده ...

- متى ؟

الواقع أن سعيداً سافر منذ أسبوع ، ولكن ما دام عرج على سيفيم أول البارحة فقد ردت بيرين - هانم اللبقة ، كي لا تضعها في موقف حرج :

- صباح البارحة يا ابنتي ...

– لا بد أنه عرج علينا بالطبع ، لكنني لم أكن في البيت ...

ولم تذكر سيفيم كيف وجدت نفسها في الشارع ...

* * *

كان في وداع سعيد في المطار الدكتور رفيق ، أركان بيه ، مستر طومبسون وأيسيل . ودع سعيد أيسيل وداع الزوجين المتيمين . وقالت بصوت ضعيف ، وقد وضعت منديلها على عينيها :

– اكتب حال وصولك . لسوف أظل في غاية القلق ...

وبدورها أرادت العمة مرافقته حتى المطار ، لكن سعيداً تمكن من إقناعها بالبقاء .

وكما لو أن المودعين الأربعة اتفقوا فيما بينهم ، فلم يخبروا أحداً بسفر سعيد ، ولم يصل هذا الخبر إلى زاوية أخبار المجتمع المخملي .

في البداية أخذت سيفيم تنتظر رسالة من سعيد ، ومن ثم حاولت معرفة عنوانه في أمريكا . لكن سعيداً لم يكتب إلا لأيسيل، وكانت رسائله الركيكة تعبق بالحب ...

وفي هذا الوقت حل يوم سفر فريق عغ إلى بوخارست . وقد رفضت سيفيم السفر رفضاً قاطعاً ، فقد كان يخيل إليها أنها، ما إن تغادر اسطمبول حتى تأتي الرسالة من سعيد .

لم تجد توسلات ديوندار مهذار بيه ، ولا إلحاح أحمد ، ولا حتى محاولات حسيب بيه في زحزحة سيفيم قيد أنملة عن قرارها . "هل يعقل أنك غير مبالية بأداء عغ في هذه المباراة ؟ – راحوا يسألونها – أم أنك غير مبالية بشرف الفريق التركي ؟ . "إذا لم تسافري – اخذ الأصدقاء يؤكدون – فإن أداء أحمد سيكون سيئاً على الأرجح ... ليكن في علمك يا سيفيم أن الفريق سيخسر بدونك" .

كلا ، كلا ، مهما قالوا فإنها لن تسافر أبداً .

وفي أحد الأيام نشر إيرول أركان بيه على الصفحة الأولى من جريدته صورة سعيد في اللباس الكروي . ما هذا ؟ لم تصدق سيفيم عينيها : "نجم محد الجديد – سعيد ريجيصين . أمريكا تحيي نجم الكرة التركية الصاعد" – قرأت التعليق تحت الصورة . وبعد عدة أيام ظهرت صورة أخرى . سعيد بصحبة رفاقه في الفريق . ويشير الخبر القصير إلى نجاحات الكروي التركي الشاب . الذي سجل عدة أهداف في مرمى الخصم ،فحقّق فريقه نصراً مؤزراً.

وبالتدريج بدأت الجرائد الأخرى تتحدث عن سعيد ، وأصبحت سيفيم في حيرة من أمرها . فهل يعقل أن كل ما يكتبونه عنه صحيح ؟ أولاً الجميع يعرف أن الكرة الأمريكية لا تزال في طور التكوين ، وثانياً وهذا هو الأهم – متى لحق سعيد أن يصبح لاعب محد ؟

بينما كانت أفكارها مشغولة بسعيد مني عغ بهزيمة نكراء في رومانيا. وفي التحقيقات عن المباراة لمحت الجرائد مباشرة إلى أنها هي ، سيفيم فيرفييرفيرك ، وراء هزيمة الفريق الذي لا يقهر . ولهذا السبب فإن أياً من "الأعمدة" لم يعرج عليها بعد العودة إلى الوطن ، باستثناء أحمد ، الذي كان من الواضح أنه يعتبر نفسه مسؤولاً عن ذلك الوضع الحرج ، الذي وجدت سيفيم نفسها فيه .

ومن ثم جرى حادث لم يكن يخطر على البال أبداً : أقام صاحب البيت المخصص للعروسين دعوى أمام القضاء حول عدم دفع أجرة أربعة أشهر . وحين تسلمت بيرين هانم التبليغ من صاحب البيت ، ارتبكت، وهرعت تستنجد بالمحامين . الذين سبق لهم أن اغتنوا من وراء قضايا آل ريجيصين . لكن هؤلاء تقاعسوا عن مساعدة زبونتهم ، فهم يعرفون أنه لم يبقَ من تركة شفران زاده شيء .

وبصعوبة حبست بيرين هانم دموعها ، وهي تتذكر بأي حب انكب سعيد على بناء عش الزوجية ، وكم غير فيه وبدل نزولاً عند نزوات حماته القادمة .

– حَاوِلوا إقناع صاحب البيت بالانتظار حتى عودة سعيد ، طلبت من المحامين .

– إنّ هذا ضياع للوقت ... يجب أن تدفعي وإلا بيع كل شيء بالمزاد.

وحينذاك قررت المرأة العجوز أن تشاور سيفيم ، فسعيد إنما بنى هذا العش لها . وبعد أن اتصلت بالهاتف لم تلبث أن جاءت إلى آل فيرفيرفيرك ومعها هدية ثمينة .

سرت سيفيم بقدومها أيما سرور ، فقد كانت بأشد الشوق لتتسم أخبار سعيد . بعد أن استقبلت بيرين هانم بالترحاب ، أخذت ترد بكل وقار على أسئلتها التي لا تنتهي ، وبكل صبر أصغت إلى حديثها المشوش عن صعوبات أسرة ريجيصين المالية . جاء هذا الخبر مفاجئاً لآل فيرفيرفيرك . إذ لم يخطر لهم ببال أن الثروة تنضب فجأة ، ويصبح الوريث لا يملك شروى نقير. وأحست ميهجوري هانم ببعض تأنيب الضمير ، فلولا نزواتها ، التي لا حصر لها ، إذن لكانت سيفيم ربة بيت زوجها منذ عهد بعيد . أما الآن فهي بدون زوج وبدون بيت ، مجرد خطيبة بالاسم فقط ...

– الواقع يا هانم أفندي – قالت بيرين هانم – أن سعيداً دفع أجرة الشقة سلفاً لمدة عام . صحيح أنني لم أذهب إلى هناك ولا مرة ، لكن سعيداً أخبرني أن كل شيء أعجبك ... إن سعيدي ، فليمن الله عليه بالصحة والعافية – قد نسي، بسبب شروده بالطبع ، أنه لم يمض عام فقط ، بل وأربعة أشهر أخرى . إن صاحب البيت يهدد ببيع الأثاث، بالمزاد . ولما كانت الشقة مخصصة للعروسين فقد جئت أستشيركم . متى سيعود سعيد لا أعرف ... صحيح أنه كتب في الرسالة أن أبيع الأثاث وأسدد لصاحب البيت . لكن قلبي لا يطاوعني ...

حين عرف رب أسرة فيرفيرفيرك كل ذلك من ابنته قال ببرود :

– سوف أفكر .

أخذت سيفيم تبكي .

– ما بالك تزعقين ؟ لقد قلت سأفكر. حتى التفكير ممنوع ...

بينما كان حسيب بيه يفكر هل يدفع أجرة البيت أم لا ، حصلت سيفيم على عنوان خطيبها في ما وراء المحيط . فكتبت له رسالة طويلة مغطسة بالدموع . لم يصلها جواب سعيد بسرعة . وحين فقدت كل أمل ، وصلت منه بطاقة بريدية قصيرة ، يخبرها فيها أنه يزمع العودة قريباً إلى الوطن ، لكنه لم يكتب كلمة واحدة بخصوص الشقة .

وفي هذا الوقت كان حسيب بيه قد حصل على المعلومات المطلوبة عن وضع أسرة ريجيصين المالي . حيث اكتشف أن المال لديهم على وشك أن ينضب ، حتى أن العمة بيرين هانم اضطرت للتخلي عن جزء من مجوهراتها. إلى هذه الدرجة من السوء وصلت الأمور . وأيقن حسيب بيه أن ابنته الشاطرة سترفض خطيبها من كل بد . لكن سيفيم لم ترغب حتى في سماع ذلك ، وقد أصرت على أن يدفع أبوها أجرة الشقة .

– ليس ثمة لدى موديلك شيء ! افهمي ، لقد أفلس ... أم أنك لا تفهمين ؟ – قال حسيب بيه بغضب .

– إنني أفهم . ومع هذا فلا أستطيع التخلي عنه في ظرف كهذا ...

أيدت ميهجوري هانم زوجها في كل حججه :

– لا مال لديه ، ولا عقل ، ولا جمال ولا مجد . فماذا لديه إذن ؟ من أجل أي شيء يحب ؟ ... ما بالك تتشبثين به ؟

لكن كل الحجج لم تجدِ نفعاً ، فسيفيم غريفون لا تستطيع ، ولا تريد أن تعترف بهزيمتها .

سعيد يعود من أمريكا سعيداً آخر

في البداية كانت الرسائل من أمريكا تتدفق نهراً جارفاً ، فقد كان سعيد يكتب لأيسيل يومياً ، وبالتدريج تحول النهر الجارف إلى نهير ، فجدول متواضع ، لم يلبث في النهاية أن جف . لدى عودته من أمريكا استقبله ثلاثة : الدكتور رفيق ، إيرول أركان ومستر طومبسون ، وذلك بناء على رغبته هو ، فقد طلب إبقاء وصوله طي الكتمان عن الجميع .

حتى الدكتور رفيق وقف ذاهلاً إزاء هذا التبدل ، الذي طرأ على صديقه . فمن سعيد السابق لم يبق أثر ، كأنه بقي في أمريكا إلى الأبد . لقد رأى رفيق أمامه سعيداً آخر تماماً . لم يكن سعيد القديم يهتم بلباسه : فالجاكيت يتدلى عليه دائماً ، كما يتدلى عن الشماعة ، أما البنطال فلا يكف يسلت عن وركيه الهزيلين . أما الآن فقد خرج من الطائرة رجل أنيق ، تشع عيناه حيوية، وتتألق على ثغره ابتسامة تبهر البصر .

ولم يسأل هذا السعيد لا عن سيفيم ولا عن أيسيل ...

لدى استقبال ابن أخيها على عتبة البيت أغمي على العمة بيرين هانم، وأمضت مدام أنجيلا الكثير من الوقت وهي تسقيها قطرات النعناع . لقد قاست العمة المسكينة الأمرين في غياب سعيد ، ولذا فما إن ثابت إلى وعيها حتى سارعت تنفس عن همومها . نعم لقد قامت بكل ما طلب منها : باعت الأثاث ، وسددت الدين لصاحب البيت ، ومع هذا فقد اضطرت لبيع جزء من مجوهراتها ، للحفاظ على النظام في قصر شفران زاده العتيق .

لم يكد سعيد يصعد إلى غرفته ، بعد حديثه مع عمته ، حتى رن جرس الباب : إنهم عملاء شركة المقاولات جاؤوا ، إذ سمعوا بعودته ، يعرضون عليه بناء مساكن حديثة مكان القصر .

– آخ لقد نسيت تماماً يا بني أن أخبرك عن هؤلاء الناس . فلم تكد تسافر حتى راحوا يحاصرونني بمشاريعهم الفظيعة . سأقول لهم إنك تعب من السفر وستستقبلهم فيما بعد .

لكن سعيداً نزل إلى الأسفل ، وتحدث معهم طويلاً . وحين أغلق الباب وراء الزوار قالت له عمته :

– أرجوك يا بني أن لا تنفرد بالقرار ! يجب أن ندعو جميع ذوينا .

وابتسم سعيد ساخراً .

– ومن هم ذوونا ؟

– كيف يا بني ؟ عبد الشكور بيه ، قسمة بيه ، ذهني بيه . زبيدة هانم ... ألا تذكرهم ، لقد جاءوا حينما كنت تنوي الزواج ؟

– قطيع المتحجرات ...

غطت العمة وجهها بيدها ، لكي لا يرى ابن أخيها دموعها . آخ منك يا أمريكا ! ما هذا الذي فعلته بصغيرها العزيز !

– هلا هدأت يا عمتي ! فأولئك الذين تسمينهم ذوينا قد جنوا من زمان ... ولو كان لهم ذرة حق في قصرنا إذن لتخاطفوه قطعاً قطعاً منذ عهد بعيد . لقد عاشوا على حسابنا بما فيه الكافية .

صعقت بيرين هانم لهول ما سمعت . فهل يعقل أن سعيداً يعتبرها أيضاً عالة عليه ؟ هي ، التي كانت له الأم !

– تذكري يا عمتي كيف أداروا لنا ظهورهم بمجرد أن أدركوا أنه لم يبقَ في هذا البيت ما يمكن أن يستفيدوا منه . حينذاك تنكروا لنا ، وقلبوا لنا ظهر المجن ، وفروا إلى جحورهم ، تاركين لنا قصراً يوشك أن يتداعى .

سعى إيرول أركان بيه إلى نشر نبأ عودة سعيد من أمريكا في كل جرائد اسطمبول . وقد نشر خبر وصوله بعناوين بارزة .

ما إن عرفت سيفيم من الجرائد بعودة خطيبها حتى راحت تفكر : ماذا تفعل الآن ؟ هل تذهب إليه ، أم تنتظر أن يأتي هو بنفسه ؟

أمضت سيفيم الكثير من الوقت في تمعن الصور : كم يختلف سعيد العائد عن ذاك الذي كانت تناديه "موديلي" . نظرت إليه وهي تفكر بمرارة كم اضطرت هي سيفيم غريفون إلى تقديم التضحيات بسببه : فهي لم تسافر إلى رومانيا ، ولم تتخذ عشاقاً جدداً ، كل ما في الأمر أنها أحبت أحمد ، وحتى هذا الحب جاء بسبب الألفة . أما سعيد ؟ يا له من ناكر للجميل ! عاد ولم يأتِ! إن أمي على حق ... وبكت سيفيم من شدة إشفاقها على نفسها .

ومن خلال البكاء سمعت أصواتاً غريبة في غرفة الاستقبال ، وفيما بعد ، ولدى مرورها إلى الحمام عبر البهو ، رأت شاباً ظريفاً يشرب القهوة خلف الطاولة . ولم تكد تغطس في الماء الدافئ حتى قرعت الوصيفة باب الحمام وهمست :

– سيفيم هانم ! لقد جاء خطيبك ، سعيد بيه ...

هرولت سيفيم إلى غرفة الاستقبال ، بعد أن تدثرت في روب موبر.

– سعـ – يد ! صرخت ، وتعلقت برقبته – أهذا أنت حقاً ؟ أجلست الضيف العزيز في الكنبة ، أما هي فقد استقرت على السجادة بالقرب منه ، واضعة يديها على ركبتيها ، ولسانها لا يتوقف :

– آخ ، لا أصدق عينّي ! لكم تغيرت ! ...

كان يجلس أمامها رجل قوي ، واثق من نفسه .

– ألا تتذكر يا سعيد – تابعت ـ ما قلته لي من أنك ستتزوجني حين تحتل مكانة راسخة في قلبي ؟ ...

وكيف له أن ينسى هذا ؟ إنه يذكر طبعاً ، لكن ذكريات الماضي لم تعد تعني شيئاً له .

وثبت سيفيم ، وراحت تدور في الغرفة ، أما سعيد فراح بكل هدوء يراقب حركاتها المحمومة ، ويقارن سيفيم بشكل لا إرادي بالنساء الأخريات ، ويقول في سره إنهن جميعاً يتصرفن على نفس الشاكلة حين لا يكن واثقات من الفوز ولم يكن ليخطر لسيفيم ببال أن خطيبها لم يتخل عن النظارة فقط ، بل واستعاد بصره وبصيرته ، ولم تعد أي غشاوة تحجب عنه هذا العالم العادي .

جاء أحمد الجدار . وتبادلت سيفيم وإياه القبلات كما هي العادة . وأدرك سعيد أنه لا يستطيع حتى أن يغار على خطيبته ، ولا يستطيع أن يتزوجها بالطبع ...

شد الرجلان على يدي بعضهما . راح أحمد يتفحص سعيداً بفضول لم يحاول إخفاءه ، كأن أمامه شخصاً لا عهد له به من قبل . حتى في مصافحته تلمس الثقة الأخاذة ، كما تلمس براءة الأطفال الآسرة . وكم كان أنيقاً في هندامه ...

– ماذا سنشرب ؟ – سألت سيفيم .

– ويسكي إذا أردت – رد سعيد بابتسامة ساحرة .

جلبت سيفيم الويسكي ، وهي تدندن بصوت خافت . بعد ذلك جلست بجوار أحمد الجدار ، حسب العادة طبعاً ، دون أن يخطر ببالها أنه من غير اللائق القيام بذلك بحضور خطيبها . ومن جديد ابتسم سعيد لا إرادياً :

لم يتغير شيء في هذا البيت .

– ما الذي جعلك تبتسم ؟ – سألت سيفيم .

– لا شيء ...

– بماذا فكرت الآن ؟ هيا قل !

– لم أفكر بشيء ...

وتذكر سعيد كيف جلس في هذه الغرفة منذ عهد بعيد جداً ، في غرفة الاستقبال هذه ، وراح يصغي لهديل سيفيم وأحمد ، دون أن يفهم شيئاً ، وبعد ذلك رمت الخطيبة الخاتم في وجهه فقط لأنه تجرأ فعكر صفو جلستهما .

إن ما أتى به اليوم إلى سيفيم ليس فقط الشعور بالواجب ، ولا التهذيب العادي ، بل جاء ليقول لها إنها منذ اليوم حـرّة – فزواجهما غير ممكن... نعم غير ممكن – كان يحاول أن يرسخ هذه الفكرة في رأسه .

كان أحمد – بالطبع – أول من تذكر الموضوع ، فوجه دفة الحديث نحو الزفاف ، وسأل ، بدون مقدمات ، متى ينوي سعيد أن يحـــدد موعـــده ، وأين سيعيشان ، بعد أن ضاعت الشقة .

ولم يعطِ سعيد جواباً مباشراً ، بل لجأ إلى التلميح :

– تصوروا حدوث كارثة جوية . سقطت طائرة وتحطمت . وتنتشر الفرضيات المختلفة ، الجميع يضرب أخماساً لأسداس بحثاً عن أسباب الكارثة. ويقف الجميع عاجزين عن إعطاء الجواب الدقيق ، لأن كل الأجهـــزة كانـــت على ما يرام ، وتعمل بدون استعصاء . إذن كيف سقطت الطائرة ؟ هنا يوجد جواب صحيح واحد : لقد مات المعدن ...

أصغيا إليه بكل انتباه ، ولكن من الواضح أنهما لم يفهما شيئاً . وحين ذاك ضرب سعيد مثلاً آخر :

– فجأة يتداعى مبنى جاهز ، شيد حسب قواعد الهندسة المعمارية . لكن أحداً لم يستطع معرفـــة الـــسبب : لا المعمـــاريون ، ولا البنـــاؤون ولا المهندسون . أما سبب سقوطه فهو هزة أرضية ضعيفة لم يحسب لهـــا أحـــد حساباً ...

ومن جديد لم يفهم أحد شيئاً ، وكاد المستمعان يخرجان عن طورهما بسبب تبحر سعيد في العلوم وسعة اطلاعه . ولماذا كـــان الجميـــع يؤكـــد أنَّ صاحب النظارة الهزيل هذا لا يعرف شيئاً عدا رياضياته ؟ صحيح أنه لم يبقَ لا ذو النظارة ولا المغفل الهزيل .

بدأت سيفيم تفقد أعصابها ، وأدرك سعيد ذلك من طريقـــة دعكهـــا للمنديل في يدها ، فحاول أن يوضح الأمر من جديد :

– هاكم على سبيل المثال عائلة عريقة ، تضرب جذورها في القرون الغابرة ، وأنجبت المشاهير : الجنـــرالات ، رجـــالات الدولـــة . لكـــن أوان الانقراض التام يحل فتحتضر العائلة ...

ومن جديد جاء كلامه عبثاً ، فهما لم يفهما منه شيئاً .

نفد صبر أحمد ، فانصرف .

أما سيفيم ... فلم يكد الباب يغلق بعد ذهاب أحمد حتى راحت تقـرع سعيداً من شدة غيرتها من أيسيل . وبحركة مألوفة وضعت يدها على إصبعها لكي – للمرة الرابعة ! – ترمي خاتم الخطبة في وجه سعيد . لكنها تحولت إلى تمثال جامد – فالخاتم لم يكن في إصبعها : ففي غياب الخطيب في أمريكا لـم ترتد الخاتم مرة واحدة .

– لا تعذبي نفسك – قال سعيد ، وهو ينهض من على الكنبة – أتمنى لك السعادة .

اجتماع عغ السنوي

أثارت الهزائم ، التي مني بها عغ في الداخل والخارج موجة عارمـــة من الاستياء العام ، مما أدى إلى تسرب الخلافات إلى إدارة النادي وحـــدوث الانشقاق . تنامت المعارضة ضد القيادة ، وظهـــرت داخـــل طـــاقم القيـــادة مجموعات وفئات .

– لسوف ترى يا صاحبي – قال أركان بيه لسعيد – أن مهذار بيـــه سيقوم ، قبل بدء الاجتماع السنوي لأعضاء عغ ، بتقـــسيم المعارضـــة إلـــى مجموعات أصغر ، وإلى جانب "الأعمدة الراسخة" – عدوه اللدود – ســـيظهر الكثير من المجموعات الأصغر ، التي سيكون هو وراء ظهورها .

– كيف هذا ؟ – سأل سعيد باستغراب – فلماذا يخلـــق المعارضـــة بنفسه ضد نفسه ؟

– من أجل أن يدمر الخصم – يا صاحبي – يريد أن يمزق صفوفه. الماء يتدفق من مضخة الإطفاء ومن الصنبور ، لكنه هنا شيء وهناك آخـــر . هل لقطتها يا صاحبي ؟

وبالفعل حدث كل شيء كما تنبأ أركان : فقد زادت التكتلات الجديدة، كما يزداد الفطر بعد المطر ، وإلى جانب "الأعمدة الراسخة" ظهرت اتحـــادات وروابط وأخويات ورفاقيات جديدة : الغبار عمودي فقط ، عغ من أجل عـــغ "الجميع مع عغ" لا يوجد عغ غير عغ، كلنا عغ عمودنا صـــامد فـــي وجـــه الأعداء كلنا "أعمدة".

– لا تنسَ يا صاحبي أن لمهذار بيه جماعته في كل واحدة من هـــذه المجموعات . لماذا أظن ذلك ؟ لأن مهذار بيه في كل مرة تحل فيهـــا الإدارة القديمة يصل بقدرة قادر إلى الإدارة الجديدة.

بلغ الجدل بين تكتلات المعارضة ذروته ، حتى أن الأمر وصل إلى المحكمة . فقد تقدمت "الأعمدة الراسخة" بدعوى يتهمون فيها المجلس العام بتبذير أموال النادي . وقضت المحكمة بختم خزنة النادي .

جمع ديوندار مهذار بيه المجلس العام ، وطرح على أعضائه سؤالاً يتيماً : هل يجب أن نرد الرد اللائق على المعارضة ؟ ورد بقوله : "نعم يجب ... لا تنسوا أن "الراسخة" اعتبرونا دجالين ! فبأي حق يتهموننا بالدجل ؟ ألم نصل المجلس العام بالاقتراع السري ؟ علينا أن نرد عليهم بدعوى مقابلة يا زملاء ! علينا أن نقيم لهم محكمة الشرف ...

وافق أعضاء المجلس على اقتراحه بالإجماع : "مرحى لك يا مهذار بيه" ...

بعد الحصول على موافقة المجلس العام جمع مهذار بيه المعارضة ، وطمأنها : لا تخافوا محكمة الشرف هذه ، سوف ألقنكم ما تقولون وكيف ...".

– يا له من رجل – تابع أركان قصته – إن بوسعه أن يدخل غرفة تغص بالناس اللذين يجهلهم ، ويستطيع خلال نصف ساعة أن يزرع بينهم الشقاق ، ثم لا يلبث أن يصالحهم بالسرعة نفسها ... وليس عبثاً أنهم يطلقون عليه لقب "الربان العظيم" .

نشرت كل الجرائد خبر مكان وزمان انعقاد الاجتماع السنوي لأعضاء نادي عغ .

– ما رأيك يا إيرول ، هل سينتخب مهذار بيه في الإدارة الجديدة ؟ – سأل سعيد .

– طبعاً ، دون شك – رد المعلق الرياضي الأكثر موضوعية – ألم تسمع بقصة العلم ؟ كلا ؟ إذن اسمع . قرر مهذار بيه إزاحة أحد الأشخاص، الذي انتخب منذ عهد قريب نائباً في المجلس ، من منصب الرئيس الفخري للنادي . ما إن بدأ الاجتماع حتى وقف مهذار بيه ، وأعلن أن الاجتماع غير قانوني . "كيف ؟ لماذا ؟ ... توالت الصيحات من كل حدب وصوب . "لأنه لا وجود في القاعة – أوضح مهذار بيه – للعلم التركي ! للأسف أيها الزملاء أن ثمَّتَ بيننا أناس لا يحترمون علمنا التركي المقدس ، المجلل بالمجد والفخار" .

آه لو رأيت ما حصل يا صاحبي ! أخذ الرئيس المسكين يتوسل ، والدموع تترقرق في عينيه ، أن يعثروا على علم . ولم يتوان أحد عن التظاهر بالوطنية ، فراحوا يصيحون بحماسة : "أجل ، أجل إن ديوندار على حق ، فكيف يمكن بدون علم ؟ " . – "إنها مكائد اليساريين – زعق أحدهم – لقد تسلل اليساريون إلى صفوفنا" . وصاح الجميع صيحة رجل واحد : "الموت للشيوعيين" . لو أنك رأيت الرئيس ، النائب الخارج من الفرن لتوه . راح يتمتم بصوت يائس "ليكن الله في عوننا ، هلا عثرتم على علم في أي مكان!".

– وكيف انتهت القصة ؟ – أعرب سعيد عن اهتمامه .

– وكيف يمكن أن تنتهي يا صاحبي ؟ لقد وصل خوف الرئيس إلى حد أنه أخذ يتوسل إلى مهذار بيه أن ينقذه من هذه الورطة : "إفعل ما يحلو لك يا مهذار بيه ، وليكن كل شيء كما تريد" . وحينذاك ارتقى مهذار بيه المنصة، وقال : "أصدقائي ! إن علمنا هو شرفنا ، دمنا ! إن من يجري الدم التركي النبيل في عروقه لا يمكن أن يكون شيوعياً ! ليس لليساريين مكان هنا !" . بعد ذلك أخرج علماً كبيراً ، ونشره فوق المنصة ، بعد أن قبل طرفه ... وبعد الاجتماع ، تبين أن ديوندار هو الذي خبأ العلم ، وقد استطاع أن يطيح بالرئيس، أما هو فبقي في منصبه ...

ظل إيرول وسعيد يتحادثان على هذا النحو إلى أن وصلا مكتب مهذار بيه ، الذي كان أشبه ما يكون بالبار . انتظر ديوندار مهذار بيه ، حتى أتى الصحفيون على زجاجات المشروبات الروحية ، ثم قال :

– عجلوا يا سادة فالاجتماع يبدأ بعد نصف ساعة في البناء رقم ثمانية عشر .

– وأين ذلك ؟

– سنذهب معاً ، وسوف أدلكم على المكان .

اقتفى المشاركون في الاجتماع أثر سيارة مهذار بيه ، فوصلوا البناء رقم ثمانية عشر ، وبعد أن هبطوا عدة درجات نحو الأسفل ، وجدوا أنفسهم في صالة غير مريحة .

تلفت أركان يمنة ويسرة ، ثم هز كتفيه في حيرة .

– حتى الآن لا أستطيع أن أعرف سبب وجودنا هنا . لكن من الواضح أن عزيزنا مهذار بيه يخطط لشيء على عادته . لأول مرة أرى أن مثل هذا الاجتماع الهام يمكن أن يعقد في مبنى بمثل هذه الحقارة – إنه عبارة عن قبو لحفظ الخضار .

– لماذا لا يعقد الاجتماع في مبنى النادي ؟ – سأل سعيد – فالمكان هناك أوسع بكثير .

– واضح أن مهذار بيه خاف حضور الكثيرين .

شيء غريب ، فمنذ وقت طويل حل الموعد المضروب ، لكن أحداً لم يأتِ ، باستثناء الصحفيين وبعض أعضاء المجلس العام ، الذي جاؤوا مع ديوندار . وبدأت ملامح القلق ترتسم على وجه مهذار بيه – فالعدد غير كاف حتى لهيئة الرئاسة – وراح يتصل بالهاتف ، ويرجو أعضاء الإدارة المتغيبين الحضور إلى الاجتماع على جناح السرعة . وبعد مكالمات هاتفية طويلة وصل شخص واحد فقط . واقترح مهذار بيه تأجيل الاجتماع إلى اليوم التالي بسبب عدم اكتمال النصاب .

– ما هذا الكلام الفارغ ! احتج أحد الصحفيين ! فطيلة شهر والجرائد لا تكتب إلا عن هذا الاجتماع ، ولكن أحداً لم يأتِ ... أين "الأعمدة الراسخة؟" أين "عمود الغبار؟" وأين "عغ من أجل عغ ؟".

– أعتقد أنهم ضحكوا علينا ! حيلة ، وانطلت علينا – قال أركان بيه بلهجة لاذعة!

– أين هذا السافل ؟ ...

اندفع الصحفيون الهائجون يبحثون عن المحتال . وفجأة انطفأ الضوء في المبنى ، وبدأ العراك ، وترددت الصرخات والشتائم واللعنات .

ومن مكان ما في الركن جاءت صرخات الاستغاثة :

– النجدة ! ... يقتلونني ... أنقذوني ...

وصلت الشرطة في الوقت المناسب ، وغمر النور المبنى . كانت صيحات الاستغاثة تأتي من الخزانة ، الواقعة في الركن . وحين فتحت الخزانة خرج منها مهذار بيه سليماً معافى . لكن كيف وصل إلى هناك . ومن كان يقتله ؟ – هذا ما لم يفهمه أحد . وباختصار فإن لعبة المدير فشلت . أما مهذار بيه فكان بحاجة لكسب الوقت ، فقرر أن يماطل في عقد الاجتماع . وهكذا فقد استأجر في أحد شوارع اسطمبول قاعة كبيرة ومريحة في مبنى يحمل الرقم ثمانية عشر ، وهذا ما ورد في الجرائد . لكن من يجهل فوضى أرقام البيوت في اسطمبول . فقد تبين أنه يوجد بناءان في شارع واحد ، يحملان الرقم نفسه. وعن قصد توجه مهذار بيه مع صحبه والصحفيين على العنوان الخطأ، أملاً في أن يتمكن في أثناء المحاكمة والدعوى من عقد الاجتماع بطريقة ما "والضحك على لحى" الأغلبية ، التي كانت تعارضه . ومن يدري فقد كان من الممكن لهذه الحيلة أن تنجح لولا أن خطر لأحد الصحفيين أن ديوندار قد أحضرهم إلى المكان الخطأ . وحينذاك اختبأ مهذار بيه في الخزانة ، بعد أن قطع الضوء عن المبنى من باب الحيطة .

بعد هذه الأحداث بدأ الاجتماع السنوي التقليدي لأعضاء نادي عغ في جو بالغ التوتر .

– هل ترى ذلك الإنسان ؟ – قال أركان بيه ، وهو يدفع سعيداً الجالس بجواره – إنه سليم بيه ، المرشح لتبوء منصب المدير العام بدلاً من ديوندار . وإذا ما نجح يا صاحبي فإن مهذار بيه لن يبقى في الإدارة . وهناك إشاعات يروج لها ومفادها أن سليم بيه ينوي إلقاء كلمة يفضح فيها نشاط مهذار بيه ، لكنني أخشى أن صاحبنا سيرد له الصاع صاعين ، وسوف نكون شهوداً على الأحداث الدرامية ...

ما إن انتخبت هيئة الرئاسة ، حتى ارتقى مهذار بيه المنصة :

– لدى اقتراح .

– هيا انزل عن المنصة ! – صاح سليم بيه – واحتفظ باقتراحك لنفسك .

بدأت القاعة تضج .

- إنني أقترح - صرخ مهذار بيه ، محاولاً أن يغطي على صوت الجميع - اختيار سليم بيه ، الذي نحترمه جميعنا ، رئيساً لاجتماع اليوم . من هو أفضل عضو في نادينا ؟ سليم بيه بالطبع ! ...

توقف الصخب في القاعة ، وراح الجميع ينظر إلى الخطيب باهتمام.

- من بزّ الجميع في تقديم الخدمات للنادي ؟ - تابع مهذار بيه ، وكأن شيئاً لم يكن - سليم بيه بالطبع .

- وأي عدوين هما ؟ - سال سعيد بدهشة - اسمعه كم يكيل من الإطراء لسليم هذا !

- إنه الدهاء يا صاحبي - رد أركان - لست أفهم إلى ماذا يرمي .

- إن سليم بيه هو بالنسبة لنا أخ أكبر - أزداد ديوندار مهذار بيه حماسة - لقد فعل من أجل عغ كل ما يمكن أن يفعله الإنسان ، لا بل وأكثر من ذلك . ولهذا بالذات أقترح اختيار سليم بيه رئيساً لاجتماعنا .

تردد التصفيق .

- آخ يا ابن ... يا لها من ضربة معلم ! - صاح أركان - لقد ابتلع سليم بيه بقضه وقضيضه فلن ينبس هذا بعد الآن ببنت شفة . إذا ما كتب لاقتراح ديوندار النجاح فإن سليم بيه لن يتحدث ضده ! هل فهمت يا صاحبي؟

- هل تعني أنه لا يحق للرئيس أن يلقي كلمة ؟

- كلا ، إن عمله يقتصر على إعطاء الإذن للآخرين بالكلام ...

- لا أريد ، لا أريد ! - حاول سليم بيه التملص ... أريد أن ألقي كلمة .

لكن الأمر أصبح مفروغاً منه : قام عدة أشخاص بحمل سليم بيه على الراحات ، وعبروا به القاعة ، ثم أجلسوه في كرسي الرئاسة .

وما إن أعلن افتتاح الجلسة ، حتى ظهر مهذار بيه على المنصة من جديد .

– حسب نظام إجراء الاجتماع ، أقترح الوقوف دقيقة صمت إجلالاً لأرواح شهدائنا الأبرار ...

وقف كل من في القاعة . ومرت دقيقة واثنتان وثلاث وخمس ... وظل مهذار بيه واقفاً ، والجميع وقوفاً ، بانتظار أن يعطي إشارة الجلوس .

ودب الهمس في القاعة . وألقى أركان في أذن سعيد :

– تذكر كلمتي ، إن هذا الداهية يعد لطبخة جديدة .

بعد أن أجلس مهذار بيه الجميع أخيراً ، عاد إلى الحديث بسرعة ، لكي لا يقاطعه أحد :

– أصدقائي ! الليل الفائت أوقفت الشرطة شاباً مخموراً في بيوغلو. وكان قد أثار العراك ... وحينما أراد الشرطي نقله إلى القسم ، أعلن الشاب أنه لا يحق لهم لمسه لأنه عضو في المنتخب الوطنيٍ بكرة القدم . وهكذا أريد أن أسألكم يا أصدقائي : ألم يحن الوقت لنتحدث جدياً عن الوجه الأخلاقي للاعبينا؟ ...

وهنا اختلط الحابل بالنابل في القاعة ! كل من الحضور يريد أن يدلي بدلوه . وعبثاً حاول الرئيس تهدئة الخواطر . أما مهذار بيه فقد ظل واقفاً على المنصة بكل فخر واعتزاز .

– اسمعوا ! – صاح أحدهم من الصفوف الخلفية – إنه يريد أن يستدرجنا إلى فخ . أنهِ أحاديثك ! خذوا حذركم بالله عليكم .

ترددت الجملة الأخيرة بصوت عال ، جعل الجميع يسكت . وسأل أركان سعيداً :

– هل فهمت يا صاحبي ؟

– حتى الآن لا .

– أرجو كلمة ، – تردد صوت مهذار بيه من جديد . واضطر سليم بيه المسكين إلى منحه فرصة الكلام مرة أخرى .

- الزملاء المحترمين ! - قال دويندار مهذار بيه - إن حكومتنا مخلصة في تعلقها بعغ ، وتناصرنا على الدوام . أقترح باسم اجتماعنا رفع برقية تحية وتقدير إلى حكومتنا . ومن جديد تبنى الجميع اقتراحه .

وصاح أحدهم من القاعة :

- أنزل عن المنصة ، وإلا فلن ننتهي أبداً .

دخل الساعي ، ووضع على طاولة الرئيس رزمة من الأوراق .

- الزملاء المحترمين ! - قال سليم بيه ، بعد أن نظر إلى البريد، لقد ورد إلى اجتماعنا الكثير من البرقيات . الآن سيقوم سكرتير الرئاسة بتلاوتها عليكم .

أخذ السكرتير يتلو البرقية تلو البرقية ، لكنه لم يكد ينتهي من الرزمة الأولى حتى أحضر الساعي رزمة جديدة .

- يخيل إلي أن مهذار بيه هو الذي أرسل البرقيات - قال أحد الصحفيين .

- وارد جداً - وافق أركان .

ظلت برقيات الترحيب تتوالى حتى حلول المساء . وحين انتهوا منها، بعد لأي ، طلب مهذار بيه كلمة :

- الأصدقاء الأعزاء ! إن عليّ للأسف أن أشير إلى حقيقة محزنة : فلأول مرة في تاريخ عغنا الطويل حدث انشقاق بين أعضاء الإدارة ، وتشكلت تكتلات كثيرة مختلفة . مما يعني أن الخطر الكبير يتهدد وحدة حركتنا الرياضية وتلاحمها . حين سنبدأ الاقتراع يمكن أن تحدث فوضى تامة ، إذا لم ندقق الجداول الآن . ولذا فإنني أقترح أن يشار أمام كل اسم في قوائم المرشحين إلى الإدارة إلى اسم التكتل ، الذي يمثله هذا المرشح أو ذاك .

... ظلوا يفحصون قوائم المرشحين حتى منتصف الليل ...

شعر سعيد بصدمة قوية من هول ما سمع ورأى ، حتى أنه غادر القاعة بمجرد أن بدأ فحص القوائم ، دون أن يقول كلمة لأركان .

وفي اليوم التالي عرف من جرائد الصباح أن ديوندار مهذار بيه انتخب في الطاقم الجديد لإدارة نادي عغ .

نجم جديد يسطع

نسي سعيد منذ عهد بعيد أن حبه لسيفيم هو الذي قاده إلى لعب كرة القدم . أما الآن فكان يخيل إليه أن رغبته في أن يصبح لاعب كرة ولدت لديه بسبب اليأس – كان يريد أن يشفى ، أن يتغلب على حيائه ، عجزه البدني. وحين حدثت هذه المعجزة لم يعد يذكر لا سيفيم ولا الحب ، ولم يبق غير الكرة ، التي جعلت منه إنساناً .

بعد أن جرّ أركان سعيداً لحضور اجتماع عغ السنوي تكشف له للمرة الأولى الجانب المخفي من رياضة الاحتراف .

وقد جاءت هذه الصحوة مفاجئة لسعيد ، وتزعزت ثقته بالشخصيات الكروية . لكن اللعب نفسه – الإحساس بمتعة اللعب ، والحماسة الرياضية والشعور بالقوة الجسدية الذاتية والمهارة ، والتعطش للفوز في الصراع اللائق– باختصار اللعبة ، التي اسمها كرة القدم ، كانت بالنسبة لسعيد مقدسة.

انتزعت الصداقة مع طومبسون سعيداً من بين أحضان عغ ، وحين أصبح الإنكليزي مدرباً لمحد ، انتقل سعيد برفقة مدربه المحبوب . وقد أصبح طومبسون ، الذي كان يجيد صنع التحف من لا شيء ، واكتشف خلال حياته أكثر من نجم كروي ، لا يفارق سعيداً ، ويمضي معه الساعات الطويلة في أرض الملعب .

بدأ سعيد يشعر أنه يعيش حياة جديدة ، فقد كانت مباريات التصفية تجري على قدم وساق . وزاد الإنكليزي من إشراك سعيد في الطاقم الأساسي، وازداد ظهور اسمه في الأخبار الرياضية . وأخذت الجرائد الكبرى تهتم بسعيد . وكما حدث في السابق أكثر من مرة ، فقد حمي وطيس النقاش : أين

يجب أن يلعب سعيد ؟ لقد وضعه المدرب لاعب هجوم أيمن في محد، لكن لا يزال حيدر هو اللاعب الأيمن ، والذي لقب بـ"فاتح الثغرات" بسبب ضربته القوية ، ولا يجب أن ننسى أن النادي دفع لقاءه مبلغاً ليس بالقليل .

وعلى الرغم من أن الموسم مازال في بدايته فقد أخذ محد يراهن على الفوز ببطولة البلاد . وكان على طومبسون أن يختار بسرعة بين حيدر وسعيد، فأيهما يختار ؟ وجاء أركان ليمد يد المساعدة للمدرب . فقبل ثلاثة أيام من مباراة التصفية لم يعد يفارق حيدر لا ليلاً ولا نهاراً يشربان ، يمرحان ، يرقصان يتنقلان بين المطاعم والبارات والكازينوهات .

ولاختيار الأفضل منهما ترك المدرب حيدر يلعب في الشوط الأول على أن يلعب سعيد في الشوط الثاني .

لكن حيدر ، فاتح الثغرات المشهور ، أثبت أنه ليس في كامل لياقته . فلم يكن يستطيع اللحاق بالكرة : لقد أتت ليالي السهر أكلها – فالكرة لم تكن مطواعة ، وبقيت شباك الخصم نظيفة ، لم تهزها ضربة "فاتح الثغرات" المدفعية . وفي العراك ، الذي دارت رحاه عند المرمى ، عمد حيدر إلى تمزيق سرواله ، فغادر الملعب يحيط به رفاقه .

حين خرج سعيد إلى الملعب ، بدلاً من حيدر ، شعر بالغثيان . إنه يدرك جيداً أن عليه أن يراهن بكل أوراقه ! إنه يذكر مقولة شكسبير "أكون ، أم لا أكون ؟" . إذا ما لعب الآن جيداً ، أصبح المهاجم الأول في الفريق ، وبالتالي ضمن الاشتراك في كل المباريات ، والكفاح من أجل لقب البطل ... حتى مستر طومبسون ، المعروف بتوازنه ، لم يستطع تمالك أعصابه ، فنجاح سعيد هو انتصاره هو كمدرب .

بدأ اللعب ، وأخذ الشعور بالخوف يبتعد لتحل محله الثقة بالتغلب على الذات – لقد تعلم سعيد كيفية التغلب على مشاعره ، فكان لعبه يزداد ثقة كلما حمي وطيس المعركة الكروية . ولم تذهب جهود مستر طومبسون عبثاً ، فقد تألق سعيد بلعبه الحماسي الجميل ، الضغط المستمر والجريء على مرمى الخصم ، والشوط من كل الوضعيات ، وراحت مكافآت الجمهور له – التصفيق – تزداد .

في هذه المباراة تمكن سعيد من تسجيل الهدف الوحيد – هدف الفوز – وصل ابتهاج الجمهور ذروته . وقد وجد سعيد نفسه محمولاً على أيدي رفاقه. لقد فاز سعيد بمكان لاعب الهجوم الأيمن في محد .

وعموماً فإن الفضل الكبير في فوز سعيد على حيدر يعود إلى إيـــرول أركان ، المعلق الأكثر موضوعية . ولحسن الحظ أن سعيداً لم يعـــرف بهـــذه المكيدة ، وإلا لما شعر بالغبطة الصادقة من هذا الفوز .

حين جاء طومبسون إلى المشلح ، لكي يهنئ ربيبه ، وجده في وضع لا يحسد عليه : فبالقرب من المشلح التقت أيسيل بسعيد ، فهنأته ، وقبلت بطـــل المباراة على رؤوس الأشهاد . وأحس سعيد بتبكيت الضمير : فهو لم يكتـــف بالتوقف عن الكتابة إليها من أمريكا ، بل وحتى بعد عودته لم يزر "منقذتـــه" ولا مرة . وإدراكاً منه لذنبه ، بدأ سعيد يتصرف كما تلميذ المدرسة ، الـــذي أمسك به متلبساً بإحدى شيطناته . ولم يكن يخطر له ببال أن أيـــسيل جـــاءت لحضور بزوغ النجم الجديد ، الذي اكتشفته ...

لم يعد سعيد يذكر كيف وجد نفسه في السيارة بجوارها . لكن كل مـــن رأى ذلك أدرك : ما دامت أيسيل الإسبانية تقل سعيداً في سيارتها فهذا يعنـــي أن نجماً جديداً قد بزغ ...

كانت أيسيل ، كما سبق وقلنا ، نقيضاً لسيفيم : فلم يخطر لها ببـــال أن تتصل بسعيد ، أو تفتش عنه لدى عودته من أمريكا .

– كيف أحوالك ؟ – سألته ، وكأنها لم تفارقه إلا البارحة – لقد لعبت بشكل رائع اليوم ...

– هل كنت في الملعب ؟

– وهل بمقدوري يا عزيزي أن أفوت مباراتك الأولى ؟ سيما وهـــي بهذه الأهمية لك ... ألست أنا أول من تنبأ بمستقبلك ؟

ومن جديد شعر أنه سعيد ومطمئن بجوار هذه المرأة الفاتنـــة. ولـــم يخطر له ببال أن المعركة بين أيسيل وسيفيم غريفون لم تنته ، ولم يـــدرك أن للشهرة ثمنها ...

في تقاريرها عن المباراة أغدقت جرائد الصباح الكثير من الإطـــراء على لعب سعيد ، أما أركان فقد كتب يقول : "نجم جديد بزغ في سماء الكرة".

مات الملك ، عاش الملك

بدأ سعيد يرتقي درجات السلم الكروي بسرعة فائقة : فمنذ الموسم الأول أصبح أشهر من نار على علم . وفي كل يوم تنشر الجرائد على صفحاتها مقالات عن سعيد ، ولقاءات معه وصوره وصوره وصوره .

وقد بز الجميع أركان ، الواسع الحيلة – فكان يستغل كل المناسبات لمدح سعيد . ولما كان لكل لاعب كرة عظيم لقبه – فقد عثر المعلق الأكثر موضوعية _ إيرول أركان بيه – على اللقب المناسب لسعيد – "سعيد أوفصايد" . ففي المباراة الأولى بين عغ ومحد ، حيث سجل سعيد الهدف الأول، أحاط "الأعمدة" بالحكم ، وهم يصرخون : "أوفصايد" : لكن لم يكن هناك أي أوفصايد (أخذ لاعب أقصى اليمين في محد يرسم الدوائر من حول مدافعي الخصم ، ويختار بإتقان الوضعية الملائمة للاختراق ، والانقضاض على حارس المرمى ، وتسجيل الهدف المنشود).

وخلال موسم واحد لعب ثلاث مرات من أجل المنتخب الوطني، أما أحمد، الذي كان حتى عهد قريب العمود الفقري للمنتخب وملك الكرة ، فلم يدافع عن شرف البلاد سوى مرّة واحدة .

لقد شاخ أحمد ، لكن تاجه لا يزال يتوهج بألق الشهرة الغابرة ، وبصعوبة كان يستطيع حمل الوشاح الملكي على كتفيه ...

وهذا ما أدركته حتى سيفيم ، التي لم تعطف على الذات الملكية الهرمة، على الرغم من العلاقة الوثيقة السابقة .

كان سعيد وحده هو شغلها الشاغل ، ولم تستطع سيفيم غريفون أن تغفر لنفسها أنها تركت مثل هذه الطريدة تفلت من بين مخالبها . كما لم تستطع أن تغفر ذلك لوالديها ، اللذين لم يعودا يعتبران سعيداً خطيباً لابنتهما الوحيدة .

فهما لم يكونا يعترفان بالمفلسين . إن الأرستقراطي المفلس غير مناسب لوريثة شركة "حسيب فيرفيرفيرك للثياب النسائية الداخلية" .

وكلما ازداد نجم سعيد صعوداً ازدادت سيفيم إدراكاً أنها أضاعت كنزاً، وبدأ يخيل إليها أنها تكاد تفقد عقلها من شدة الحب ، حتى أنها اعترفت لأحمد أنها لا تحب أحداً غير سعيد . تحدثت سيفيم عن مشاعرها بلهجة مؤثرة ، وبدأت الدموع تنهمر من عينيها بغزارة ، لدرجة أن أحمد المسكين تأثر ، ودمعت عيناه بدوره .

وفي ذروة انفعاله اعترف لسيفيم أنه الآن عاجز أمام هذا الشاب الأصهب ، الذي لم يكن يعتبره في السابق إنساناً . وبالفعل فإن هزيمة عغ في المباراة الأخيرة أمام محد هي قبل كل شيء هزيمة أحمد نفسه ، فلم يستطع الدفاع الحصين الغابر التصدي للعبة سعيد المهاجم الرائع . وتذكر أحمد المثل القائل "حين يشيخ الذئب حتى الكلاب تسخر منه" .

كان لعب أحمد خلال العامين الأخيرين بعيداً عن التألق ، وإن كان يحاول إخفاء ذلك ، خوفاً من سخرية زملائه الشباب في الفريق ، الذين لم يعرفوا السبب الحقيقي الكامن وراء لعبه السيء ، ويرددون كما هي العادة "إن أحمد ليس بكامل لياقته من جديد" . لقد مرت منذ عهد بعيد تلك الأوقات ، التي كان يلعب فيها بكل مقدرته ، حين كانوا يلقبونه بـ"ملك الكرة" العمود الفقري" "وبروفيسور الكرة" . كل رفاقه ، الذين بدأ معهم ، تركوا الكرة من زمان ، ووجد كل منهم عملاً مناسباً : أحدهم أصبح مدرباً ، وثان انصرف إلى التجارة، وثالث تزوج زواجاً دسماً . ولم يعد يذكرهم إلا فيما ندر . ولما كان أحمد يكسب المبالغ الكبيرة بفضل الانتقال من ناد إلى آخر ، فقد خيل إليه أن الأموال ستستمر في التدفق عليه ، لكن أيام العز ولت ، وبدد كل ما لديه من مال ، كما بدد شبابه أيضاً .

بينما كانت سيفيم تبكي ، وقد وضعت رأسها على ركبتيه ، اخذ أحمد يفكر بنفسه وبسيفيم فرثى لنفسه ولها . فلم يكن لديه أحد أبداً باستثناء سيفيم ، لكن هل سبق له أن عاملها بشكل جدي في أي وقت ؟ ولماذا لم يتزوجها ، فقد ظلت على إخلاصها له طيلة هذه السنوات ؟ ما الذي ينتظره في المستقبل ؟ في العام القادم سوف يودعونه بأبهة – واذهب أنى أردت ! ... إيه كان يجب

أن يغادر في الوقت المناسب ، حين كانت شهرته تطبق أرجاء تركيا ، يا للمشجعين كم هم قساة وظالمون ! ففي الماضي كان هتافهم يشق عنان السماء: "يا الله يا أحمد ! هيا ! هيا !" . أما الآن فتكفي هفوة صغيرة ، حتى يتردد زعيقهم وصفيرهم .

ترقرقت الدموع في عينيه ... على من يشفق أكثر : على نفسه ، أم على سيفيم ؟ ... إن بوده أن يواسيها ، يعانقها ، يربت على رأسها ، كالطفلة الصغيرة ، لكنه كبت هذه الرغبة العاطفية ، التي لم يألفها ، حتى أنه صرخ بها :

– يكفي ! وجدت من تبكين لأجله !

– ماذا سيجري لي الآن ؟ عادت سيفيم تنتحب – فنحن خطيبان ... كيف سأظهر بين الناس ؟

– توقفي حالاً ! من يرَ بكاءك ، يعتقد أنك فقدت رأس المال .

– أخ يا عزيزي ! رأس المال أم لا ، لكن ما رأيك بوضعي ؟ ما هو ثمني بعد هذا ؟

أطلقت سيفيم هذه المزحة ، وخافت منها ، وشعرت بالمرارة والإهانة.

– لو أنك تكلم سعيداً ... فأنتما صديقان ...

قطب أحمد . وإذ تذكر دروس الكرة التركية ، كاد يخرج عن طوره. ودفعته أسئلة سيفيم الحمقاء إلى إمعان الفكر بوضعه هو ، وكم يساوي هو ، أحمد "الجدار" بروفيسور العلوم الكروية "وملك الكرة" . هل يعقل أن عهده قد ولى ، وجاء ملك آخر يتبوأ مكانه ؟ ...

أمسك أحمد بيد سيفيم ، وشدها نحوه .

– توقفي عن غبائك ! إنك لا تكفين تكررين : الثمن ، الثمن ! هناك الكثير من الحمقى في العالم ، ولسوف نجد لك آخر ... فمثل هذه البضاعة لا تكسد .

ولاذ بالصمت ، وراح كل منهما يفكر بـ"ليلاه" .

– إسمع – قالت سيفيم فجأة – عندي فكرة ! سيكون ذلك رائعاً ! ...

– ماذا ابتكرت أيضاً ؟

– ليس لدى الأصهب مال – على كل حال ...

– لعلك تريدين الطلب من أبيك أن يعطيه قرضاً ؟

– يا للغباء ! إنني أتحدث جدياً . ماذا لو أغرينا سعيداً بالانتقال إلى عغنا ؟ آه ؟ ما رأيك ؟ لا شك أن ديوندار سيجن من فرط السرور ! أجل ، أجل ، هذا ما سنفعله ، ولسوف ترى . إنها فرصة مواتية للكسب ، ولن يفوتها سعيد المحتاج ...

صمت أحمد بتجهم . كان يشعر بالغضب يأخذ بخناقه : لمن تنوي أن تقدم خدماتها ؟ لديوندار ، لسعيد ، أم له هو ، أحمد ؟ "كيف استطعت أن أرثي لها ؟" – فكر أحمد ، ونهض .

– ما بالك نهضت فجأة ؟

– لدي عمل – همهم أحمد ، وخرج .

حظيت فكرة سيفيم بإعجاب ديوندار مهذار بيه فعلاً : إن عليها أن تبدأ بتنفيذها دون إضاعة دقيقة واحدة ، وستكون تلك أكبر خدمة تقدمها لعغ. وإذا ما بدأت من الإيحاء لسعيد بضرورة الانتقال إلى عغ في الموسم القادم ، فإنه سيتوقف عن تسجيل الأهداف في مرمى "الأعمدة" . وأحس مهذار بيه أنه مع نهاية الموسم سيبدأ نصب شباكه لسعيد . مما لا شك فيه أن عغ سيضطر لأن يسخو في عرضه لان محد لن يرغب في التخلي عن سعيد ...

– كيف حدث أن ضيعنا هذا الشاب ؟ – قال مهذار بيه مفكراً – وعموماً من كان يعتقد أن عبيطاً كهذا يمكن أن يكون ذا فائدة ... نعم لقد شبت وأنا أعمل في المجال الكروي ، لكن لا عهد لي بمثل هذا التحليق الباهر . أي شيء لم يمر علي ، لكن أن يحدث فجأة على هذا النحو ... ثم إنني لست أفهم

أبداً كيف سمحت له باللعب في محد ؟ (كان يعتقد بسذاجة أنه لا يزال لسيفيم تأثير على سعيد) .

- إن الذنب في هذا كله ذنب الإنكليزي ، ودسائسه - ردت سيفيم .

- إذا ما فشلت جهودك فسوف نخطفه - قال ديوندار مهذار بيه بحزم - ألا تتذكرين كيف ساعدت أحمد آنذاك ؟ صحيح ، بالمناسبة ، إننا ننوي عرضه على أحد النوادي في المحافظات . أنت نفسك ترين أن لا فائدة ترجى منه : كلما ساء لعبه ، زادت خشونته على أرض الملعب ... لسوف نبيعه ، ولن نساوم ...

تمزق شيء ما في داخل سيفيم . "مات الملك" - قالت في سرها . حتى أنها لم تحاول الدفاع عن الصديق القديم ، ولم تنبس ببنت شفة ، خوفاً من أن تفقد أعصابها ، وتجهش في البكاء .

مباراة القرن

اللقاء بين عغ وبين محد هو الذي سيحسم كل شيء ، فمن يفز ، يصبح بطل البلاد .

وفي هذه المباراة سيتقرر مصير بطولة أخرى : من سيكون لاعب الموسم الأفضل . من سيفوز بلقب "ملك الكرة" . كان هناك ثلاثة مرشحين لنيل هذا اللقب ، بمن فيهم سعيد ريجيصين لاعب أقصى الهجوم في محد . ولكي يصبح سعيد "ملك الكرة" كان يكفي أن يسجل ، ولو هدفاً واحداً ، في مرمى عغ . إن فوز محد يحدد مصير البطولة ، كما يحدد مصيره هو ، سعيد، ويعني تغلب سعيد على نفسه وعلى ماضيه .

عن هذه المباراة التاريخية كتبوا وتحدثوا في كل مكان . واعتبرتها الجرائد حدث العام ، مباراة القرن ، ولم يقتصر الأمر على اسطمبول وحدها ، بل شمل البلاد بأسرها ، فمشجعو الفريقين يقطنون مختلف أرجاء تركيا. وبين الفينة والأخرى تظهر في الصحف الأخبار عن الصدامات بين المشجعين. ولم يقتصر الأمر على المشاحنات ، بل وتطور إلى المشاجرات وتبادل الشتائم . وبلغ توتر الرأي العام ذروته ...

ونظراً للاهتمام المنقطع النظير بالمباراة ، فقد أعلن منظموها عبر الإذاعة والتلفزيون عن اتخاذ التدابير الأكثر صرامة وقسوة ضد احتكار البطاقات .

وللتو قفزت أسعار البطاقات في السوق السوداء ، فبلغت أرقاماً خيالية. وعلى الرغم من أن شباك التذاكر لم يبع حتى الآن بطاقة واحدة ، فقد كانت الآنسات تبعن البطاقات بما لا يقل عن مئتي ليرة . واضطرت الشرطة لوضع يدها على المطبعة ، التي كانت بطاقات مباراة الكرة تطبع فيها . أما وزير شؤون الرياضة فقد صرح في مؤتمر صحفي أنه يشعر بعميق الارتياح أن

الشعب التركي يكرس نفسه بمثل هذا التفاني لقضية الرياضة . وبعد أن ذكر أن العقل السليم لا يمكن أن يكون إلا في الجسم السليم ، أعلن أن ملعبين اثنين، يتسع كل منهما لمئة ألف متفرج ، سيشيدان في اسطمبول في السنوات القريبة.

أثار تصريح الوزير صدى واسعاً في وسائل الإعلام . ففي تعليق له أشار أحد الصحفيين ، ومن باب الدعابة – إلى أن العاصمة لا يكفيها ملعبان ، بل إنها بحاجة إلى عشرين ، بحيث يتسع كل منها إلى ما لا يقل عن مئة ألف. زد على هذا أنه تقدم بمشروع عملاق لتحويل اسطمبول كلها إلى ملعب، ومن أجل هذا الغرض تزنر المدينة بمدرج يتسع ، ليس لسكان المدينة وحدها، بل ولسكان البلاد كلها ، بهدف سد حاجة الجماهير إلى الفرجة .

لكن أحد الكتاب ، وهو معروف بآرائه اليسارية ، اعترض قائلاً إنه من الحماقة التفكير بمثل هذه الملاعب ، في الوقت الذي لا تكفي فيه المدارس والمستشفيات ، وتفتقر المدن إلى الصرف الصحي ، والقرى إلى الكهرباء .

ورداً على هذا كتب معلق رياضي متحمس ، زار العديد من العواصم الأوربية ، مقالة ، جاء فيها : "لقد طفت أوربا من أقصاها إلى أقصاها ، وحضرت العديد من المباريات الدولية ، القارية ، العالمية ، والأولمبية ، ورأيت مدى حاجة الشعوب لكرة القدم . فلا داعي لخلط الصرف الصحي بالرياضة، اختتم مقاله بغضب .

أخذت الحماسة للمباراة تزداد سعيراً ، وراح المشجعون يراهنون بمبالغ تتراوح بين خمس ليرات وخمسة آلاف . وكثر في الجرائد ظهور أخبار جديدة من نوع : "إذا ما فاز عغنا فإن إسكافيي اسطمبول سيهدون زوج أحذية ليس فقط لكل عضو من أعضاء فريقهم المحبوب ، بل ولأفراد أسرهم" .

"أعلن صاحب مطعم أنه سيقدم الطعام لفريق محد مجاناً على مدى شهر كامل في حال فوز هذا الفريق ... " .

"أعلن أحد كبار المسؤولين في بلدية اسطمبول أنه في حال فاز عغ فإنه سيسمح للاعبي النادي بالدخول مجاناً إلى الأماكن العامة في المدينة ... " .

أما بالنسبة لمهذار بيه فقد وعد أعضاء فريقه بستة آلاف ليرة لكل منهم، في حال فوزهم، بالطبع ...

وأما إيرول أركان فقد نشر في جريدته صورة فتاة في "البيكيني" ، مرفقة بالتعليق التالي : "أعلنت نورتين . مشجعة محد ما يلي : "إذا ما خسر فريقي فسوف أحرق نفسي في ميدان التقسيم ... " .

ولا تسل عن المشاحنات العائلية وعن حوادث الطلاق ، بسبب المباراة القادمة.

وكان الصحفيون يتخاطفون المشاهير : ففي كل يوم كانوا يضطرون للرد على السؤال ، الذي يقض مضاجع الوطن : "من سيكون البطل برأيك ؟"، وكانت سيفيم في عداد من طرح عليهم هذا السؤال ، فردت قائلة :

– أبدأ بالمقولة المعروفة أن الكرة دائرية . من الصعب القول الآن لمن ستكون البطولة . أما التنبؤ فعمل غير محمود ، وخاصة حين يدور الحديث حول هذين الفريقين . إذا كان عغ جيداً من الناحية التقنية فإن محد في لياقته أفضل . وإذا كان من الصعب الوقوف في وجه سعيد أوفصايد ، فإنه من الصعب ، بالقدر نفسه ، تجاوز أحمد الجدار .

لكن الصحفي طرح السؤال على المكشوف :

– إنك من مشجعي عغ بالطبع ؟

– اسمح لي أن أمتنع عن الجواب ...

بيد أن الحديث لم ينته هنا : فقد استطاع الصحفي الماكر الحصول من سيفيم على عدة صور .

– هل تسمحين ؟ ... بودي أن أنشرها ...

– لست أدري ... أنت وشأنك ...

ظهرت في الجريدة صورة التقطت لسيفيم على "البلاج" في عناق مع أحمد .

وحين طرح السؤال عن البطل المنتظر على أيسيل لم تلف وتدر ، على غرار سيفيم ، بل قالت بكل صراحة :

– محد سيكون البطل .

لكن رأي أيسيل لم يكن يهم القارئ ، بقد ما كان يهمه التمتع برؤيـة صورها ، ولحسن الحظ لديها ما يستحق النظر . فالجرائد لا تـشترى فقـط لقراءة ما فيها من مقالات مختلفة وتصريحات . يجـب أن تكـون الجريـدة موضحة بالرسوم والصور المحسوسة ، خاصة حين يتعلق الموضوع بالنساء.. إن كل ما هو جذاب في المرأة يجب أن يوضع فـي متنـاول الجرائـد . إن التركي لا يتعلق بالنساء النحيفات ، ولذا فلم يكن بوسـع سـيفيم غريفـون أن تنافس أيسيل الإسبانية ذات الجسم المكتنز ، الذي يسر العين التركية ، ومـن هنا فقد كانت الجرائد ، التي تنشر صور أيسيل تصدر بعدد نسخ مضاعف ...

قبل اليوم الموعود كان على كلا الفريقين أن يغادرا اسطمبول لأخـذ قسط من الراحة .

وقبيل السفر قرر سعيد ترتيب بعض الأمور المنزلية، ونشير هنا إلى أنه بدأ يفكر بمسائل لم يكن يهتم بها في السابق . فعلى سبيل المثـال : كيـف سيعيش لاحقاً ؟ ماذا سيعمل ؟ كيف سيكسب قوت يومه ؟ ... وقـرر قبـول مشروع شركات البناء ، والتخلي عن قصر العائلة . وتشييد أربعة بيوت فـي مكانه ، حيث سيكون بوسعه السكن مع عمته ومدام أنجيلا في واحد منها ، أما البيوت الباقية فيؤجرها . ومع هذا فإن نيته في العمل لا تتزعزع .

وقد تبين أن إقناع عمته بضرورة هذا القرار ليس بالأمر السهل أبداً. فما إن سمعت المرأة العجوز أن القصر ، الذي ترعرعـت بـين جدرانـه ، وقضت كل حياتها فيه ، سوف يهدم ، حتى فقدت قدرتها على الكلام ، وحينما عادت إلى وعيها ، قالت بصوت يرتجف :

– لقد ولدتَ في هذا البيت وترعرت ... فكيف تجرؤ على رفع يديك على قدس الأقداس هذا ؟ كلا يا سعيد ، لن تتصرف على هذا النحو ...

– لكن يا عمتي يجب أن تفهمي أن الحياة تقتضي ذلك . فهل بقي في مدينتنا الكثير من القصور العريقة ؟ كلها هدمت من زمان ، وشـيدت محلهـا بيوت حديثة .

– طيب وما الجيد في البيوت الحديثة ؟ إنها نعوش وليست بيوتاً ! كلا، وما دمت لا تريد أن تأخذ برأيي فسوف أذهب إلى دار العجزة ! – لقد أظهرت بيرين هانم أفندي عناداً لا مثيل له .

– وأنا أيضاً – تنهدت مدام أنجيلا – فلن أفالق سيدتي .

– لكن افهمي يا عمتي أن قصرنا قد يقع في أي يوم بسبب القدم ...

– لا قدر الله أن أعيش حتى ذلك اليوم ...

وانتهى كل شيء بأن بكى سعيد مع عمته ومدام أنجيلا .

– هل خطر لك – قال سعيد باكياً – أنني أريد أنا نفسي أن أغادر بيتنا ؟

والغريب أن دموع سعيد أعادت العمة إلى الواقع ، فمسحت دموعها، وضمت ابن أخيها إلى صدرها ، وراحت تراضيه كأنه طفل :

– طيب يا ولدي ، اهدأ . طيب فليكن . إنه بيت قديم فعلاً ، والسكن فيه غير مريح . هلا توقفت ...

جرى الانتقال إلى الشقة الجديدة ببالغ الصعوبة : فالعمة تريد أن تحمل من القصر كل الأشياء ، ولا تستطيع التخلي حتى عن سقط المتاع .

– آخ يا عتمي ، لكن أين سنضع هذا كله ؟ فالشقة أصغر من البيت.

– سوف أموت إذا ما فارقت حاجياتي – أعلنت بحزم .

بعد يومين غادر سعيد اسطمبول مع الفريق .

أخيراً حل اليوم الموعود . فتوقفت الحياة في المدينة ، وتدفق الجميع على الملعب ، وخوت اسطمبول على عروشها ...

قبيل المباراة ذهب عغ ، وعلى رأسه مهذار بيه إلى مسجد أيوب سلطان لأداء الصلاة .

أمضت سيفيم عدة أسابيع في البحث عن سعيد ، لكن دون جدوى : فهي لم تكن تعرف عنوان البيت ، الذي يسكن فيه الآن ، ولم تواتها الجرأة

للذهاب إلى نادي محد ، وكانت تعلق جل آمالها على هذا اليوم : قبل بدء المباراة ستلتقي سعيداً ، وتخبره عن أن عغ يعرض عليه الانتقال إلى ناديه ، مقابل مبلغ كبير بالطبع . ولا شك أنه سيوافق على الفور ، وبعد المباراة ستصحبه إلى منزلها . اليوم يجب أن يكتشف ، ويعرف مدى حبها له . لسوف تفعل كل شيء لكي تحظى بإعجاب سعيد ، وستكون لطيفة وحنونة معه ، كما لم يسبق أن فعلت ! لن تكون هي سيفيم غريفون ... واليوم كانت تتمنى من كل قلبها الخسارة لفريقها الحبيب عغ ...

كان الناس يتدفقون في سيل لا ينقطع عبر شوارع المدينة باتجاه الملعب . وقد عمد من لا بطاقات لديهم إلى اقتحام أسوار الملعب ، كما اقتحم أسلافهم في القرون الغابرة أسوار بيزنطة . وحتى لو وجدوا أنفسهم أمام سور الصين إذن لما توقفوا ...

كل الأماكن في المدرجات كانت مشغولة قبل أربع ساعات من بدء المباراة . وقد جاء المتفرجون إلى هنا ومعهم الزاد اللازم ، ولم ينسوا (طاولات) الزهر وورق الشدة ، بالإضافة إلى النبيذ والعرق .

أخذت سيفيم تستعد للمباراة ، وكأنها ذاهبة إلى حفلة راقصة . فقد ارتدت أجمل فساتينها ، وتبرجت وتزينت . دون أن تنسى خاتم الخطبة . وعندما همت بالخروج عادت أمها توصيها :

– إياك يا ابنتي وإظهار ميلك للرجال ، وإلا فإنهم يركبون على رأسك ! كوني شاطرة يا أبـ ...

– كفاك تعليماً لي ! – انفجرت سيفيم – فلست أنوي بعد الآن أن أسألك ماذا يجب أن أفعل ، وكيف يجب أن أتصرف ! فأنا أعرف ذلك أحسن منك

– آخ منك يا خبيثة – صاحت ميهجوري هانم – انظروا إلى ناكرة الجميل هذه ! لقد أنجبتها ، وأطعمتها وسقيتها ، فتقول لي أنا أمها ، مثل هذه الوقاحات ... كيف تتجاسرين ؟ ...

– أتجاسر ! أتجاسر ! أتجاسر ! – انتقل صوت سيفيم إلى الزعيق – كل شيء بسببك ... "آخ هذا اللون لا يناسب ، آخ هذا الطراز لا يناسب !" .

– النجدة ... إنني أموت ! ... – صرخت ميهجوري هانم بصوت ملأ البيت ، ثم وقعت في الكنبة ، جاحظة العينين .

لم يطرف لسيفيم جفن ، وخرجت بكل هدوء ، ثم صفقت الباب وراءها بقوة .

– ليتك تصابين بالعمى يا ساقطة – بصقت أمها في إثرها .

وجدت سيفيم نفسها في حيرة من أمرها ، فإلى أين تذهب أولاً : إلى شباب عغ ، أم إلى الفندق ، حيث نزل فريق محد ؟ " يجب أن تذهب إلى هؤلاء وأولئك" – فكرت بحكمة ، ثم توجهت إلى "الأعمدة" .

– لتكن كل الشياطين معكم يا أولاد – صاحت بمرح متكلف بدلاً من إلقاء التحية .

لكن الأولاد لم يحركوا ساكناً لدى ظهورها . بعضهم رفع رأسه بدون رغبة ، وهمهم :

– أو ! لقد جاء شرفنا وضميرنا ...

– كيف حالكم يا أولاد ؟ – سألت سيفيم بصوت ضعيف .

التفت أحمد ناحيتها ، لكنه لم يقف .

– كما ترين . البارحة زرنا حامينا المحترم ، أيوب سلطان ، واليوم ننوي – بعون الله – أن نغلب "المحتاجين" .

أثار كلامه الضحك .

– أما أنت يا حلوة فاجلسي بجواري ، لكي أوفق في اللعب ...

جلست سيفيم قرب أحمد ، لكنها لم تلبث أن شعرت أنها وحيدة : فلم يهتم بها أحد ، كما في الماضي ، ولم يتحدث معها أحد ، فنهضت ، وخرجت بكل هدوء .

بعد أن تمكنت من اصطياد تاكسي ، انطلقت سيفيم إلى فندق آخر ، حيث نزل الشباب من محد .

لكن موظف الاستعلامات لم يسمح لها بالصعود إلى الطوابق العليا .

- كيف ؟ - قالت سيفيم بغضب - ولماذا لا أستطيع الدخول ؟ ماذا تعني بقولك ممنوع؟ من أين هذه الأنظمة ؟

- ستضطرين للانتظار إلى أن نخبر مستر طومبسون أفندي بقدومك.

- ومن يكون هذا ؟

- مدرب الفريق .

- منذ متى والمدرب يحشر أنفه في كل شؤون الفريق ؟ دعوه يأمر اللاعبين على أرض الملعب ، وليس هنا .

سمع طومبسون هذه الكلمات . فاقترب منها ، وقال :

- مرحباً ! أنت محق إنني آمر في كل مكان ... هل ترغب برؤية سعيد ؟

- نعم .

- إنني أسمح لك برؤيته ، لكن أرجوك : لا تبقي طويلاً ، فنحن ذاهبون إلى الملعب عما قريب . تفضل إلى الطابق الثاني . غرفة الاستقبال الصغرى .

لم تكد سيفيم تدخل غرفة الاستقبال ، حتى جمدت في مكانها : كان سعيد وأيسيل يجلسان إلى طاولة واحدة ، يشربان الشاي . وإذ رآها سعيد نهض ، ومد لها يده .

- مرحباً يا سيفيم ...

- شكراً لك أنك لم تنسَ اسمي - ردت سيفيم بلهجة عتاب لاذعة .

لاذ سعيد بالصمت . ألقت سيفيم نظرة على أيسيل .

- أظن انني ضايقتكما !

- كلا ماذا تقولين - أجلسي معنا أرجوك ...

- وأين نظارتك ؟ - سألت فجأة ، بدون مناسبة .

وابتسم سعيد .

- بفضلك لم تعد ضرورية. ولم أعد ألبسها إلا في الشارع ، وعندما تكون الشمس ساطعة ...

ورغبة منه في تغيير موضوع الحديث ، أسرع يعرف المرأتين على بعضهما :

- اعذراني من فضلكما ، فأنا لم أعرفكما على بعض ...

- أوخ يا ربي ، ومن لا يعرف أيسيل الإسبانية ؟

فابتسمت هذه ساخرة .

- ما الذي جرى لك يا سيفيم ؟ في يوم كهذا ، حيث عليك أن تلهمي أولادك ، تأتين إلى هنا ؟ أولم تخطئي العنوان يا ترى ؟ إن عغ ينزل في فقد آخر ...

وتملك الغضب سيفيم غريفون ، فانقضت على أيسيل ، محاولة الإمساك بها من شعرها . وكما لو أن أيسيل كانت تتوقع هذا الهجوم ، فقد تحركت بمهارة ، وبدورها أمسكت سيفيم من يدها . هرع اللاعبون على زعيق المرأتين ، لكن أحداً لم يحاول تخليص الغريمتين . وراح هؤلاء الشباب الأقوياء يضحكون وهم يشجعونهما ويحرضونهما .

- اضربيها على عينها ، مرحى لك يا أيسيل ...

- هيا يا سيفيم لقنيها درساً ...

- هيه أيتها الإسبانية لا تستسلمي ...

وراحت المرأتان تتدحرجان على الأرض .

أما سعيد فقد وقف في مكانه لا يريم .

وفي هذه اللحظة ظهر طومبسون بالباب ، وصاح ، دون أن يهتم بالشجار :

- يا ألله يا أولاد ! جاء الباص . هيا بنا - وراح يخرجهم من الغرفة بحماسة . ثم أخذ سعيداً من يده .

حين انصرف الجميع توقف العراك ، وكانت المرأتان قد غابتا عن الوعي .

كانت أيسيل أول من عادت إلى رشدها ، فنادت الخادمة ، وقالت لها:

- هاك تلفون زوجي ، اتصلي به ... بلغيه أنني في حالة سيئة .

أفول النجم

ارتفع فوق الملعب ، الذي يغص بالجمهور إلى درجة الإشباع ، هدير رتيب منتظم يصم الآذان . وكان مشجعو الفريقين ، الذين يجلسون على مدرجين متقابلين ، يقرعون بالعصي على المعلبات وعلب الصفيح ، وهذا ما يعرف بلغة محبي الرياضة باسم "سخط الحموات" ، ويزقزقون على الألواح الخشبية ، وينفخون في الأبواق ، ويصفرون بالصافرات ، ويطقطقون بالخشخيشات ، وينشرون الشعارات فوق رؤوسهم . وأطلق كهل صغير أدرد صفيراً جعل الملعب يلوذ بالصمت للحظة ، ثم عاد يغرق في لجة الهدير . ولم يكن في الملعب شخص واحد إلا وفي يديه شيء ما : عصا ، زجاجة ، تنكة...

حين ظهر اللاعبون الأحد عشر في زي فريق محد ، ضج المدرج بعاصفة من التصفيق . بينما ضج المدرج المقابل بعاصفة من الصفير . والشيء نفسه تكرر معكوساً عند ظهور فريق عغ .

بدأ اللعب بوتيرة سريعة فوراً . مئة ألف متفرج يحتلون مقاعدهم على المدرجات ، وخمسون ألفاً بدون بطاقات ، راحوا ينتظرون ، وكأن على رؤوسهم الطير ، لكن الهدوء كان من ذلك النوع الذي يسبق العاصفة ...

انقضت الدقائق العشر الأولى في منتصف الملعب ، دون نجاح يذكر . وفي الدقيقة العاشرة وصلت الكرة إلى سعيد فزعق مشجعو "المحتاجين" :

– أوف ، أوف ، أوفصايد ! – أوف ، أوف ، أوفصايد !

اندفع سعيد يطارد الكرة على الطرف ، واقترب من منطقة الجزاء ، وإذا به مع أحمد وجهاً لوجه . وحين أدرك أحمد أن لا حيلة له في انتزاع

الكرة من سعيد وجه للمهاجم رفسة قوية على ظهره ، فأقعى هذا ، وهو يتلوى من الألم ، كأن مسماراً دق في عموده الفقري ...

ولولا هذه الركلة إذن لسجل سعيد الهدف الأول على الأرجح .

أو – و – أوخ – صاح مشجعو محد ، أما أحمد ، الذي استبد به الغضب الوحشي نتيجة وقوف الجمهور إلى جانب سعيد ، فقد راح يهدد المدرج بقبضته .

– أوف ، أوف أوفصايد ! أوف ، أوف ، أوفصايد – رد عليه الجمهور – هيا شوط يا سعيد ، يا الله شوط يا أوفصايد .

ومن دقيقة إلى أخرى كانت المباراة تزداد توتراً . ولم يفارق لاعبو محد أرض الخصم ، وباستمرار كانت الكرة كالسيف المسلط فوق رأس مرمى عغ . ومع ذلك فإن عغ هو الذي سجل الهدف الأول ، ففي إحدى الهجمات المضادة سجل "الأعمدة" هدفاً في مرمى محد .

انتهى الشوط الأول والنتيجة واحد صفر لصالح عغ .

في الدقيقة السابعة من الشوط الثاني سجل "المحتاجون" هدف التعادل ، وكان سعيد هو الذي سجله . ويبدو أن هذا النجاح قد قوى من عزيمة لاعبي محد ، ورفدهم بقوة جديدة . وراح سعيد أوفصايد يزيد من ضغطه على مرمى الخصم . وكلما ازداد هجوم "ملك الكرة" حدة ، تمادى أحمد في خشونته ، وتفاقم غضبه ، وازداد عصبية . ولم يلبث هو نفسه أن وقع ضحية الخشونة . فقد ركله رزق ، كاسر العظام ، على عصعوصه ركلة جعلته يطلق صرخة قوية ، ويسقط على الأرض يتلوى ألماً . لكن الحكم لم يوقف اللعب ، واستمرت المباراة . اندفع سعيد نحو أحمد ، يريد مساعدته في الوقوف على قدميه ، لكن هذا ، ما إن رأى سعيداً فوق رأسه ، حتى وثب ، ودفعه عنه ، ثم انطلق وراء الكرة ، متغلباً على الألم .

– إن أحمد يلعب بخشونة كبيرة اليوم – أشار المعلق الرياضي ، الذي كان ينقل وقائع المباراة بالراديو – ومع هذا فإن فذلكاته تحولت ضده ... آي – آي – آي ما الداعي للقيام بذلك ... الآن سيوقف الحكم المباراة ... كلا... ألا تسمعون ردة فعل الجمهور أيها المستمعون الأعزاء ؟ سعيد في تمريرة

رائعة يقطع منتصف الملعب ... وها هو عند مرمى الخصم ... الآن سنرى هدفاً آخر ... أوي يا إلهي من أين جاء أحمد ؟ كلا ، لن يكون هناك هدف فقد جندل أحمد سعيداً في منطقة الجزاء ... آي – آي – آي يا أحمد ! يا عيب الشؤم . فللتو أراد سعيد أن يساعدك ، كما يليق بالجنتلمان ... هرع الحكم ناحية سعيد ... تقررت ضربة جزاء ...

كان عثمان الفلفل رئيس فريق مجد ، هو الذي سدد ضربة الجزاء : و–هدف ! اثنان إلى واحد لصالح مجد .

لم يسبق لأحمد أن لعب بمثل هذا السوء والارتباك . كان يشعر وكأن سكيناً مغروزة في ظهره من شدة الألم . طبعاً يجب أن يغادر أرض الملعب ، لكن أحمد لا يستطيع اتخاذ قرار كهذا . إن طومبسون على حق : على الفريق الكروي الممتاز أن يعمل كما الآلة المضبوطة جيداً ، فإذا ما انكسر فيها شيء، ولو برغي واحد ، فإن الآلة كلها قد تتعطل ... كان أحمد يروح ويجيء في الملعب على غير هدى ، والفريق كله كان يلعب بارتباك واضح ...

– أجل إن سعيدنا يجترح المآثر اليوم – تابع المعلق الإذاعي _ إنه يطمح بكل ثقة لنيل لقب اللاعب الأفضل . إنه سيد الملعب ومايسترو اللعبة برمتها... إنكم تسمعون – دون شك – ردة فعل الجمهور . أجل إنها مباراة غاية في التوتر .. إن حدة الصراع لا تخف .. ها هو سعيد قد سيطر على الكرة ... إنه يتجاوز ثلاثة لاعبين دفعة واحدة ... وها هو يزداد قرباً من المرمى ... مرحى لسعيد ... الآن سيسجل .. هيا ! كو – و – ول ! ثلاثة واحد لصالح "المحتاجين" .

أصبح جلياً أن البطولة من حظ مجد ، وأن سعيداً هو الذي سيكون "ملك الكرة" . ها هم رفاقه يرفعونه على أيديهم . أما مشجعو عغ فقد هاجوا وماجوا ، وراحت العصي والتنك والزجاجات تتطاير نحو أرض الملعب . من الواضح أنها ألقيت على سعيد . وها هو سعيد يقع ، وقد أمسك برأسه ، ومن تحت كفه ظهر الدم ،أرقدوا سعيداً على العشب ، وأحاط به اللاعبون ، إحاطة السوار بالمعصم .

– بسيطة ، بسيطة – راح سعيد يؤكد – سوف أنهض الآن بنفسي... وحاول النهوض ، لكن الدم راح يسيل أقوى ، فحملـوه علـى الأيـدي إلـى المشلح.

استمرت المباراة على إيقاع هدير المدرجات . وبعد حوالي خمـس دقائق ظهر سعيد في أرض الملعب برأس مضمد . وبعد قليل يـسجل سـعيد هدفاً آخر في مرمى الخصم .

أعلنت صفارة الحكم نهاية المباراة . وقد وجدت الشرطة والجنـدرما أنها عاجزة عن الوقوف في وجه الجمهور ، فقد تدفق مشجعو "المحتاجين" إلى أرض الملعب ، أما مشجعو عغ فكان يخيم فوق مدرجهم صمت مأساوي .

ويزداد تدفق الناس إلى أرض الملعب ، وخيل لسعيد أنهـم يجـرون نحوه . وسعيد لم يكن باسلاً ، حتى أنه يمكن القول انه شخص قليل الجـرأة . بيد أنه ظل واقفاً في مكانه ينظر إلى الناس ، الذين يقتربـون منـه ، دون أن يفكر بالهرب : "وليكن ما يكون" . وفي غمضة عين وجد نفسه في الأعلـى ، في الجو ، فوق الملعب . وسمع الناس يهتفون ، ويـضحكون ويـصخبون . وحين أعادوه إلى الأرض ، اعتقد أنه نجا من حماسة الجمهور ، فاتجه ناحية المخرج . لكنه أخطأ في ظنه : فمن جديد أحاط بـه المعجبـون الفرحـون ، وراحوا يمزقون سرواله وقميصه ، ليحتفظوا بأشلائهما تذكاراً غالياً . وحين لم يبق ما يستر جسمه إلا القليل – القليل ، امتدت الأيدي إلى الضمادات المـدماة على رأسه ... وبالكاد استطاعت الشرطة إنقاذ سعيد من أحضان عشاق الكرة المتعصبين .

انطفأت أضواء البروجيكتورات ، وللحال غرق الملعب في الظلام . لم يذهب سعيد إلى المشلح ، بل جلس علـى العـشب ، عنـد طـرف أرض الملعب، محتضناً ركبتيه وواضعاً عليهما رأسه الثقيل ، الذي يتمزق ألماً ، ثـم استسلم للتفكير ...

على المدرجات كان المشجعون يحرقون الجرائد : بعضهم من شـدة الحزن ، والآخر من شدة الفرح .

جلس سعيد يفكر بأن المباراة الكروية تساعد الناس على الأرجح – في إظهار نفسهم بحرية ، والتنفيس عن الغضب المتراكم ، وتمزيق الأسى ، والتخفيف عن النفس ... وإلا فكيف نفسر قدوم مئات الآلاف من الناس لمشاهدة هذا الصراع العاصف من أجل الكرة ، الذي يخوضه عشرون شاباً؟... وما الذي يجعل جميع هؤلاء المدقعين ، الجهلة ، المرضى والمسلولين ، الكتعان والعور ، ما الذي يجعل هؤلاء المساكين يتخلون طوعاً عن راتب أسبوع ، وعن آخر قرش لديهم من أجل الفوز ببطاقة إلى الملعب ؟ لعل الملعب بيتهم أو مستشفى ؟ لكن هل يتخلصون بقدومهم هنا من المشاغل اليومية ، من مشاكل الحياة ومن الأمراض ؟ كلا ... لعلهم يريدون إهانة من يعن على بالهم من الحكام واللاعبين والمتفرجين الجالسين بجوارهم . وبعد أن يطلقوا العنان لمشاعرهم ، وغرائزهم ، ويفرغوا القلب مما تراكم فيه من غضب ، ومن المرارة المترسبة في داخلهم ، ومن الظلم الذي يعتمل هناك ، يستردون بعض الطمأنينة ، لكن لبعض الوقت ... وهكذا حتى المباراة التالية... ولهذا فإن السلطات تشجع هذا النوع من الفرجة ...

لم يعرف سعيد كم مضى عليه وهو جالس على العشب . فالملعب أقفر من زمان ، وخيم فوقه الصمت غير المألوف . وفي هذا الصمت الفظيع بدا وجع الرأس أدهى وأمر . بالكاد استطاع النهوض والتوجه نحو المشلح . كان بمقدوره التوجه إلى أصحابه ، فهو يعرف أين هم ، لكنه ما إن ارتدى ثيابه حتى قرر العودة إلى البيت . وبينما كان يهم بإغلاق الباب وراءه تناهى إلى سمعه أنين قوي ، مصدره مشلح فريق عغ . ولدى دخوله إلى هناك وجد أحمد على المقعد ، وهو يتلوى من الألم ، وإلى جانبه يقف اثنان من عمال الملعب .

– ماذا بك ؟ – سأل سعيد

– حالتي سيئة جداً ... نطق أحمد بصعوبة .

– هل بقي أحد آخر هنا ؟ – سأل أحد العاملين .

– كلا فقد انصرف الجميع من زمان .

– يجب أن نفعل شيئاً ...

– لقد طلبنا الإسعاف ، لكن يبدو أنهم ليسوا على عجل ...

هرول سعيد إلى الشارع في طلب تاكسي . وهناك كانت بانتظاره كل من أيسيل وسيفيم : الأولى في سيارتها الخاصة ، والأخرى في تاكسي . كلتا المرأتين كانتا تدركان أن مصيرهما سيتقرر اليوم .

اعتقد سعيد أن التاكسي غير محجوزة فجرى نحوها ، وخرجت سيفيم للقائه بفرح :

– حبيبي – صاحت – هل سنذهب إلى عندي ، أم إلى أصحابك ؟

ألقى سعيد عليها نظرة باردة ، جعلتها تدرك أنها خسرت . وإذ أدركت ذلك أطلقت صرخة ، كتلك التي تطلقها ميهجوري هانم :

– ماذا ؟ ما بالك تنظر إلي ؟ ربما لم أعجبك ؟ ...

ومن جديد ، وللمرة الرابعة ، نزعت خاتم الخطوبة ، ورمت به سعيداً بكل كراهية ... بعد ذلك غطت وجهها بيديها ، وأجهشت في البكاء . ماذا سيحدث لها الآن ؟ فهي لم تكن له كل الحب ...

وحينذاك خرجت أيسيل من السيارة ، ودنت من سعيد ، وهي تبتسم . وإذ همت بتأبط يده ، ابتعد عنها بمهارة ، وبكل ما أوتي من قوة ضرب السيارة بقدمه . كانت تلك ضربته الأخيرة ...

عثر سعيد على تاكسي ، وعاد إلى الملعب . حمل أحمد بين يديه ، ثم أجلسه في المقعد الخلفي ، ونقله إلى المستشفى .

فحص الطبيب لاعب الدفاع باهتمام ، وأعلن ضرورة إجراء العمل الجراحي على جناح السرعة ، وإلا فإن أحمد لن يستطيع الوقوف على قدميه بعد الآن .

– أما الآن فسنعطيه إبرة مخدرة ، وسينام حتى الصباح ...

دنا سعيد من أحمد .

– كيف الأحوال ؟

حين أخبروا أحمد بأمر العملية قال بأسى :

– والآن خلاص . وداعاً أيتها الكرة ... كان علي أن أترك الكرة من زمان ، لكنني لم أجرؤ ... كيف سأعيش الآن ؟ ... آه ؟ ... ألا شكراً جزيلاً لك يا سعيد – وترقرقت الدموع في عيني أحمد .

– ما هذا الكلام يا أحمد ، أنا من يجب أن يشكرك ...

خرج سعيد من المستشفى ، مع بزوغ الفجر ، فقرر أن يتمشى إلى البيت . وقادته قدماه إلى قصر آل ريجيصين ، الذي بدأ تحطيمه – غداً لن يبقى منه شيء ، وانكمش قلب سعيد . راح يجوب الحديقة على غير هدى ، ثم جلس على حافة البئر ، التي سبق أن سقط فيها ، وانتظر طلوع النهار ، ومن ثم انطلق إلى البيت بكل عزم .

كان يسير على عادته القديمة ، وهو يلوح بيديه ، ويتحدث مع نفسه. ولم يكن ثمة من حوله أحد في هذه الساعة المبكرة . ولو أنه صادف في طريقه أحد المارة ، إذن لأوقفه سعيد – على الأرجح – وقال له :

– اسمع يا أفندي ، أعتقد أنني أخطأت . لقد سلكت – على الأرجح – الطريق الخطأ . أعتقد أن عليّ أن أبدأ كل شيء من جديد . لكنني لا أعرف مم أبدأ ؟ آه ... بماذا ألعب الآن ؟ ...

في اليوم التالي أجمعت الجرائد الجرائد كلها على تنصيب سعيد "ملكاً للكرة". ومر يوم آخر فضجت اسطمبول كلها , والبلاد من أقصاها إلى أقصاها بخبر غاية في الإثارة : لقد تنازل ملك الكرة عن العرش ، وترك كرة القدم .

وفي جريدته كتب إيرول أركان بيه ، المعلق الرياضي الأكثر موضوعية ، والأوسع شهرة ، كتب يقول ...

"أفل النجم ... لم يكد نجم كرتنا الجديد يبزغ حتى خبا ... " .

– ١٩٥٧ –

دعها
إنّها راشدة

في روايته هذه كما في أعماله الأخرى يستخدم عزيز نيسين الأسلوب الساخر لتعرية الفساد والمفاهيم المتخلفة العفنة . وهنا يركز على تشريح سلوك الأسر المسمّاة عريقة وآرائها في الحياة .

وبعد أن نضحك طويلاً ونسخر معه من أبطاله يلفت انتباهنا إلى أن الضعف والمسكنة لن يجديا الانسان الوادع نفعاً . وحدهما القدرة على الفعل ، وامتلاك المفاهيم الإنسانية ما يعطيانه القيمة ويرفعانه عالياً . لذا يدفع ببطل روايته المغفّل إلى نهاية الغفلة المذلة ليستيقظ بعدها تاركاً زيف الماضي ويعود بقوة وروح جديدتين تفاجئان من كانوا يستهزئون به وتوقِعاهم في إرباك محيرّ .

الناشر



دار الحصاد
سورية - دمشق - ص.ب: ٤٤٩٠
هـ : ٢١٣٤٦٩٢ / فا : ٢١٢٦٣٢٦